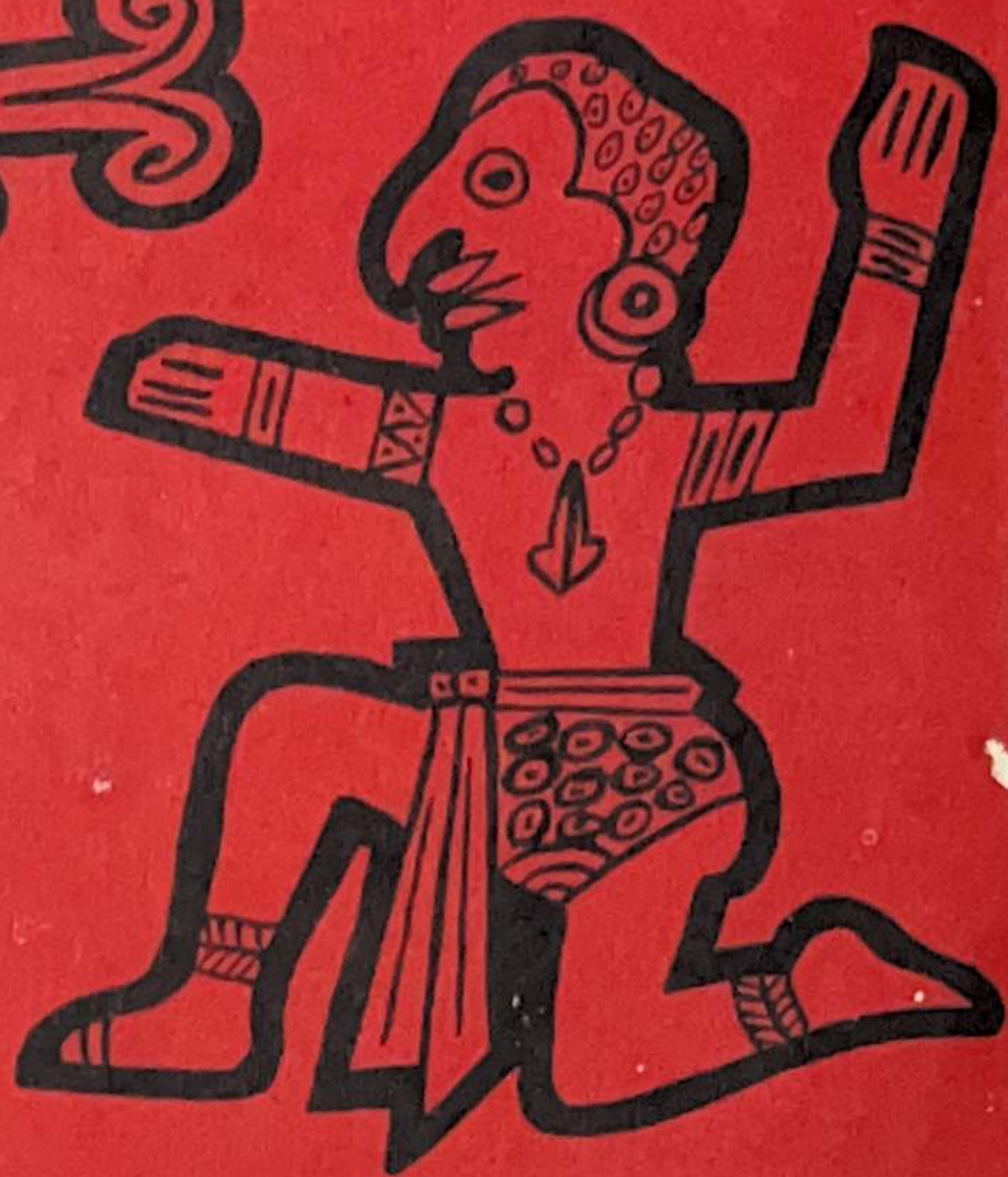
الحضارة القديمة في الدنيا الجديدة

تأليف : فرانك هيبين - ترجمة الدكتور محمد محمود الصياد







DIGGING UP AMERICA

Copyright c 1960 by Frank C Hibben

Published by Hill & Wang, New York

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يبدأ « تاريخ » الأمة من الأمم فى عُرف المؤرخين من الوقت الذى أخذت فيه هذه الأمة تسجل أحداث حياتها تسجيلاً مكتوباً ، أما ما سبق هذا العهد فهو عندهم عصر « ماقبل التاريخ » .

وليس من شك فى أن معرفة الكتابة كانت خطوة واسعة خطتها البشرية وهى تتحسس موقع أقدامها على درب الحياة الطويل ؛ وهى حدث يمكن أن يتخذ بداية لتاريخ مرحلة ما فى حياة أمة من الأمم ، ولكنه يغفل كثيراً من فصول القصة الإنسانية قد تكون أعمق أثراً فى تكوين شخصية الأمة ، بل وقد تشكل مرحلة أطول بحساب الزمن من مرحلة تاريخها المكتوب .

ونظلم الأمة حينما نطلق على مرحلة حياتها السابقة لمعرفتها بالكتابة عصر ماقبل التاريخ ، فليست الكتابة فى الواقع سوى مظهر جديد على تاريخ الأمة ، وقد تكون لها فى العصر السابق للكتابة تاريخ لا يقل أهمية عن تاريخها المكتوب ، بل وربما تكون هذه الأمة قد عرفت نوعاً من الكتابة إندثرت وثائقه فلم تصل إلى أيدينا ، أو استغلقت رموزه فلم نهتد إلى حلها. ولهذا لابد لنا أن نفرق بين كلمتين « التاريخ » ، « والتأريخ » . أما الأولى فهى المراحل المتتابعة لحياة شعب من الشعوب منذ أن نشأت وأخذت تتبلور شخصيته المستقلة ، وأما الأخرى فهى وسيلة نسجل بها أحداث هذه المراحل وليست الكتابة بالوسيلة الوحيدة لهذا التسجيل .

وهذا كتاب فى تاريخ شعوب عريقة كانت تسكن مانعرفه اليوم باسم الأمريكتين ولا ندرى ماذا كان يطلق القوم على أوطانهم من أسماء؛ ولم تستمد مادة هذا التاريخ من الوثائق المكتوبة ، وإنما استمدت من عظام وجماجم ، ومن فخار ورءوس حراب ، ومن رماد مواقد مضى على خمود نيرانها آلاف من السنين .

ومؤلف الكتاب البروفيسور فرانك هيبن Frank C. Hibben أستاذ علم السلالات البشرية (الأنثرولوجيا) فى جامعة نيومكسيكو التى تقوم فى ألبوكيرك ، وقد أغرم هيبن منذ حداثته بالآثار وكان يعمل فى خدمة المنقبين عنها ، فلما تيسرت له سبل التعليم درس فى جامعة برنستون ثم حصل من جامعة هارفارد فيما بعد على درجة الدكتوراه .

وفى هذا الكتاب يروى هيبن قصة التاريخ غير المكتوب للأمريكتين وإنها لقصة رائعة ، جديرة بأن تقرأ فصولها فى دقة وإمعان .

الدقى فى ٢ أغسطس ١٩٦٢ م . م الصياد

دار الاتحاد للطباعة والنشر
١٠ شارع المدرسة الفرنساوية بمعروف - تليفون ٥٠١٥٣

الفصل الأول

بداية أمريكا

الإنسان ، دون الحيوانات العليا جميعاً ، هو وحده الذى يمتلك آلات وأدوات مادية أخرى ، والإنسان هو الكائن الحى الوحيد الذى أنشأ مجتمعاً حقيقياً ، والجنس البشرى وحده هو الذى توصل إلى معرفة أن هناك قوة أعلى فعبدها فى صور شتى من الديانات ، وهو وحده الذى خلق لغة يوصل بها تجاربه إلى من يخلفه من الأجيال .

وليس ما بلغه الإنسان فى حياته المادية والعقلية إلا نتيجة لأنه خلق على طراز فريد ، فدماغه المركب ، فيه المعنى الخفى الذى يميزه عن القردة الدنيا ؛ فهو أكبر حجماً وأكثر لفائف من دماغ أى كائن حى آخر ، ومن هذا الدماغ استمد الإنسان تفوقه الحضارى . وتمكن الإنسان خلال مراحل تطوره من أن يقف على قدميه فاتخذ عموده الفقرى شكل حرف S بينما احتفظت معظم الحيوانات الأولية من ذوات الأربع بظهورها المقوسة ، وقد حرر هذا الوضع القائم أطرافه الأمامية فتطورت لتكون أيادى ، بينما ظلت القردة حتى العليا منها تستعمل أياديها وكأنها العكازات عند المشى . ولكن الإنسان يستطيع أن يستخدم يديه فى صنع الأدوات واستعمالها .

وأصبح الإنسان بيديه وبدماغه المتفوق أقوى مخلوق على سطح

الأرض ، وكانت آسيا وافريقية وأوربا هى الوطن الأول لهذا التطور ، فأين بدأت قصة الأمريكيين إذن ؟ وكيف ؟

لقد بدأت قصة الآثار الأمريكية من آخرها وليس من أولها ، فأحدث الدلائل وأحدث الحضارات هى التى نعرف عنها أكثر من غيرها ، وإن قصة الأخيرة لواضحة فى أمريكا كما هى فى أى مكان ترك فيه الإنسان آثاراً ، بيد أن الصورة تصبح أقل وضوحاً إذا رجعنا إلى الوراء بضعة آلاف من السنين ، وربما ظلت بدايتها الأولى غامضة إلى الأبد ، ولكن عالم الآثار كالشرطى السرى فى رواية محبوكة يحلل الأدلة المتناقضة ويجمع حقائقه فى ترتيب زمنى ، ثم يروى قصة العصور القديمة من البداية إلى النهاية ورغم أن الأثرى يحفر من أعلى إلى أسفل فهو يروى القصة من القاع إلى السطح .

منذ قرن لم يكن هناك شيء اسمه علم الآثار الأمريكية ، أو على الأقل كان من العسير أن تجد شيئاً عن الاركيولوجيا والأنثربولوجيا فى المكتب او فى مناهج الجامعات ، وكانت دراسة مخلفات الإنسان القديم قد بدأت بشكل متواضع فى أوربا . كان قد أمكن التعرف على الأدوات الصوانية الغشيمة كجزء من أولى الحضارات التى خلفها من ورائه الإنسان القديم فى فرنسا . وجدَّ العلماء فى البحث عن مثل هذه الأدوات الصوانية فى سهول أمريكا الشمالية وفى أودية المكسيك فلم يصلوا إلى غاية ، حقاً لقد عثر الباحثون الأوائل فى أمريكا على رؤوس حراب حجرية ، وعلى شظايا من الفخار ، وعلى أساس بعض المبانى ، ولكن هذه لم يكن لها قدم مثيلاتها فى أوربا ولا دلالتها ، ومانفك علماء السلالات البشرية يدرسون كل مخلفات الإنسان قديمها وحديثها حتى أخذت الصورة بالتدريج تزداد وضوحاً ، وظن الباحثون فى أول الأمر أن الأدلة على نشأة الإنسان فى أمريكا إنما تختفى تحت أرض الغابات أو فى أودية الأنهار ، ولكن أحداً لا يأخذ بهذا الآن

بعد أن ثبت قطعاً أن الإنسان الأول إنما نشأ فى العالم القديم ، فى أوربا وإفريقية وآسيا .

لقد عاقت الأفكار الدينية التى كانت سائدة منذ قرن من الزمان عمل الرواد من علماء الآثار الأوربيين ، فمثلاً منع التمسك بالتفسير الكالفينى للخليقة وبأنها لم تنشأ إلا منذ نحو ستة آلاف سنة ، كثيراً من الأوربيين من أن يتقبلوا الأدوات الصوانية وعظام حيوانات العصر الجليدى التى عثر عليها فى أوربا كأداة على حياة بشرية ترجع إلى عديد من آلاف السنين. ومن ثم فعندما عثر « بوشيه دى برتيس » أحد جباة الضرائب الفرنسيين فى سنة ١٨٥٠ على فئوس يدوية fist axes حادة مطمورة على مستوى عميق فى الركامات الجليدية فى شمال فرنسا ، رفض معظم علماء ذلك العهد أن يؤمنوا بالدليل الذى بين أيديهم ، ومضى ما لا يقل عن خمسين عاماً قبل أن يسلم الباحثون الأوربيون بعامة بأن الإنسان الأول إنما ظهر فى العالم القديم منذ نحو مليون سنة ، فى الجزء الأول من الدور الجليدى الأخير .

وكان لابد أن تقوم الدراسات الأثرية الأمريكية الأولى على أساس الأفكار الأوربية برغم أن علماء الآثار الأمريكيين الأوائل لم يكونوا مقيدين بالتفسيرات الدينية المتزمتة ، إذ كان العالم الجديد يتمتع بحرية دينية أوسع مما تتمتع به أوربا ، بيد أن عمل علماء العالم الجديد فى قارتيه الشمالية والجنوبية قد عطلته فى أول الأمر نفس العقبات التى عاقت السكك الحديدية ورجال المناجم والرواد أنفسهم ، فبينما أهلت أوربا بالسكان وتحضرت منذ آلاف السنين كانت الدنيا الجديدة لا تزال متاهة عذراء ، وفى الوقت الذى كان فيه « بوشيه دى برتيس » فى فرنسا يدلل على أن فئوس الصوان اليدوية التى عثر عليها هى فعلاً أدوات لأوربيين من عصر سحيق ، كان الأمريكيون يتدافعون على طريق « سانتافى » ويتدفقون وراء الذهب فى كاليفورنيا ، وكانت أمريكا الجنوبية فى ذلك الوقت قد استكشفت ،

وكانت غابات الأمزون قد ارتيدت لتوها . وفى أى جهة من العالم يأتى الاستكشاف والاستغلال أولاً ، ولا يبدأ الناس ينظرون إلى ماضيهم إلا مع مضى الوقت .

وثمة عامل آخر ثبط من همة علماء الآثار الأمريكيين الأوائل ، فقد منوا بالخيبة منذ البداية حينما اكتُشف أن الإنسان الأول لم ينشأ فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية . وبالطبع لم تعرف هذه الحقيقة كلها دفعة واحدة بل لم يسلم بها البعض إلا ومطلع القرن العشرين ، وحتى العقد الأخير من القرن الماضى لم يكن هناك من يبحث عن بقايا إنسان العصر الجليدى فى نيوجرسى وبنسلفانيا وفرجينيا إلا الدكتور و . ه . هولمز الرئيس الأسبق لقسم الإثنولوجيا الأمريكية فى معهد سميثسونيان . وكان العلماء الأمريكيون الآخر ، وبخاصة فى نيو إنجلند حيث تركت المدنية الحديثة طابعها واضحاً ، يبحثون عن حفريات للإنسان وعن أدوات قديمة كتلك التى عثر عليها فى أوربا وآسيا .

وحتى قبل أن ينتهى عصر الاستكشاف فى أمريكا الشمالية والجنوبية كان العلماء يبحثون عن الإنسان القرد وأدواته . وتمت بعض الكشوف ، ففى سنة ١٨٣٥ اكتشف أحد الرواد الدينمركيين ويدعى « لونت » هياكل بشرية فى بعض الكهوف بالقرب من بحيرة تسمى بحيرة « لاجوا سانتا » فى جنوب شرق البرازيل ، وكانت هذه الهياكل وعظام كثيرة من أنواع حيوانات العصر الجليدى مدفونة فى طين الكهف بشكل جعل « لونت » يعتقد أن البقايا البشرية هى لقوم مغرقين فى القدم . وفى الوقت الذى تم فيه هذا الاستكشاف منذ أكثر من قرن من الزمان ، لم تكن معظم نماذج الإنسان القرد فى أوربا وإفريقية وآسيا قد عثر عليها ، ومن ثم فلم يحس « لونت » بالخيبة حينما وجد أن هياكل « لاجوا سانتا » لم تكن بدائية فى مظهرها ، إذ لا تختلف جماجم هذه الهياكل اختلافاً جوهرياً عن جماجم هنود البرازيل المحدثين .

ولم يعاود أحد التنقيب فى لاجواسانتا إلا فى سنة ١٩٥٦ حينما أوفدت بعثة من متحف « و . ه . أوفر » بجامعة داكوتا الجنوبية ، فظهر من أبحاثها أن هياكلها التى أثارت كثيراً من الجدل ليست بعد كل هذا بالآثار العريقة ، والمعروف الآن بعد الأبحاث التى قام بها دكتور « وزلى هارت » أن هياكل « لاجواسانتا » هى لهنود من أمريكا الجنوبية لا يمتد بهم العهد إلى أكثر من بضع مئات من السنين ، وقد طمرت هذه الجثث فى كهوف « لاجواسانتا » بسبب ارتفاع مستوى الماء وانخفاضه مع تعاقب الفصول المطيرة والجافة .

وكانت هناك كشوف أخرى فى أمريكا الشمالية والجنوبية ، فقد عثر الطبيب دكتور م . ديكسون فى سنة ١٨٤٦ على عظام حوض بشرية مطمورة على عمق بعيد فى الطين والرواسب بالقرب من مدينة ناتشز بولاية المسيسبى وقد أطلق على هذه البقايا فى أول الأمر اسم « إنسان ناتشز » . غير أنه بعد مضى أكثر من قرن من الزمان ، وفى سنة ١٩٥٤ ينتهى عالم محقق هو دكتور كومبى إلى أن « إنسان ناتشز » ربما كان هندياً أمريكياً حديثاً نسبياً غرق منذ عهد بعيد فى فيضان جارف . ولكنه لا يقطع بذلك . وحتى الآن لا يزال يعثر على عظام متحجرة وعلى أسنان لحيوانات العصر الجليدى مطمورة فى الطين بالقرب من الجهة التى عثر فيها على « إنسان ناتشز » .

وكما لم يكن أى من الهياكل التى زُعمت عراقتها أهلاً لأن يحتل مكانه فى تاريخ الإنسان القديم ، كانت أدلة الأدوات الحجرية كذلك مخيبة للآمال ، وقد ظن فى أول الأمر أن الفئوس اليدوية الحادة التى تأخذ شكل الشاطور والتى عثر عليها العلماء الأمريكيون المتحمسون فى نيو إنجلند هى آلات من مخلفات أمريكى العصر الجليدى ، ولكن ما كان أعظم خيبتهم إذ عرفوا أن هذه الشواطير والفئوس اليدوية الأمريكية ليست سوى أدوات غشيمة لهنود أمريكيين حديثين نسبياً ! وفى بعض الأحوال لم تكن الآلات إلا نفاية أدوات بدأ صناع الهنود الأمريكيين فى تشكيلها ، فلما ظهرت لهم

عيوبها ألقوا بها فى ازدراء . ووقف الأثريون الأمريكيون على الحقيقة المرة ، وهى أنه ليس من الضرورى أن تكون الآلة الغشيمة تمثل حلقة مبكرة فى قصة البشرية .

وثمة لـُقية مثالية عثر عليها فى مزرعة « أبوت » بالقرب من ترنتون فى ولاية نيوجرسى . وكان أول اكتشافها فى سنة ١٨٧٣ ، فى نفس الفترة التى تمت فيها الكشوف الرائعة فى أوربا . وسلم الناس فيما بعد بأن « إنسان ترنتون » إنما هو نموذج لأقدم أمريكى تمكن مقارنته بإنسان ما قبل التاريخ فى جاوه ، بل وبإنسان نياندرتال الشهير الذى عثر عليه فى سنة ١٨٥٦ فى كهف بخانق نياندرتال بالقرب من دسلدورف بألمانيا . وحفلت المجلات العلمية التى تصدرها جمعيات العاديات فى أوائل القرن العشرين بالمناقشات حول إنسان ترنتون ومخلفاته ، ومع مواصلة الحفر ثبت قطعاً فى أيام الحرب العالمية الأولى أن الإنسان القديم الذى عاش فى ترنتون بنيوجرسى ليس سوى هندى أمريكى أحدث بكثير من النماذج المتحجرة فى آسيا وأوربا .

وفى سنة ١٨٩١ عثر الجراح الهولندى دكتور « يوجين ديبوا » فى الرواسب النهرية الحصوية فى جزيرة جاوة على جمجمة شبيهة بجمجمة القرد وعلى عظمة الفخذ مما سماه Pethicanthropus erectus وحضر العلماء الأمريكيون الجلسات العلمية التى عرض فيها دكتور ديبوا كشفه الأسطورى . وكان معنى الاسم الذى أطلقه الدكتور ديبوا على هذا المخلوق البائد الآن « القرد الإنسان المنتصب القامة » .

وتجمعت الأدلة فى بطء ، وبرهنت مع ازدياد العناية بارتياد أمريكا الشمالية والجنوبية ، على أن البشر لم يظهروا أولاً فى هذا الجانب من العالم ولم يكن الأمريكى الأول قرداً إنساناً بدائياً ، وأن جنة عدن لن يعثر عليها فى حوض المسيسبى أو حوض الأمزون ، وأصبح من الجلى خلال العقود الأولى من القرن العشرين أن أمريكا لم تكن الوطن الأول للإنسان .

وبطريقة ما دخل الإنسان أمريكا الشمالية والجنوبية فى منتصف قصة البشرية . ولا نستطيع إلا أن نخمن تاريخ وصوله ، وكان الاعتقاد فى العشرينات من القرن الحالى أن الإنسان لم يستوطن السواحل الأمريكية إلا قبل ميلاد السيد المسيح ببضعة قرون على أحسن تقدير . ومع ذلك ظل علماء الآثار الأمريكيون خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة يستحثون الجهود المتزايدة محاولين أن يرجعوا بتاريخ توطن الإنسان فى العالم الجديد إلى أقدم ما يستطاع ، ولما كان اليقين بأن الإنسان وحضاراته لم تنشأ فى أمريكا قد ازداد ، فقد أصبح من الضرورى أن نجيب على الأسئلة الملحة الأخرى . متى وصل أول إنسان إلى أمريكا ؟ وكيف ؟



الفصل الثاني

كم عمر أمريكا ؟

سار علم الآثار وعلماء الآثار الأمريكيون بخطوات وئيدة خلال عشرينات هذا القرن ، فقد كان أمامهم الكثير مما يتطلب الكشف . وكان عليهم أن يحلوا كثيراً من المسائل العويصة قبل أن يعطونا صورة ولو غامضة لماضى العالم الجديد .

واتخذ نشاطهم شكلين : أولها التنقيب الفعلي ، والآخر النهوض بالطرق العلمية لتحليل ما نقبوه . وبلغ النشاط العلمى فى كلا الميدانين ذروته فى أمريكا فى العشرينات . وليس من قبيل الصدفة أن تكتشف معظم الطرق الفنية لتحديد الزمن فى الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد قام علماء المصريات والمهتمون بدراسة ماضى بلاد ما بين النهرين واليونان بحفائرهم فى نفس الوقت ، وكان كثير من أصحاب الحفائر فعلاً من الأمريكيين الذين أحسوا بأن من الأفضل أن يكتشفوا أهم بقايا الماضى فى العالم القديم ، ولكن حتى بعثات الدكتور «جيمس برستد» فى مصر وما بين النهرين ، أو مدارس علم الآثار الأمريكية فى اليونان وروما ، لا يمكن أن تتساوى فى مداها مع النشاط الذى بذله بضع مئات من علماء الآثار الأمريكيين المنقبين فى خرائب حضارات الأند والمكسيك والمايا فى جنوبى غرب أمريكا الشمالية ، أو أطلال بناة المتاريس فى شرق المسيسبى . لقد قامت الجامعات والمؤسسات التى حصلت على تبرعات ، وكثير من

الأفراد بالحفر والتنقيب . ولا يزال هذا النشاط المتدفق جارياً . وقد أدى إلى كثير من النتائج الضخمة .

وربما كان السؤال الملح الذى يتطلب من علماء الآثار الأمريكيين إجابة هو «كم عمر أمريكا ؟» ، ويعنى هذا السؤال عن العمر بالطبع منذ متى سكن الإنسان أمريكا لأول مرة ؟

ويلوح أن المكان المنطقى للبحث عن إجابة هذا السؤال هو تلك الأماكن التى بلغت فيها المدنيات مستويات حضارية عالية فى الماضى ، إذ يبدو من المحتمل أن مثل هذه المدنيات هى أقدم المدنيات الأمريكية ، وقد عمل علماء الآثار فى العالم القديم من قبل على أساس هذه المقدمة المنطقية لكثير من السنين . وكان من المأمول كذلك أن يكون الأمريكيون الأول قد خلفوا سجلات كتلك التى عثر عليها فى العالم القديم وبخاصة فى مصر . لقد عنى المصريون بالاحتفاظ بسجلات تبين تعاقب ملوكهم . ومن بعد قسم أحد رجال الدين المصريين الفراعنة إلى أسرات ، وسجل بعناية أسماء ملوك كل أسرة ، واستنبط المصريون كذلك تقويماً كان أساسه فى أول الأمر حركة الشِّعرى ، أحد نجوم كوكبة الكلب الأكبر الذى أطلقوا عليه اسم «سوث Soth» ثم كان للمصريين أيضاً سنتهم الشمسية . وعلى هذا الأساس استنبطوا تقويماً كان من الدقة بحيث نقل الرومان عنهم نظامه فيما بعد فأصبح أساس التقويم الذى نتبعه الآن .

وكانت مدنية المايا بين أكثر المدنيات الأمريكية أخذاً بالألباب ، فالتفت علماء الآثار إلى أطلال المايويين أملاً فى العثور على سجلات تمكنهم من أن يكتشفوا متى بدأت بالضبط حضارة المايا ، فوجدوا أن المايويين قد استنبطوا تقويماً معقداً ، ولكن لأسباب سنذكرها فى فصل تال ، كانت الدراسات التى استطاع علماء الآثار القيام بها مخيبة للآمال ، فلم يخرجوا منها بنتائج قاطعة .

ولما كان التقويم المايوى لا يستطيع أن يدل على وجه القطع عن مدى قدم الحضارة الأمريكية فقد تحول علماء الآثار إلى أماكن أخرى ، وإلى وسائل مختلفة . لقد وجدوا فى جنوب غرب أمريكا الشمالية أدلة كثيرة على قيام مدنيات راقية ، هذه المدنيات شأنها شأن مدنيات المكسيك وأمريكا الوسطى إنما كان أساسها الزراعة ، بيد أن أهل الجنوب الغربى الأول ، على عكس أهل أمريكا الوسطى ، لم تكن لديهم رموز منقوشة ، أو ترقين[1] تقويمى . وإذا كان أهل الجنوب الغربى قد تتبعوا سير الزمن بعد السنين ، أو بأنواع من الترقين البسيط فإنما فعلوا ذلك على مواد قابلة للتلف فضاع ترقينهم إلى الأبد .

ولعلماء الآثار طريقة يكادون يجمعون عليها فى قياس الزمن . تلك هى الطريقة الإستراتجرافية (أى بدراسة الطبقات) فإذا كانت طبقة من المواد الحضارية تعلو طبقة أخرى فإن السفلى هى الأقدم والعليا هى الأحدث. فإذا كان هناك تتابع فى مراكبة الطبقات فإن عالم الآثار يستطيع أن يخرج بتتابع شامل للحضارات على هذا النسق . وقد طبق اثنان من علماء الآثار الدنمركيين فى وطنهم علم الإستراتجرافيا قبل أن يستخدمه علماء الآثار الأمريكيون فى الجنوب الغربى بأكثر من قرن ، فعلم الإستراتجرافيا علم بسيط قويم معصوم حتى من مخارق الجهلاء .

وكانت الإستراتجرافيا هى التى استخدمها دكتور كدر A.V. Kidder فى العشرينات حينما بدأ ينقب فى خرائب بيكوس بوبلو Pecos Pueblo بالقرب من بيكوس فى نيومكسيكو . وكان دكتور كدر واحداً من علماء الآثار الأمريكيين الكثيرين الذين جاءوا إلى الجنوب الغربى محاولين اكتشاف التاريخ الحضارى لكثير من خرائب البوبلو[2] وحصونها

(١) رقن الخط نقشه ونقطه وقارب بين سطوره (المعرب)

(٢) البوبلو : القرية من قرى الهنود الحمر فى نيومكسيكو أو أحد المقيمين فيها (المعرب)

ومساكنها وميادينها فى نيومكسيكو وأريزونا . وفى الوقت الذى بدأ فيه دكتور كدر وزملاؤه من علماء الآثار حفائرهم ، كانت خرائب بيكوس بوبلو غامضة كالخرائب المايوية . ولم يكن فى استطاعة أحد أن يقول ما إذا كانت ترجع إلى آلاف السنين أم أن عمرها لا يزيد على بضع مئات من الأعوام .

شرع دكتور كدر يحفر فى بيكوس بوبلو إذ كانت إحدى القرى القليلة من هذا النوع التى استمرت حتى العصر التاريخى . كانت لا تزال مأهولة بالسكان عندما سار الفاتح الأسبانى كورونادو مصعداً فى نهر الريو جراندى سنة ١٥٤٠ وقد أشار إليها كثير من الحكام الأسبان يوم كانت نيومكسيكو لا تزال مقاطعة أسبانية ، ولم تهجر قرية بيكوس نهائياً إلا فى سنة ١٨٣٨ بسبب الغزوات الدامية التى شنها الأباس والكومانش .

بدأ دكتور كدر الحفر فى خرائب بيكوس من مستوى معروف يرجع إلى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، ومن ثم تعمق فى المستويات المتتابعة للحضارة من القديم إلى الأقدم ، وكان فى استطاعة دكتور كدر ومعاونيه أن يحددوا الزمن النسبى وأن يقتربوا كثيراً من التاريخ الحقيقى للجنوب الغربى بحساب السنين . وأفادت الإستراتجرافيا فى تحديد تواريخ قرية بيكوس ، ولكن فائدتها كانت محدودة بسبب عقبتين رئيسيتين : كانت أولاهما وجود فجوات فى القصة الإستراتجرافية ، وكانت الأخرى ، وهى مما لا يمكن التغلب عليه ، أنه لا يوجد مكان فى الجنوب الغربى مما حفر فيه علماء الآثار ، تتجمع فيه كل المستويات الحضارية الواحدة منها فوق الأخرى .

وقد بدأ الذين يعملون فى جهات أخرى من الجنوب الغربى يكتشفون أدلة عن حضارات من الواضح أنها أقدم من أقدم المستويات فى بيكوس. فقد عثر علماء الآثار الذين يعملون فى أريزونا على أدلة عن شعوب زراعية

يبدو أنها لم تكن لها أى صلة بخط الحياة القروية التى عثر عليها فى خرائب بيكوس ، وكان فى استطاعة علماء الآثار أن يربطوا بين الأنواع المختلفة من الفخار والمبانى والأدوات التى صنعها هنود قرية بيكوس ، وبين ما عثروا عليه من الأشياء المناظرة فى خرائب القرى الأخرى . ومع ذلك فإن الإستراتجرافيا لا يمكن أن تبين كم من الزمن استمرت الفترات المختلفة لبيكوس القديمة ، إذ أن عمق الرديم والحوائط المنهارة لمدينة لا يمكن أن يقاس بحساب السنين .

حلت هذه المشكلة بطريقة فى منتهى البراعة اكتشفها أحد الفلكيين الذين يعملون فى الجنوب الغربى وهى طريقة التقويم بحلقات الشجر Tree ring calendar . كان هذا العالم وهو دكتور ا . دجلاس A. E. Douglas يدرس البقع الشمسية فى أريزونا ، واقتضت دراساته أن يفحص نمو حلقات الأشجار كما تظهر فى قطاع مستعرض فى الجذع . وكان يبغى أن يعرف ما إذا كانت دورات نشاط البقع الشمسية قد أثرت فى المناخ وبالتالى فى نمو الأشجار فى الأزمنة القديمة . وبدأ بفحص قطاعات مستعرضة فى الصنوبر الأصفر الضخم كما تقطعه المناشير فى مصانع التخشيب الحديثة . فوجد أن حلقات النمو فى أشجار الصنوبر تعطى صورة أمينة للمناخ القديم وبخاصة فيما يتصل بالفصول المطيرة والجافة . ولما كان بعض هذه الأشجار قد أربى عمره على آلاف السنين ، فإنه يمكن الرجوع بهذا السجل لمئات من السنين .

ولكى يرجع الدكتور دجلاس بهذا السجل إلى أبعد من فسحة العمر للشجرة الواحدة حصل هو ومعاونوه على عينات من عوارض السقوف من قرى هنود هوبى فى شمالى أريزونا . وكانت إحدى مدن الهوبى ، وهى « أوريبى » ، قد ظلت عامرة بالسكان منذ وصول الأسبان فى سنة ١٥٤٠ . وبعد أن أسكت دجلاس الهوبى المحدثين بهدية من المخمل الارجوانى عن

الثقوب التى أحدثها فى عوارض مساكنهم ، استخلص مجموعة من العينات ردت تقويمه الشجرى بعيداً فى الماضى ، وبتعزيز هذه المجموعة بما حصل عليه من أخشاب خرائب أقدم من مدن الهوبى فى نفس المنطقة ، أمكن الإيغال بالتاريخ الشجرى فى العصر العتيق . وفى ٢٢ يونية ١٩٢٩ ، عثر دكتور دجلاس على قطعة ، وحيدة ، من الخشب غطت حلقاتها فجوة كانت قائمة ، وبذلك اكتمل التقويم . وبهذه الطريقة العرضية اكتشف الدكتور دجلاس تقويماً يمكن استخدامه فى تاريخ الخرائب التى تحتوى على أخشاب تاريخاً دقيقاً . ويبشر هذا التقويم بالإجابة عن الأسئلة الخاصة بالتسلسل التاريخى فى أمريكا القديمة .

وباستخدام التقويم الشجرى أرّخَتْ نهائياً المستوياتُ القديمة فى قرية بيكوس ، وباحت معظم الخرائب الأخرى فى الجنوب الغربى بأسرار زمنها إلى خبراء حلقات الشجر ، أو ما نسميهم بالمؤرخين الشجاريين [1] . وبتداخل شظايا الخشب الأقدم فالأقدم والتى حصل عليها من مواضع متعددة ، وضعت خريطة زمنية متقنة للتاريخ الشجرى أخذت توغل فى العهد القديم . وكونت أجزاء من الخشب الحساس بحلقاتها النامة ، واسعة وضيقة ، خريطة دقيقة تمتد إلى العام الحادى عشر بعد الميلاد . ووعى الدكتور دجلاس نفسه ، الذى اكتشف التاريخ الشجرى عن غير قصد ، هذه الخريطة فى ذهنه ، فأصبح فى مقدوره إذا أعطى قطعةَ خشب من أى خرابة قديمة أن يحركها على الخريطة حتى تأخذ مكانها الصحيح منها . وأطلق دكتور دجلاس على الحلقة الخارجية لعينة غير معروفة ، تاريخ القطع ، وهذا التاريخ هو السنة التى قطعت فيها فأس حجرية من العصور القديمة شجيرة أصبحت جزءاً فى بناء قديم .

(1) Dendochronologists

وبواسطة التأريخ الشجرى أصبحت تواريخ الشعوب المختلفة التى سكنت الجنوب الغربى دقيقة كما لو كانت القبائل المتعاقبة قد تركت سرداً تقويمياً دقيقاً لتاريخها .

ولكن التأريخ الشجرى لم يحل كل مشكلات علماء الآثار الأمريكيين ، فلا تزال بداية القصة الأمريكية مجهولة إذ لم يحفظ خشب العصور السحيقة بكميات ذات دلالة . وكذلك حينما استخدم التأريخ الشجرى فى جهات أخرى من أمريكا لم تختلف النتيجة ، أو لم تظهر نتيجة على الإطلاق . ففى القطاع الشرقى من الولايات المتحدة على سبيل المثال لم يسفر عدّ الحلقات الشجرية عن نتائج مرضية . وفى وادى المسيسبى الأغزر مياهاً نسبياً أظهرت الأشجار ، القديمة منها والحديثة ، تغيرات قليلة فى أنماط حلقاتها ، قليلة فعلاً لدرجة أن العلماء لم يستطيعوا أن يتبينوا بالضبط أنماط السنوات المطيرة من السنوات الجافة . وحتى فى الجنوب الغربى حيث استنبط التقويم الشجرى ، اكتشف أن الأنواع المختلفة من الخشب قد لا يكون عملها متساوياً . فأشجار الصنوبر ، والشربين ، والبينون (وهو نوع من الصنوبر) تعطى فى العادة تاريخاً إذا كانت الحلقة الخارجية أو حلقة اللحاء فى قطعة الخشب محفوظة . ولكن البنائين القدماء قد استعملوا الأنواع الأخرى من الشجر كذلك . هذه الأنواع الأخرى كان من الصعب بل من المستحيل استخراجها لأغراض التوقيت الشجرى . ولما كان المطر فى العصور القديمة يختلف كذلك من مكان إلى مكان فى جهات الجنوب الغربى ، فقد أصبح من الضرورى أن نرسم خرائط مختلفة للمناطق المختلفة ، فخريطة دكتور دجلاس التى صلحت لبعض أجزاء أريزونا لا تصلح للاستعمال فى وادى نهر ريوجراندى .

وكان الرجل الذى اكتشف أهم المفاتيح إلى قصة الأمريكى الأول أبعد عن ميدان علم الآثار حتى من الدكتور دجلاس نفسه ؛ وكان هذا الرجل

واسمه « جورج ماك جنكن » زنجياً من رعاة البقر الذين يركبون الخيل نصف الداجنة ويعمل فى مزرعة شوميكر القديمة فى شمال شرق نيومكسيكو ، وكثيراً ما أظهر الراعى الطيب ماك جنكن اهتماماً بالرؤوس الصوانية لهنود الأباش التى وجدها فى المزرعة . ومع أن جورج ماك جنكن لم يكن عالم آثار إلا أنه كان محباً للاستطلاع ، وكان حب استطلاعه هذا هو الذى أدى إلى الكشف عرضاً عن بدء عهد أمريكا بالإنسان .

وفى ربيع عام ١٩٢٦ بينما كان جورج ماك جنكن يقتفى أثر بعض الأبقار الضالة على ضفة واد جاف arroyo[١] يعرف محلياً باسم أخدود الحصان الميت Dead Horse Gulch لاحظ بعض عظام مبيضّة تبرز من طين الجانب الآخر للوادى . وكانت العظام فى حجم عظام البقر تقريباً ولكنها كانت مدفونة على عمق عشرين قدماً من السطح ، وأثار المنظر فيه الرغبة فى الاستطلاع فامتطى صهوة جواده وانحدر إلى بطن الأخدود وأخرج سكينه وراح يعمل نصلها فى العظام المبيضّة فعثر على مدببات صوانية حكم بأنها رءوس سهام صنعها بعض الصيادين من الهنود القدماء ، وكانت المدببة الصوانية فريدة فى نوعها إذ كان يمتد على كلا جانبيها حز ، ولم تكن مثلومة كرؤوس سهام الهنود العادية ، وتساءل لماذا توجد عظام الحيوان والمدببة الصوانية التى قتلت الحيوان مدفونة على هذا العمق الكبير؟

ولاح هذا غريباً كذلك للناس الذين قص عليهم راعى البقر قصة العظام المدفونة . ولفت أحد المواطنين من أبناء الجهة يعمل مصرفياً فى راتون بنيومكسيو نظر الدكتور ج . د فجنز من كولورادو إلى هذا الاكتشاف .

وكان الدكتور فجنز باليونتولوجيا[٢] فلم يهتم كثيراً بأمر اكتشاف

---

(١) كلمة أسبانية تعنى بطن واد فى منطقة صحراوية لا يجرى بالماء إلا بعد هطول الأمطار . (المعرب)

(٢) الباليونتولوجى هو المشتغل بعلم الباليونتولوجيا Palaeontology وهو علم تاريخ الحيوان وتطوره خلال العصور الجيولوجية (المعرب)

المدببات الصوانية البشرية الصنع مع العظام ، بل كان أكثر اهتمامه بالعظام نفسها ، وذهب دكتور فجنز إلى أن هذه العظام قد تكون جزءاً من هيكل نوع قديم من الحيوان لم يعد له وجود الآن ، وكان مصيباً فيما ذهب إليه .

وحينما حفر دكتور فجنز فى أخدود ديد هورس وجد أن العظام المدفونة هنا هى عظام نوع من البيسون[1] يشبه آخر الأنواع التى عاشت فى العصر الجليدى فى أمريكا الشمالية ، وأطلق عليه اسم بيسون تيلورى تكريماً للدكتور ا . تيلور الذى كان رئيساً لمتحف كولورادو آنذاك . ثم استنتج أنه لم يعش أى بيسون تيلورى فيما يعرف الآن بنيومكسيو منذ عشرة آلاف سنة . وكانت المدبباب الصوانية التى عثر عليها فى عظام بيسون العصر الجليدى هذا دليلاً لا يمكن دحضه على أن الإنسان كان هنا كذلك فى العصر الجليدى .

وتوافد علماء الآثار الأمريكيون من كل أنحاء القارة ليطلعوا على اكتشاف جورج ماك چنكن . وأجرى مزيد من الحفائر فعثر على هيا كل أخرى لبيسون تيلورى وكانت بين ضلوع بعض منها نفس المدببات الصوانية العجيبة التى اكتشفها جورج ماك چنكن ونظراً لقرب أخدود ديدهورس من مدينة فلصم الصغيرة بولاية نيومكسيكو فقد أطلق على الناس الذين قتلوا هذه الأعداد من البيسون اسم «أهل فلصم Folsom men » وعلى المدببات ذات الشكل المميز التى تركوها من ورائهم « مدببات فلصم» ولم تكن بين مكتشفات فلصم الأصلية أية بقايا بشرية ولا تدل بقايا البيسون فى فلصم فيما يظهر على محل إقامة منتظمة لأولئك الأمريكيين الأول. بل إنها أكثر دلالة على مطاردة فردية ، فمن المحتمل أن كان قطيع من

(١) البيسون bison حيوان ثديى شبيه بالجاموس كان يعيش فى أمريكا ثم أخذ ينقرض إلا أعداداً قليلة منه تحافظ عليها الدولة وتحرم صيدها (المعرب)

البيسون يبلغ عدده نحو الثلاثين رأساً قد جاء يستقى من بركة أو بحيرة صغيرة لم يعد لها أى أثر الآن . فباغته أهل فلصم وقتلوا الحيوانات وهى ترد الماء ثم قطعوا جزءاً من الجثة وسحبوا اللحم معهم .

كانت أهمية الاكتشاف جلية . فى هذا الكشف الواحد عاد تاريخ الأمريكيين الأول إلى الوراء عشرة آلاف سنة أو تزيد . ولم يستخدم دكتور فجنز وسائل التأريخ الشجرية بله الاستراتجرافيا ، وبنى استنتاجاته على ارتباط الأدلة البشرية بعظام الحيوان فى فترة جيولوجية معروفة ، وكان هذا السبيل فى تحديد الزمن قد استعمل فى أوربا على أوسع نطاق . ففئوس الصوان اليدوية التى عثر عليها بوشيه دى برتيس فى أوربا الشمالية قد وقتت بواسطة عظام حيوانات منقرضة وجدت مع الآلات .

وصححت مكتشفات فلصم مجموعة كاملة من الاستكشافات المتصلة بالعصور الجليدية فى العالم القديم . فلم تكن مدببات فلصم رءوس سهام كما ظن جورج ماك چنكن لأول مرة ، بل كانت المدببات التى تميزت بوجود حزوز غير عميقة على سطوحها تستخدم للرمى بالمزاريق أو الحراب الخفيفة ، وكانت أسلحة فتاكة ، وبدأت مدببات فلصم المحززة تظهر فى مناطق واسعة فكشف عنها فى الأماكن التى حفرت فيها الأودية فى مستويات تربة العصر الجليدى ، أو فى المواضع التى عرّت فيها رياح ثلاثينات هذا القرن المصحوبة بالجفاف سطح التربة ، وبانت أماكن منازل أهل فلصم فى نيومكسيكو الشرقية وفى كلوارادو الشرقية وفى اللسان البارز من تكساس .

وهكذا جمع علماء الآثار فى دقة وتعمق كل أدلة أمريكيى العصر الجليدى ، وسرعان ما أصبح فى استطاعتهم أن يعترفوا بالتنوع بين أهل فلصم . وتميز هذه المجموعات المختلفة عادة بأنواع مختلفة من مدببات المزاريق ، ففى بلينفيو بولاية تكساس ، نسب الإنسان الذى عاش فيها إلى نوع مدببات

المزاريق التى صنعها ، واشتق اسم إنسان كلوفيس من مكان معسكر كبير فى كلوفيس بولاية نيومكسيكو ، وحصل إنسان يوما على اسمه من كونتية يوما بكلورادو ، حيث عثر لأول مرة على نوع مختلف من المدببات ، وكان بعض هؤلاء الصيادين الأمريكان الأول يصطادون بيسون تيلورى فى العادة ، وتخصص إنسان كلوفيس فى صيد الماموث وهو أيضاً من حيوانات العصر الجليدى فى أمريكا ، وكان أهل يوما يصطادون نوعاً أحدث من البيسون يشبه كثيرا جاموس العصر الحاضر . ومن ثم شرع علماء الآثار بالفحص الدقيق لرواسب العصر الجليدى وبواسطة عظام الحيوانات التى عثروا عليها فيها ، شرعوا يخططون مسودة لأقدم تاريخ للعالم القديم .

وكان من الخطوط البارزة التى أضيفت إلى الصورة الرائعة للبداية التى ترجع إلى العصر الجليدى ، ما حدث عندما كشف طالب يدعى كن ديفس كهفاً بالقرب من ألبوكيرك بولاية نيومكسيو ، وقد أطلق عليه اسم كهف سانديا Sandia Cave وقام بأعمال الحفر فيها فى سنة ١٩٣٨ علماء آثار من جامعة نيومكسيكو بعد أن عثروا فى داخل الكهف على عظام حيوانات منقرضة من العصر الجليدى ، وآلات من صنع الإنسان ، وحفروا فى الكهف — وترابه يكاد يخنقهم — فعثروا على أرضيتين قديمتين للكهف وقد تبعثرت عليهما مخلفات بشرية ، وكان الدليل على كلا الأرضيتين حفر النار وعظام متشققة مبعثرة للبيسون والفيلة والخيل والجمال . وفى أرضية الكهف العليا وجدت بعض مدببات هى من مدببات صيادى فلصم المحززة . وعثر علماء الآثار فى أرضية الكهف السفلى على مدببات مزاريق من نوع آخر أكثر تهذيباً . وقد صنع له بروز من أحد طرفيه ليسهل الإمساك به . وأطلق على هذا النوع اسم مدببات سانديا .

واستطاع البرفسور كيرك براين Kirk Bryan الأستاذ بجامعة هارفارد والذى قام بالأعمال الجيولوجية باستخدامه للطرق الإستراتجرافية وبحسابه

دلالات الفترات الرطبة والجافة فى كهف سانديا أن يستنتج أن الصيادين أهل سانديا قد عاشوا منذ حوالى ٢٥ ألف سنة ، وأنهم كانوا يطهون لحوم حيوانات لم يعد لها وجود الآن .

أمضّ علماء الآثار المهتمين بمشكلة إنسان العصر الجليدى فى أمريكا عدم عثورهم على هياكل بشرية فى مخلفات المعسكر أو فى الكهوف حيث عاش هؤلاء الصيادون القدماء . كانت عظام الحيوانات هناك بكثرة ، وكان فى مقدور الباليونتولوجيين الذين يساعدون علماء الآثار أن يميزوا أنواعاً مختلفة من البيسون والفيلة والخيل . وقد وجدت هذه الحيوانات مع الأنواع المختلفة لمدببات الحراب وغيرها من الأدوات الصوانية التى ميزت القبائل المختلفة أو جماعات الصيادين الأمريكان القدماء وبدأت الفجوات التاريخية تسد مع زيادة أعمال التنقيب واكتشاف مزيد من الآثار

وبدأت الثغرة بين أمريكي العصر الجليدى القدامى والشعوب الزراعية المتأخرة تمتلىء بالاستكشافات التى تكون سلسلة متصلة إلى حد كبير ، وكانت هناك كذلك مكتشفات لا تتسق والإطار العام للصورة . فقد عثر الدكتور جورج كارتر George Carter من أساتذة جامعة جون هوبكنز على بعض الآلات الغشيمة فى ركامات العصر الجليدى بالقرب من سان دييجو فى كاليفورنيا سنة ١٩٥١ . وكانت هذه الأدوات البسيطة التصنيع مطمورة فى مستويات دلت على أنها ترجع إلى عصر سابق لعصر صيادى سانديا ، ودلت غشومة الآلات على أنه ليس من المستحيل أن كان هناك عصر حجرى قديم حقيقى فى التاريخ المبكر لكاليفورنيا . بيد أن بعض علماء الآثار الأمريكيين ذهب إلى أن مكتشفات دكتور كارتر لم تكن آلات بالمرة وليست سوى مجرد أحجار شظاها فعل الصقيع والحركة الطبيعية للأرض .

ولكن مهما يكن من أمر بداية الإنسانية فى أمريكا فمما لا جدال فيه

أنه قد عاش نوع من الإنسان على هذه السواحل فى الجزء الأخير من العصر الجليدى ، وكان توقيت تلك العصور عن طريق العظام المتعلقة ببعض الحيوانات المنقرضة بعيداً عن الحقيقة لسبب واحد ، هو أن وقت انقراض الفيلة وغيرها من حيوانات العصور الجليدية غير معروف إلا بصورة عامة وكان علماء الآثار فى موقف ذلك الراعى من نيومكسيكو الذى عثر فى مزرعته على هيكل الماموث ومدببات الحراب مغروزة فى عظامه ، فقال : « نستطيع القول بأن الأشخاص الذين قذفوا هذه الحراب قد عاشوا هنا فى عهد سحيق » .

وبدأ الجيولوجيون الذين دعاهم علماء الآثار لمعاونتهم فى حل مشاكل التوقيت يحسنون من وسائلهم الفنية ، ولا يحاول الجيولوجى فى العادة أن يحدد الأوقات فى الماضى ، إنما يوجه كل اهتمامه إلى قصة الأرض نفسها ، ويقول الجيولوجيون الان إن الأرض قد استقرت على شكلها الحالى تقريباً منذ نحو ١ر٨٣٢ مليون سنة ، فليس غريباً إذن أن يجد الجيولوجيون صعوبة فى تكييف أبحاثهم لآلاف السنوات والقرون المتناهية فى الصغر بمقاييسهم ولكنهم مع ذلك بذلوا المحاولات .

وشرعوا يبذلون الجهد المضنى لكى يضعوا جدولاً توقيتياً للعصر الجليدى الذى سبق العصر الحديث مباشرة ؛ ويطلق الجيولوجيون على العصر الجليدى اسم « البليستوسين » وقد استمر لمدة مليون سنة تقريباً ، وفى تلك الفترة تكونت كتل ضخمة من الجليد على قارات نصف الكرة الشمالى ، وفى نفس الوقت كانت أجزاء من نصف الكرة الجنوبى تحت تأثير عصور مطيرة . وقد تكون الجليد أربع مرات وذاب أربع مرات خلال البليستوسين فى أمريكا الشمالية وأوربا وشمال آسيا ، وكانت هذه العصور الجليدية الأربعة رد فعل لتغيرات ضخمة فى المناخ والمطر فى نصف الكرة الشمالى . وقد أثرت التغيرات المناخية وما صحبها من تجمع الجليد وتلاشيه

تأثيراً عميقاً فى كل مظاهر الحياة على طول حافات المراكز الجليدية .

عاشت أنواع مختلفة من الحيوانات خلال الفترات بين العصور الجليدية ، ولما كانت هذه الحيوانات تحب الدفء فإنها تختلف إلى حد بعيد عن الأنواع القطبية المختلفة وعن الأصناف المحبة للبرودة التى كانت موجودة وقت أن كست الغطاءات الجليدية مساحات واسعة من أوربا وآسيا وأمريكا الشمالية . وبهذه الطريقة يمكن تأريخ البقايا الإنسانية التى يعثر عليها مع الأنواع المختلفة من الحيوان . وكان فى استطاعة الجيولوجيين أن يقولوا للأثريين أن موضع معسكر تنتشر فيه عظام الرينوصورص الصوفى إنما نزل به الإنسان خلال فترة التقدم الرابع للجليد فى أوربا ، بينما تدل الأدوات البشرية التى توجد مع عظام فرس النهر على أن الإنسان قد عاش هناك خلال فترة دفء بين عصرين جليديين . بيد أن زمن هذه العصور الجليدية وفترات الدفء قد ظل مبهماً — ويتكلم الجيولوجيون على أحسن الأحوال لعشرات الآلاف من السنين — ولكن تعاقب الفترات صحيح على أى حال . ولكى يتخلصوا من بعض هذا الإبهام استخدموا بضعة وسائل فنية تدعو إلى الإعجاب فى محاولة إصابة المرمى فى تحديد الزمن الأركيولوجى .

وكان من أمتع هذه الوسائل وسيلة تقوم على أساس يشبه الأساس الذى يقوم عليه التقويم الشجرى ، ولكنهم يستخدمون فيه طبقات الطمى المكونة من الحصى والطين ، فالطبقة تتكون عادة فى بحيرة جليدية نتيجة لإرساب المواد التى يحملها نهر ، ففى أثناء صيف جليدى دافىء فى العصور القديمة ، تمتلىء الأنهار نتيجة لذوبان الجليد وترسب الحصى والزلط على قعر بحيرة قديمة . وفى فترة الشتاء التالية تتضاءل الأنهار بسبب تجمدها فتترسب رواسب الطين الدقيق التى حملتها فى قشرة رقيقة تغطى الحصى الخشن من الصيف السابق وإذن فالطبقة هى قرارة من رواسب خشنة وناعمة ، وتمثل كل منها سنة حقيقة .

وتم التعرف على سلسلة من آلاف الطبقات هى سجلات لنفس الآلاف من سنى العصر الجليدى على حواف أنهار الثلج فى أوربا ، وأجريت نفس عملية عد الطبقات فى ولاية نيويورك وغيرها من جهات أمريكا الشمالية حيث وجدت الأنهار الثلجية . ولما كان حساب الطبقات قد تم بالسنوات الفعلية فقد تلقف علماء الآثار فى غبطة التقويم الجليدى ليوقتوا الأحداث البشرية فى دقة .

ولسوء الحظ لم يكن فى التقويم الجليدى كبير معونة ، فقد كانت البقايا البشرية نادرة فى الطبقات المشار إليها أو بالقرب منها — هذا إن وجدت أصلاً — وكان من المستحيل كذلك أن نعرف متى تكونت أولى هذه الطبقات ومتى انتهت سلسلتها .

وكانت من طرق التوقيت الأخرى دراسة أنواع الأشجار والشجيرات التى نمت حول حافات الكتل الجليدية خلال العصور الجليدية . ولكن لما كانت الأخشاب والأوراق سريعة التلف فلم يؤمل العلماء فى أن يعثروا على الدليل الكافى عن الحياة النباتية القديمة ليقوموا بدراسات دقيقة .

ثم قام عالم دينمركى باكتشاف عجيب فى المناقع والأراضى الردغة التى خلفها ذوبان جليد العصر الأخير فى شمال أوربا . اكتشف أن لقاح النباتات القديمة محفوظ لدرجة تلفت النظر فى الكدر الأسود لهذه المناقع الذى نفذ إليه قليل من الأوكسجين ، ويمكن أن يصبغ جزء ينتزع من قاع مثل هذه المناقع بالكيمائيات لتصبح حبوب اللقاح مرئية . ولم تظهر كل حبة من حبوب اللقاح تحت المجهر واضحة فحسب بل وأمكن التعرف على نوعها أيضاً .

ولكن استخدام حبوب اللقاح فى تصنيف جدول زمن أثبت أنه مستحيل كذلك . إذ أن الطريقة لا تنطبق إلا على أوربا وحدها فى العصر

الجليدى الأخـــير أو الرابع وبخاصة خلال مراحل الذوبان . وكانت دراسات اللقاح فى جهات نيوإنجلند وكولورادو وفى الأماكن الأخرى من العالم الجديد قليلة النفع ، وساعد الجدول الزمنى للقاح (أو خريطة ، حمى القش ، كما يحلو لبعض الأركيولوجيين أن يتحدثوا عنها متفكهين) فى توقيت الأحداث البشرية فى نهاية عصر البليستوسين ، وقبل هذا كان السجل مشوشاً وغير كاف .

وجربت بعض الوسائل الجيولوجية الأخرى لمساعدة علماء الاثار على بلوغ هدفهم فى تحقيق أقدم تاريخ لأمريكا . وكان للدراسة الجيولوجية للشرفات النهرية بعض الفائدة ، فالشرفات التى تكونت على ضفاف الأنهار إنما هى نتيجة لارتفاع مياه الأنهار ذاتها وانخفاض منسوبها خلال العصور الجيولوجية المختلفة ، فحينما تفيض الأنهار من ذوبان الثلوج فإن حجم مياهها المتزايد يميل إلى أن يسرع وأن يقطع الضفاف . وفى خلال الفترات الباردة يميل حجم المياه المتناقص إلى إرساب الرمال والحصى الذى يحمله . وفى استطاعة الجيولوجيين أحياناً أن يؤقتوا الشرفات النهرية المختلفة وأماكن التوطن البشرى التى توجد عليها ، ولكن هذه المواقيت لسوء الحظ إنما هى مواقيت نسبية ، وهى على أحسن الحالات فى تقريب مبهم إلى العصر الجليدى .

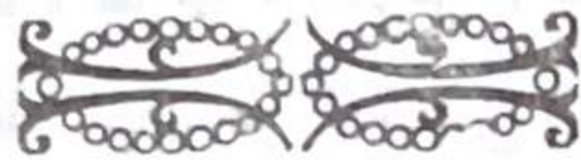
وقد قام البرفسور كيرك براين وهو نفس الجيولوجى من جامعة هارفارد الذى عمل فى كهف سانديا ، بدراسة جيولوجية تقليدية فى محل إقامة لإنسان فلصم فى كولورادو الشرقية فى سنة ١٩٤٠ ، وقد أطلق على هذا الموضع اسم لندنمير نسبة إلى المزرعة التى يقع فيها . وكان فى استطاعة البرفسور براين ومساعديه أن يميزوا سلسلة من الأحداث الجليدية أقاموا البراهين عليها من تجمعات الحصى وطبقات الطمى والحفر والارساب فى الأودية الجافة .

أطلق على آخر العصور الجليدية الكبرى فى أمريكا الشمالية اسم عصر وسكونسن . فى تلك الولاية عثر على أدلة للتعرف على ذلك العصر . وفى عصر جليد وسكونسن كان معظم جبال الروكى مغطى بقلانس جليدية . ومن المحتمل أن لندنمير قد اختارها إنسان فلصم محلاً لإقامته لأنها تقوم بأطراف الجروف المكسوة بالجليد وكان المكان بارزاً معرضاً للتيارات الهوائية ولكنه كان قريباً من موارد الماء ومن مراعى بيسون العصر الجليدى الذى كان يعيش فى الأراضى المعشبة التى تقع غير بعيد من المكان .

ووجد البروفيسور براين وجماعته من الجيولوجيين أن الجزء الأخير من عصر جليد وسكونسن الذى عاش خلاله الصيادون فيما يسمى الآن بولاية وسكونسن لم يكن عصراً بسيطاً على الإطلاق ، بل كان هناك عدد من الذبذبات فى ذوبان جليد وسكونسن . ويبدو بأن القوى التى أدت أصلاً إلى أن يتكون الجليد قد ناقضت نفسها أكثر من مرة ، وانعكست هذه الذبذبات الصغيرة لجليد وسكونسن فى صورة فترات متناظرة رطبة وجافة ، حارة وباردة ، وأصبح فى مقدور الجيولوجيين أن يضعوا الأحداث البشرية كما يستدل عليها من الأدوات الحجرية ومن عظام الحيوانات فى مكانها الملائم من الجدول الزمنى الجيولوجى الذى اكتشفوه. وقد ساعد هذا كثيراً فى تأريخ ظهور الأمريكيين الأول . ويمكن أن يجد كل مكان للإقامة ، وكل مكان قتل فيه الصيادون الأمريكيون الأول حيواناً ، مكانه فى الجدول . بل وقد وقت الجيولوجيون فى حذر بعض هذه الأحداث ولكن وحدة قياسهم هى فى العادة الألف من السنين .

وحتى مع التحسين الذى عرفته الوسائل الفنية الجيولوجية ظل من الجلى أن السؤال عن « العمر » لا يزال بلا جواب . فالتغيرات الجيولوجية على سطح الأرض من البطء حتى ليندر أن تضع الأحداث البشرية فى

مكانها الدقيق من التسلسل الزمنى العام . فالتلال فى نظر الجيولوجى ليست شيئاً ذا خطر ، إذ يمكن أن تزيلها المثالج القارية فى فترة لا تتجاوز بضع عشرات من آلاف السنين . وقد عرف الجيولوجيون الآن — من دراسة الحيوانات المنقرضة والتغييرات الجليدية ، وباستخدام الجداول المناخية — أن الإنسان قد عاش فى العالم الجديد منذ ٢٥ ألف سنة أو ما يقرب من ذلك . وبقى على العلماء الآخرين أن يطوروا الوسائل التطبيقية لتوقيت ظهور الأمريكيين الأول توقيتاً دقيقاً .



الفصل الثالث

عصر النشاط الإشعاعي

واصل علماء الآثار الاستعانة بالعلوم الأخرى لتأريخ الأدلة البشرية الأولى . وكانت الكيمياء إحدى هذه العلوم ، فكثير من الأدوات الصوانية تغطى سطوحها طبقة من التبتن patina . فالصوان والصخور الشبيهة به تتبتن خلال فترة طويلة من الزمن وبصفة خاصة إذا كانت مطمورة فى الأرض . هذا التبتن هو تغير فعلى فى سطح الصخر نشأ عن أحماض التربة المحيطة به فى الجهات التى طمر فيها . وكان الصوان وما شابهه من الصخور هو المادة المفضلة لدى الإنسان القديم فى تشكيل آلاته . ومن ثم فهى فيما يبدو نافعة فى تحديد التواريخ ، فإذا استطاع الكيمائيون أن يضعوا جدولا زمنياً للتبتن فقد يكون فى ستطاعة علماء الآثار أن يحددوا العمر المضبوط للآلات المتبتنة التى عثروا عليها .

وفى عشرينات هذا القرن عمل عدد من الكيمائيين فى هذه المشكلة لزمن طويل . ولكن الفكرة لم تنجح كجدول زمنى أركيولوجى ، لأن معدل تبتن الصوان لم يكن ثابتاً . فقد تتبتن إحدى مدببات ساندياً لدرجة كبيرة بينما لا تتبتن على الإطلاق مدببة أخرى مطمورة فى نفس المستوى وعلى بعد عدة أقدام . وبرم الأركيولوجيون والكيمائيون بالخطة فتخلوا عنها .

ولكن هذا لم يثبط همة بعض علماء الآثار اللامعين فابتكروا طريقة أخرى لتأريخ المستكشفات . فقد اكتشفوا جسيمات معدن يسمى المجنتيت فى كثير من المخلفات الأثرية . وتأخذ جسيمات المجنتيت فى العادة صورة بلورات إبرية الشكل دقيقة الحجم جداً . وتعمل هذه البللورات عمل مغناطيس صغير له قطبان شمالى وجنوبى . وفى المياه الجارية أو فى الطين الرقيق توجه جسيمات المجنتيت نفسها مع خطوط القوة المغناطيسية عبر سطح الأرض .

ونحن نعرف أن القطبين المغناطيسيين للأرض لا يظلان ثابتين ، فالشمال المغناطيسى ينتقل من سنة إلى أخرى حول القطب الشمالى ، وفى بعض الأحيان ينحرف بضع درجات من القطب الحقيقى . وانحراف الشمال المغناطيسى ظاهرة معروفة تسجل سنوياً على معظم الخرائط . وتُظهر عدية وضعية مثل « فى كل سنة بعد ١٩٦٠ يضاف ٢° » القدر والاتجاه اللذين يتحركهما القطب المغناطيسى فى فترة معلومة فى جهة معينة ، وتصفف جسيمات المجنتيت لسنة خاصة نفسها وفقاً للشمال المغناطيسى لذلك الوقت . ومن ثم فإذا جف الطين أو الرمل المبلل المطمورة فيه ، أو تحول إلى قالب من الطوب أو ملط أرضية قديمة فإنها تحتفظ بتصفيفها الأصلى .

ويستطيع عالم الآثار الذى يرغب فى تأريخ مكتشفاته بالمغناطيسية الحفرية أن ينتزع عينة من الرمال على أن يعرف اتجاهها بدقة قبل نزعها ، وسوف يتبين من فحص جسيمات المجنتيت فى العينة أين كان القطبان المغناطيسيان للأرض فى الوقت الذى كانت فيه الرمال غير متماسكة ، وسيكون هذا الوقت هو السنة التى كانت فيها العينة المنتزعة على سطح أرض معسكر بشرى ثم اكتسحتها أمطار ذلك الوقت أو ثلوجه ، وحينما طمرتها مخلفات الإنسان فيما بعد رسخت جسيمات المجنتيت وبقى سجل اتجاهها المغناطيسى لاصقاً بالمكان .

ولم تحل المغناطيسية الحفرية كل مشكلات عالم الآثار ، ولم تجب بالضبط على السؤال «عن العمر» . ففى كثير من المواضع لا توجد جسيمات المجنتيت ، بل وحتى فى الجهات التى وجد فيها لا تشير إبر المجنتيت دائماً إلى اتجاه ثابت .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها تطلع علماء الآثار إلى مساعدة علم تحطيم الذرة . وقام الدكتور ويلارد ليبى Willard Libby وهو من الفزيائيين المشتغلين بالمواد المشعة باكتشاف ثبتت فائدته . فقد كان الدكتور ليبى من قبل الحرب مهتما بناحيتين رئيسيتين من علم كيمياء الإشعاع الجديد Radiochemistry وكان يدرس النشاط الإشعاعى الطبيعى للعناصر الكيمائية الخفيفة lighter leements ، وكان يبحث كذلك عن طريقة لقياس المواد المشعة البالغة الضعف . وأعلن اختراع الطريقة المسماة عداد الجدار الحاجز Screen wall counter فى سنة ١٩٣٣ قبل أن تخترع القنبلة الذرية بزمن بعيد .

إن كل المواد المشعة سواء كانت ذات نشاط إشعاعى كبير أو كان نشاطها معتدلاً ، تقذف ما يحيط بها بجسيمات صغيرة أو بأشعة ، هذه الجسيمات أطلق عليها العلماء أسماء الحروف اليونانية ، ألفا ، بيتا ، جاما . وتتطاير أشعة ألفا وبيتا وجاما من قطعة من المواد المشعة كما تتطاير السهام المشتعلة من صواريخ الألعاب النارية . وتقذف المواد ذات النشاط الإشعاعى العنيف كالبتشبلند ، كثيراً من الأشعة بمعدل هو من النشاط بحيث يمكن بسهولة أن نتبين القذف بجهاز كعداد جيجر Geiger . بيد أن بعض العناصر الكيماوية الخفيفة تقذف أشعة مشعة وهى من التبعثر واعتدال النمط بحيث يتعذر استبيانها ، وكان عداد الجدار الحاجز جهازاً سجل وجود مثل هذه الجسيمات المتطايرة وجعل من الممكن حسابها عندما تصطدم بالعداد .

وربما يبدو أن كل هذا فى مجال الفيزياء البحتة أو الكيمياء . ولم يكن علماء الآثار بالتأكيد ليسمعوا بعداد الجدار الحاجز أو بأشعة ألفا وبيتا وجاما لولا اهتمام الدكتور ليبى بأنماط معينة من النشاط الإشعاعى الطبيعى . ودعت الأبحاث التى قام بها الدكتور ليبى خلال سنوات الحرب واستمر يجريها حتى أواخر الأربعينات ، دعته إلى الاعتقاد بأن مواد معينة ذات نشاط إشعاعى خفيف قد تكونت فى طبقات الجو العليا بفعل الأشعة الكونية . وقد تحقق من اثنين من هذه المواد هما التريتيوم ونوع من الكربون أطلق عليه اسم «كربون ١٤» . وركز الدكتور ليبى اهتمامه بصفة خاصة على كربون ١٤ الذى هو صورة من الكربون ضئيلة النشاط الإشعاعى للغاية . ويتكون كربون ١٤ بصورة مستمرة فى طبقات الجو العليا بفعل الأشعة الكونية ، وفى الهواء مورد له لا ينتهى على الإطلاق . واكتشف الباحثون الذين يعملون مع الدكتور ليبى أنه موجود فى كل الكائنات الحياة ، فكل نوع من النبات أو الحيوان يمتص كربون ١٤ من الوسط الذى يحيط به .

وتوجد كمية طفيفة من النشاط الإشعاعى فى كل مكان تقريباً . وكثيراً ما يلتقط عداد من عدادات جيجر يحمله منقب عن خامات اليورانيوم هذا النشاط الإشعاعى الطفيف من الأشجار بل ومن الهواء نفسه . هذا النشاط الإشعاعى العام الذى كثيراً ما يطلق عليه اسم النشاط «الخلفى» ، يجب أن يدخل فى الحساب فى أى بحث عن نشاط أشعة ألفا أو بيتا أو جاما .

وضع تقويم ذرى أساسه أن كربون ١٤ الموجود فى كل الكائنات الحية يتحلل بمعدل ثابت . وتميل كل المواد المشعة إلى التحلل إذ تقذف بجسيمات منها فى أشعة ألفا وبيتا وجاما . وتشبه ظاهرة التحلل هذه قدراً تغلى بالماء حتى يجف ، ويمكن مقارنة عملية الغليان بالنشاط الإشعاعى مع فرق وحيد وهو أن معظم المواد المشعة لا تتحل إلا بعد فترة طويلة من

الزمن — تبلغ فى معظم الحالات آلاف السنين . ويقاس تحلل المواد هذا فيما يسمى « نصف الحياة » ، وينقص نصف حياة رطل من كربون ١٤ بالنشاط الإشعاعى إلى نصف رطل فى٥٥٦٨ سنة . وينقص نصف الرطل هذا بعملية انطلاق الأشعة المستمرة إلى ربع رطل فى ٥٥٦٨ سنة أخرى ، ومع استمرار العملية ، ينخفض وزن المادة إلى النصف فى كل فترة نصف حياة ، وتظل المادة هى كربون ١٤ ولا تنفك تتحلل بمعدل ثابت .

وندرك لأول وهلة كيف كان من الأهمية بمكان للعلماء الذين يشتغلون فى هذه المشكلة المثيرة أن يبتكروا نوعاً من أجهزة القياس يحسب بالضبط كمية كربون ١٤ فى أى عينة . ويمكن أن يتم الحساب فى المعمل بخطأ صغير نسبياً ، ويمكن أن نعين المدى الصحيح لتركيز كربون ١٤ فى قطعة من الخشب أو فى سن حيوان أو فى بقايا عظمة محترقة . ولدى العلماء حقيقتان حديثتا الاستكشاف يمكن الاعتماد عليهما فى العمل . أولاهما أن كربون ١٤ يتكون بمعدل ثابت فى طبقات الجو ، وأن كل الكائنات الحية من نبات وحيوان تمتصه من الهواء ؛ والأخرى أن كربون ١٤ يتحلل بمعدل محدد بنصف حياة هو ٥٩٦٨ سنة . وتستمر هذه العملية ما استمرت فى النبات أو الحيوان حياة ، وفى اللحظة التى تقطع فيها الشجرة أو يقتل فيها الحيوان يتوقف الجسم الهامد عن امتصاص كربون ١٤ ، ولكن كربون ١٤ المشع الذى دخل فعلاً إلى جذع شجرة أو جسم فيل يواصل تحلله بنفس المعدل المحدد رياضياً .

ووجد الدكتور لبى ومعاونوه أن فى استطاعتهم أن يقيسوا كمية الكربون فى جسم أى شىء نبض يوماً بالحياة بغض النظر عن الصقع الذى عاش فيه هذا الجسم ، وكان فى مقدورهم بطرقهم العملية أن يحددوا بالضبط اللحظة التى قضت فيها حربة من الصوان على حياة فيل من فيلة عصر الجليد ، أو أنهت فيها فأس حجرية حياة شجرة من الأشجار .

ولكى يتحقق العلماء من صحة الطريقة قاموا بقياس كمية كربون ١٤ فى خشب الصناديق التى وضعت فيها موميات فراعنة مصر الأقدمين ، وكان هؤلاء الفراعين قد وردت أسماؤهم فى قوائم ملوك مصر القديمة ، وتاريخ وفاتهم معروف بمفهوم التقويم الحديث ، وكانت النتيجة تطابقاً تاماً بين تواريخ كربون ١٤ المستخلصة من العينات المصرية والتواريخ المسجلة لوفاة هؤلاء الفراعين ، ومن ثم أعلن فى سنة ١٩٤٩ أن كربون١٤ يمكن استعماله كتقويم أركيولوجى .

وتهلل علماء الآثار فرحاً ، فهذا هو مقياس للزمن ابتكره ووصل به إلى حد الكمال الكيمائيون والفزيائيون ويقوم حسابه على أساس رياضى ، ليس فيه محل للتخمين ، وشعر علماء الآثار أن علمهم قد بلغ رشده فى عصر الذرة ولم يعد هناك ضرورة للتعامل فى إبهام بآلاف السنين أو بالقرون . لقد أصبح من الممكن أن نؤرخ أحداث آلاف من السنين خلت بنفس الدقة التى للتاريخ المكتوب فى عصرنا الحديث .

وفى فورة الحماس الأولى التى أعقبت إعلان التاريخ بكربون ١٤ أحس علماء الآثار أنهم على حق فى اعتبار تقويم النشاط الإشعاعى وسيلة لحل كل مشاكل التسلسل الزمنى التى تواجههم فى كل مكان . حقاً لقد وجد الدكتور ليبى ومساعدوه أن ٢٥ ألف سنة تقريباً هى الحد العملى لاستخدام تقويمهم الجديد وفيما وراء هذه المدة تصبح كمية كربون ١٤ فى أى مادة من الضآلة حتى ليستعصى قياسها ، ولكن علماء الآثار قالوا حسبنا أن نعرف بالضبط قصة الخمسة وعشرين ألف سنة الأخيرة لنحل كل الألغاز الأركيولوجية فى العالم .

وأعلن فى التوعقب ظهور تقويم كربون ١٤ عدد من التواريخ ذات الأهمية . وكانت هذه تقوم على دراسة الفحم النباتى وأرغفة الذرة والعظام المتفحمة وغيرها من المواد التى كانت بها حياة فى يوم ما . وجمعت العينات

من أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ومن مصر ومنشوريا وجهات أوروبا، ونظراً لصعوبة قياس كية كربون ١٤ فى العينات فإن التواريخ التى ذكرت كانت عرضة لخطأ يبلغ نحو ١٠ آلاف من السنين . وأدرك علماء المعمل أن أجهزة حسابهم لم تكن من الكفاية بحيث تحدد بالضبط عدد الجسيمات المنبعثة من المواد .

بيد أن هذا العيب الخطير فى التقويم الإشعاعى قد قومته إلى حد بعيد التحسينات التى أدخلت على الطرق المعملية ؛ إذ سرعان ما عمد الفنيون فى المعامل إلى وسيلة جديدة هى تحويل العينة المراد تعيين تاريخها إلى غاز فيصبح من الأيسر وهى فى هذه الحالة الغازية حساب انبعاث الجسيمات ، وبذلك أخذت تتضاءل بالتدريج نسبة الخطأ فى التواريخ التى نشرت منذ سنة ١٩٥٠ وأصبح من الممكن الهبوط بنسبة الخطأ إلى ٣٠٠ سنة أو أقل ، وهو رقم يمكن أن تعتبر معه التاريخ مضبوطاً للغاية حينما يكون حديثنا عن أقدم عصور ما قبل التاريخ .

وثمة حدود أخرى لكتابة التاريخ القديم بكربون ١٤ . فقد وجد أن أشياء معينة رغم أنها كانت أجزاء فى أجسام حية ليس فيها من كربون ١٤ ما يكفى للقياس . ومثال ذلك حوائط عظام الحيوان ، فهى لا يرسب فيها قدر من كربون ١٤ يكفى لتنشيط أجهزة المعامل الحساسة ، هذا مع العلم بأن العظام هى الدليل الأركيولوجى الرئيسى الذى نحصل عليه من معسكرات الإقامة القديمة وفى الأماكن التى عاش فيها الإنسان لزمن ما . ولعل من الغريب أن العظام المحترقة هى التى يمكن تحقيقها إذ أن تفحمها يثبت كربون ١٤ المستخلص من الهواء . فلو أن شخصاً فى الزمن القديم ألقى بعظمة رجل لحصان العصر الجليدى فى نار معسكره فإن البقايا المتفحمة المعظمة يمكن تأريخها تاريخاً طيباً بحساب كربون ١٤ الموجود فيها .

وكذلك الفحم النباتى الذى نحصل عليه من نيران الطهو القديمة واحد

من أهم المواد التى تستخدم للتأريخ بكربون ١٤ . ويدل التأريخ المستخلص من قطعة من الفحم النباتى على الوقت الذى انتهت فيه حياة الشجرة التى تنتمى إليها قطعة الخشب ، وربما تكون سنوات طويلة قد مرت قبل أن التقط أحد الصيادين القدماء فرع الشجرة الجاف ليلقى به فى النار . ومن المحتمل كذلك أن تكون العملية العادية لامتصاص كربون ١٤ وتحلله فى بعض العينات قد تدخلت فيها عوامل أدت إلى الخطأ فى حساب التاريخ .

وقد يزيل الماء الذى يتخلل التربة التى طمر فيها الفحم النباتى شيئاً من الكربون المشع ، وقد تندمج الشعيرات الجذرية لنبات حى حديث فى عينة من الفحم النباتى القديم .

ونشأت إحدى المخاطر الكبرى فى إقامة التأريخ على أدلة من الإشعاع من تقدم العلوم النووية نفسها ، ففى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة تجرى الاختبارات على قنابلها الذرية فى فرنشمانزفلات Frenchman's Flat بنيفادا ، امتلأ الهواء بكميات ضخمة من الإشعاعات ، هى التى أصبح سقوطها محل جدل بين العلماء ورجل الشارع . وفى بعض الحالات تدور الجسيمات المشعة حول الأرض عدة مرات قبل أن تستقر على سطحها . والرياح فى نصف الكرة الشمالى غربية فى معظمها ، واتجاه الرياح السائدة فى الولايات المتحدة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وتدفع هذه الرياح الجسيمات المشعة إلى سماء شيكاغو وآن آربر (متشجان) ومدينة نيويورك حيث أنشئت المعامل لقياس كربون ١٤ . ومن ثم فإن العالم الذى يحاول أن يحسب نبضات قطعة قديمة من كربون ١٤ يجد ان الجسيمات المشعة للغبار وغيرها من المواد تفسد تماماً حسابه الدقيق ، وكان على معظم المعامل أن توقف برنامج كربون ١٤ حتى يمر الهواء المشبع بالغبار الذرى ويتبدد ، وكان علماء كربون ١٤ على دراية بمشكلة تساقط الغبار الذرى قبل أن يهتم المسئولون عن الصحة بأخطارها .

ولم يبلغ التقدم الإشعاعى لكربون ١٤ حد الكمال ، فقد كانت هناك صعوبات فى العمل ، وحوائل فى بعض العينات نفسها ، ولكن على أى حال فكربون ١٤ هو حتى الآن خير طريق للاجابة على السؤال العسير ، كم هو العمر ؟ ، ولقد قال الأستاذ كيرك براين مثلاً إن كهف سانديا قد سكنه الصيادون الأمريكيون لأول مرة منذ ٢٥ ألف سنة . وبنى حكمه على أساس تحركات جليد العصر الأخير ، وكان التأريخ بواسطة كربون ١٤ المستخلص من قطعة من ناب ماموث عثر عليه فى مستوى كهف سانديا هو ٢٦ ألف سنة قبل اليوم . وهكذا كان الأستاذ براين مصيباً فى تخمينه الجيولوجى لدرجة تدعو إلى الإعجاب .

وأرخ الفحم النباتى المأخوذ من مواقد إنسان فلصم بالقرب من لوبك بولاية تكساس بأنه يرجع إلى ٩٫٩٨٣ سنة . وكان هذا التاريخ أيضاً قريباً جداً من التاريخ الذى سبق تحديده من قبل لصيادى فلصم ، بيد أن التأريخ بكربون ١٤ لفحم نباتى من كهف كلوفيس الذى كان مسكناً لنوع قديم من إنسان فلصم بالقرب من لويزفيل فى ولاية تكساس يعطى عمراً يربو على ٣٧ ألف سنة ق . أ . ونعنى بـ « ق . أ » قبل الآن وهو الاصطلاح المستخدم فى التاريخ بكربون ١٤ . ويبدو أن تاريخ لويزفيل وتكساس أقدم من اللازم . وعندما نجد أن عدداً من التواريخ بكربون ١٤ لنوع واحد من الأحياء كذلك الكائن الذى عرفناه بإنسان فلصم تقع جميعاً فى حدود معينة ، فإن الجيولوجى ليسره أنه قد عين فى تقويمه الزمان الذى عاش فيه فعلاً هذا النوع من الأمريكيين . وحينما تكون هناك حقيقة معاكسة كتاريخ لويزفيل فإنه يرتاب فى أن يكون خطأ ما قد اعترى العينة .

ولما أخذت تواريخ كربون ١٤ تتجمع ، لا من الولايات المتحدة وحدها بل ومن أمريكا الجنوبية وأوربا وآسيا وإفريقية ، بدأ نظام الحوادث البشرية يؤخذ نمطاً واضحاً يمكن التسليم به . وقد كانت هناك فى الأمريكتين

بصفة خاصة ثغرات واسعة فى قصة البشرية ، لقد عاش صيادو العصر الجليدى كأهل فلصم وسانديا الذين امكن التعرف عليهم بسهولة هنا منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، وتعين تواريخ كربون ١٤ المستنبطة من قطع من اللبد النباتى وأجزاء من الخشب الرطب الموجود فى الركامات الجليدية ذاتها حركات ألسنة الجليد وغيرها من الحوادث الكونية التى عاصرت عصر الجليد . وأصبح فى مقدور علماء الآثار والجيولوجيين أن يعيدوا فى دقة لا تاريخ أعمال الإنسان فحسب بل وأن يضعوا الجدول الزمنى المضبوط لتغيرات المناخ وحركات الجليد التى كان يرتبط بها الإنسان القديم كل الإرتباط . لقد انتهى العصر الجليدى الأخير أو جليد وسكونسن منذ حوالى ثمانية آلاف سنة ، وأخذت حيوانات العصر الجليدى التى ميزت هذه الحقبة تنقرض منذ نحو ذلك التاريخ .

ومن المحتمل أن تبين تواريخ أكثر لكربون ١٤ أن حيوانات العصر الجليدى لم تنقرض كلها فى نفس الوقت . فالبيسون الذى كان يصطاده عادة صيادو فلصم ، هو صنف منقرض الآن . ولكن من الواضح أن نوع البيسون الحديث الذى أسميناه خطأ ، الجاموس ، قد ظهر بعد نهاية جليد وسكونسن مباشرة ، وكان إنسان كلوفيس وهو صياد أقدم عهداً يصطاد الماموث عادة . ومن المحتمل أن يكون الماموث قد انقرض فى العالم الجديد والعالم القديم منذ نحو تسعة أو عشرة آلاف سنة ، أى فى وقت ما قبل انقراض بيسون العصر الجليدى .

أصبحت صورة أقدم أنواع أمريكان العصر الجليدى منقوشة فى تقويم كربون ١٤ بشكل أكثر وضوحاً من بعض أحداث العصور الأحدث ، وقد عرف علماء الآثار من قبل أن المراكز الكبرى للمكسيكين والمايويين والأنديين قد ازدهرت فى فترة ما بعد ميلاد المسيح . وباستخدام الاستراتجرافيا ودراسة مخلفات الموتى رجعوا ببدأ الزراعة إلى بضعة قرون

قبل الميلاد . وهناك يظهر أن المعلومات قد انقطعت تاركة فجوة واسعة بين صيادى العصر الحجرى القدامى والناس الذين أتوا من بعدهم وبدأوا يزرعون الغلات ويصنعون الفخار . ودعت هذه الفجوة فى علمنا بتاريخ أمريكا القديم بعض العلماء إلى القول بأن صيادى عصر الجليد قد بادوا فى نهايته ، عندما انقرضت الحيوانات التى كان يصطادونها . ويبنى هؤلاء نظريتهم على أساس أن قصة البشرية قد عادت سيرتها ثانية مع هجرات عناصر أكثر تمديناً ، وشكل المهاجرون الذين وفدوا فيما بعد ما نسميه بالحضارات « العتيقة » التى نشأت عنها تلك الحضارات الكبيرة كحضارة بناة المتاريس Mound Builders وسكان القرى Publo فى الجنوب الغربى ، والمايويين والانديين من سكان أمريكا الجنوبية .

وكان يجب على العلماء الذين يفرضون هذه السلسلة من الأحداث ، أن يكونوا أكثر إيماناً بقدرة الجنس البشرى على مجابهة التغيرات التى ساقت الأنواع الأدنى إلى الانقراض . وقد أظهرت تواريخ كربون ١٤ من مكان يدعى كهف بات Bat بالقرب من مدينة مجدلينا فى نيومكسيكو أن نوعاً بدائياً من الذرة كان يزرع هناك منذ نحو خمسة آلاف سنة ؛ وأظهرت تواريخ أخرى لكربون ١٤ مستخلصة من حفر للنار مطمورة فى الأعماق فى جهات كنكساس ووبومنج ونبراسكا أن ناساً كانوا يعيشون فى تلك المناطق فى فترة آلاف السنين الممتدة بين عصر صيادى فلصم وعصر الزراعة ، بل ولم تكن المنطقة الواقعة إلى شرق المسيسبى خالية من الإنسان فى تلك الفترة ؛ فقد أظهرت تواريخ كربون ١٤ المستخلصة من شبكة غصنية لصيد الأسماك عثر عليها مطمورة تحت بوسطن بولاية ماساشوستس ، أن الإنسان كان يصطاد الأسماك هناك منذ ٥٧١٧ سنة ، وتدل تواريخ لكربون ١٤ من مغارة فى جنوب سنت لويس فى الينوى الجنوبية على سنة ٩,٨٨٢ (ق ٠ ١٠) .

وبالتدريج أصبح فى مقدور علماء الآثار أن يكتشفوا كيف عاش الإنسان فى أمريكا منذ نهاية العصر الجليدى حتى العصر الحديث ، لقد كان بعض هؤلاء الأمريكيين القدامى من الصيادين ، وكانوا يصطادون الحيوانات التى استطاعت أن تفلت من الانقراض فى نهاية العصر الجليدى ، وقد صنعوا مدببات حراب متميزة وعاشوا كما عاش أسلافهم من قبل .

ولكن كثيراً من الناس الذين عاشوا فى أمريكا خلال الفترة التى تلت عصر الجليد لم يكونوا صيادين ، أو على أحسن الفروض كان يقتصر صيدهم على الصغير من الحيوانات ، ومن المحتمل أن الحيوانات قد قلت فى بعض الجهات عقب عصر الجليد فلم يعد فيها ما يكفى بحاجة نمط من الحياة يعتمد على الصيد اعتماداً تاماً ، ومن ثم تحول بعض الأمريكيين القدامى إلى جمع مختلف أنواع الطعام النباتى بدلاً من الصيد . فالإنسان أكثر الثدييات تكيفاً وهو فى الوقت نفسه حيوان رمام يأكل شىء . وربما كان هذا هو الذى ساعده على أن يعيش مع التغيرات الضخمة التى طرأت ونهاية عصر الجليد، وجلى أن تلك الجماعات من الأمريكيين القدامى قد لجأت إلى هذه الوسيلة فعاشت على الجذور والدرنات وعلى ما تجمع من أنواع التوت البرى . واحتيلت صغار الحيوان والطير ، وسحقت الجنادب والأفاعى مع كل ما بدا لها أنه يصلح للأكل فى عجائن يقتات بها .

وتوجد الأدلة على وجود هؤلاء الناس عادة فى حفر النار أو حولها حيث كانوا يجهزون طعامهم ، وتوجد مبعثرة حول فحم مواقد النار الأحجار المستوية التى كانوا يهرسون عليها طعامهم أو يطحنونه ، والأحجار التى سووا أطرافها ليمسكوا بها حين الدق . وكثيراً ما توجد الشواطير التى كانوا يقطعون بها أعضاء الحيوان أو يشقون بها الأخشاب . ولا توجد فى العادة أدلة أركيولوجية أكثر من هذه الأدلة . فلم يكن لمعظم هذه الجماعات من لقاطى الطعام مدببات تقذف ، أو على الأقل لم تكن لهم حراب ذات

رءوس حجرية ، وكانت حياتهم بسيطة ؛ وتدل تواريخ كربون ١٤ المستخلصة من مواقد النار بوضوح على أن نمطهم فى الحياة استمر لوقت جد طويل .

وثمة طريقة معملية أخرى للتأريخ ، قد تكون نافعة فى تزويدنا بالمعلومات التى تعجز عنها طريقة كربون ١٤ ، تلك هى الطريقة التى يسميها مبتكرها الدكتور جورج كنيدى أحد رجال معهد الجيوفيزياء التابع لجامعة كاليفورنيا فى لوس أنجليس ، طريقة الاستضاءة الحرارية Thermo luminescence ويزعم الدكتور كنيدى أن هذه الطريقة يمكن أن تؤرخ الصخر المحترق الذى لم يمض على احتراقه أكثر من خمسة عشر عاماً والذى احترق منذ مليونى سنة وهو مدى أوسع كثيراً من المدى الذى يخدمه كربون ١٤ .

وتقوم طريقة الدكتور كنيدى على أساس فحص التغير الذى يطرأ على سطح الصخر بسبب الحرارة العالية ، فالتوهج الحرارى الذى ينبعث من أى جسم يسخن لدرجة حرارة تتراوح بين ١٠٠ ° ، ٤٠٠ ° م يتناسب مع عدد السنين التى انقضت منذ سخن الجسم لنفس هذه الدرجة من الحرارة فى الأزمنة القديمة ، ويستطيع الدكتور كنيدى بفحص شظايا الصخور التى سودتها نيران موقد قديم أن يحدد بالضبط السنة التى سخنت فيه النار الصخر وغيرت من سطحه ، وذلك بأن يعيد تسخين الشظايا بوسائل معملية ويلاحظ منحنى الاستضاءة الحرارية والنشاط الاشعاعى لها ثم يوقعه على لوحة بيانية ، وقد راجع تقويمه بالصخور المحترقة على عينات كثيرة من الحمم البركانية (اللابه) المعروف عمرها والتى سخنتها النيران الكونية فى باطن الأرض .

وقد سد تقويم الدكتور كنيدى بعض ثغرات مقياس الزمن التى تركتها طريقة كربون ١٤ ، فحيث تكون عينات الكربون المشع ملوثة

أو مقصرة ، يعطى تقويم الدكتور كنيدى التاريخ المضبوط ، إذ ليس لتلوث الجو بالغبار الذرى الناشىء عن التفجيرات النووية التى يقوم بها الإنسان أى أثر على هذا النوع من التقويم .

وبهذه المبتكرات الرائعة بلغت الأركيولوجيا رشدها كعلم مضبوط ، وأصبح فى مقدور علماء الآثار الذين لا يعتمدون إلا على العظام المبعثرة أن يكتشفوا مجرى متصلاً للتاريخ لا يقل فى تحقيقه عن المجرى الذى يتتبعه المؤرخون معتمدين على الوثائق المكتوبة .

وإذا كان لأحدهما أن يفضل الآخر فإن أركيولوجيا النشاط الإشعاعى أكثر دقة من التاريخ المكتوب الذى كثيراً ما يسطره كاتب متحيز ، أو يسجله مؤرخ قد تعميه صلته الوثيقة بالأحداث عن إدراكها الإدراك السليم ، أما التقريرات المعملية فلا تحيز فيها . وإن التاريخ الأركيولوجى الذى نحصل عليه من حلقات الأشجار وكربون ١٤ والصخور المحترقة ليجمع كل الدقة التى يمكن للوسائل المعملية أن توفرها .



الفصل الرابع

كيف جاء الأمريكان؟

أجابت حسابات علماء الفلك والكيمياء والفيزياء إجابة مستفيضة على سؤال «كم عمر أمريكا؟»، ولكن بقيت هناك أسئلة ملحة لابد من إجابتها لكي نعرف القصة الكاملة للأمريكي الأول. وإذا لم يكن الأمريكان الأول قد نشأوا أصلاً في العالم الجديد فقد هاجروا إلى سواحله من قارات العالم القديم، ووصلت أولى الهجرات إلى أمريكا منذ نحو ثلاثين الف سنة خلال المرحلة النهائية من عصر جليد وسكونسن الأخير. ولكن كيف جاء هؤلاء المهاجرون؟

إن السؤال عن طريقة مجيئهم لأعقد من السؤال عن «زمن وصولهم»؛ إن عظام الحيوانات التي قتلوها، والفحم الذي احترق في مواقدهم التي اسودت سطوحها بنيرانهم، يمكن أن تكشف عن الزمن الذي جرت فيه هذه الأحداث. أما «كيف كان حدوثها» فهو امر قد أغلق عليه الصدر إلى الأبد الأمريكان الأول الذين لم يتركوا سجلاً مكتوباً، وحتى هياكل أجسامهم لم يتسن الكشف عنها بعد.

وبالطبع أجاب عدد من الباحثين القدامى على السؤال باقتناع كاقتناع الأطفال، فقال لفيف من أوائل من درسوا الآثار المايوية ببساطة إن المايويين

سلالة من المصريين القدماء، وانفق اللورد كنجزبره وهو من أقدم من عنوا بدراسة آثار المكسيكيين، أنفق عمره في التدليل على أن المكسيكيين إنما انحدروا من القبائل الإسرائيلية العشر المفقودة، ونشر مجموعة طويلة من النقوش المكسيكية ليبرهن على هذا الزعم. ولكن أحداً من هؤلاء المتحمسين لم يبين كيف استطاع المصريون أن يقلعوا بسفنهم عبر المحيط الأطلسي الواسع حتى بلغوا سواحل أمريكا وأقاموا فيها مدينة عظيمة.

وفضلاً عن هذا فعندما اتضحت معالم القصة المثيرة للنشأة الأمريكية كانت هناك عقبتان لا يمكن اقتحامهما تعترضان مثل هذه النظرية البسيطة عن أصل الأمريكان. أولهما أن الأمريكان الأقدمين وفدوا على العالم الجديد قبل أن تظهر مدنية عصر الأسرات المصرية في وادى النيل بآلاف السنين، وكان الأمريكان الأول مجرد صيادين يحيون حياة سميت «بالحجر القديم الأعلى» في أوربا. أما العقبة الأخرى فتمثلت في أن علماء الآثار كانوا قد بدأوا يتبينون تسلسلاً للحضارات تطور بالتدريج حتى بلغ ذروته في المدنيات الراقية التي قامت في مناطق المكسيك والمايا والأند. ولم تكن مراكز المدنية الكبرى في أمريكا القديمة ازدراعاً انتقل من العالم القديم بل كانت نمطاً أمريكياً محضاً، بيد أنه لا يزال من غير المعروف كيف وصلت أسلاف هذه المدنيات إلى أمريكا.

واخترع عدد من النظريات طبقت في محاولة لتعقب هذه الهجرة الكبرى. وكثيراً ما تستخدم الأدلة اللغوية لتعقب حركات الشعوب، ويستطيع الأنثربولوجيون أن يتتبعوا أثر الهجرات بعد أن يعفى عليها النسيان فلا تعيها ذاكرة القبائل، مهتدين في ذلك بالتشابه في اللغات، ولسوء الحظ لم يستطع علماء اللغة في أمريكا أن يجدوا تشابهاً بين اللغات الأمريكية ولغات أوربا وآسيا باستثناء لغة واحدة هي لغة الاسكيمو، فلا يزال

إسكيمو ألسكا واسكيمو سيبريا يتكلمون بلغة واحدة تقريباً ، ولكن لما كان الإسكيمو حتى فى الوقت الحاضر يغدون ويروحون عبر المناطق القطبية فإن التشابه يمكن أن يكون حديث الأصل للغاية .

وقد قرر بعض الباحثين الأول أنهم يرون تشابهاً أو تطابقاً بين لغات الأمريكيين والصينيين بيد أن هذا التشابه لا يثبت مع الدراسة اللغوية الصحيحة ، ولم يكتشف بعد سبيل للدليل اللغوى الذى يفصح عن أصول الأمريكيين الأوائل .

وكذلك الأدلة الجسمية عامة وغير شاملة ، فمن المقرر أن هنود أمريكا اليوم ، ومفروض أنهم سلالة انحدرت من شعوب العصر الجليدى ، مغوليو الملامح . ولكثير منهم « الطية المغولية » على الجفن canthus الداخلى للعين ، التى هى دمغة الجنس المغولى . ولكثير منهم « البقعة المغولية » وهى لطعة سوداء مزرقة فى أسفل الظهر فوق العجز مباشرة . وتشيع هذه البقعة المغولية العجيبة فى الأطفال وتأخذ فى الاختفاء مع البلوغ ، وهى كذلك من خصائص الشعوب المغولية ، والهنود الحمر كذلك ذوو شعر مسترسل وعيون كستنائية غامقة ، وبشرة حمراء مسمرة بصفة عامة ، وهى صفات فيها طابع المغول . إن الأمريكى الذى يزور قرى الهنود يرى الأطفال على أذرع أمهاتهم فيكون تعليقه « إنهم ليشبهون تماماً أطفال الصينيين » . وليس هذا من قبيل المصادفة ، فهنود أمريكا وإن تباينوا فى مظهرهم إلى حد كبير هم بلا ريب مغوليو الملامح .

ولسوء الحظ تنتشر العناصر المغولية أو القريبة من المغولية على طول الطريق من جزر أقصى جنوب المحيط الهادى حتى المناطق القطبية فى سيبريا ويوجد الخليط المغولى كذلك فى شمال أوربا الذى هاجرت إليه وإلى المنطقة القطبية عناصر مغولية منذ عهد سحيق . وقد حملت هجرات أمثال هذه العناصر كالهون مثلاً الدماء المغولية إلى قلب أوربا .

وإذا أدخلنا فى الاعتبار كل هذه التحركات المغولية وما نشأ عنها من اختلاط فإن من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نحاول الاهتداء إلى أصل هنود أمريكا معتمدين على مظاهرهم البدنية وحدها . غير أن كون الأمريكيين الأوائل مغوليين بعامة ، يميل بنا إلى تركيز الاهتمام على منطقة المحيط الهادى حيث تتركز العناصر المغولية .

ولكن حتى فى المحيط الهادى يوجد كثير من الأدلة على أن العناصر القوقازية قد وجدت فى المنطقة منذ عهد سحيق . وتتمثل الدماء القوقازية القديمة فى بعض البقايا المتخلفة عنها مثل « الإينو » الذين لا يزالون يعيشون فى جزيرة هوكايدو بشمال اليابان . ويختلف الإينو الذين يطلق عليهم عادة اسم « الإينو المشعرين » تمييزاً لهم عن العناصر المغولية المحيطة بهم ، والذين تخلو أجسامهم من الشعر أو يوجد عليها القليل منه ، يختلفون تماماً عن الشعوب الآسيوية الأخرى ، وهم فى بنيانهم أقرب كثيراً إلى السلالات الأوربية ، والظاهر أن الإينو يمثلون هجرة قديمة جداً لعناصر قوقازية لا مغولية جاءت إلى شرق آسيا .

وقد يحتج لفيف معين من الأنثروبولوجيين بأنهم يرون فى هنود أمريكا أدلة على هجرة قديمة لعناصر شبيهة بالإينو ، وربما كانت مثل هذه الهجرة القديمة جزءاً من نفس الحركة التى بدأت من مكان ما فى آسيا ، واتجهت نحو الشرق حاملة الإينو إلى جزر اليابان . وليس من شك فى أن هجرة هذه الشعوب فى شرق آسيا قد حدثت منذ عهد سحيق ، أما أن الإينو القوقازيين قد جاءوا إلى أمريكا فذلك موضوع آخر .

وقد يذهب أصحاب الأنثروبولوجيا الطبيعية إلى أن هنود أمريكا الحاليين إنما انحدروا من سلالة مهاجرين بدائيين شبيهين بالإينو أفزعتهم تحركات مغولية أحدث ، ولكن حتى هذه الافتراضات ليس فيها الإجابة على السؤال : « كيف جاءوا ؟ » .

وحتى برغم ما يبدو من أن الحجج اللغوية والجسمية تشير إلى طريق بالمحيط الهادى ، فإن عدداً من العلماء قد حاول أن يدلل على أن الأمريكيين الأوائل إنما جاءوا بطريق المحيط الأطلسى ، ومرد هذا فى المقام الأول إلى ما حدث فى عصور أحدث من وصول عناصر أوربية قديمة تستخدم سفناً بدائية عبر هذا الطريق . لقد وصل كولمبس فعلاً إلى شواطىء أمريكا عن هذا الطريق سنه ١٤٩٢، وقبله بما لا يقل عن ٦٠٠ سنة شق أهل الشمال النورديون Norsemen (أهل اسكنديناوه) طريقهم عبر المحيط الأطلسى الشمالى من أيسلند إلى جرينلند ومنها إلى لبرادور . وقد سُجل وصولهم إلى جرينلند على أنه حدث فى سنة ٩٨٥ م ، بل وهناك أدلة أخرى على أن الرحالة من الفيكنج وهم أسبق من أهل الشمال قد ولجوا خليج هدسن ، ويحتمل أنهم وصلوا إلى ساحل نيو إنجلند. وقد اتخذ حجر كنزنجتن وهو لوحة عليها كتابات رونية(١) عثر عليها فى سنة ١٨٩٨ بالقرب من كنزنجتن فى مانيستوتا، اتخذ دليلاً على أن الشعوب الإسكنديناوية قد وصلت حتى هذا الحد البعيد فى قارة أمريكا الشمالية منذ القرن الرابع عشر ، وتحكى النقوش الرونية قصة شقاء وإراقة دماء ، وترجمة النقوش بعد أن قوم نصها هى :

[نحن] ٨ من القوط [السويديين] و٢٢ نرويجياً نقوم برحلة استكشافية من فاينلند فى ناحية الغرب . وقد عسكرنا بجانب [بحيرة بها] جزيرتان صخريتان على مسيرة يوم إلى الشمال من هذا الحجر ، وقد [خرجنا] واصطدنا يوما واحداً ، وعندما عدنا إلى مسكننا وجد [نا] ١٠ [من] رجال [نا] غارقين فى الدماء وقد حزت رؤوسهم . بالله(٢) لقد خلصة [نا] العذراء من البلاء . [نحن] ١٠ من [جماعتنا] بجانب البحر لنعنى بمراكبنا [أو مركبنا] على مسيرة ١٤ يوماً من الجزيرة [فى ال] سنة ١٣٦٢ [للميلاد].

(١) أى بالحرف الرونى الذى ذاع فى هجاء اللغات التيوتونية القديمة . (المعرب)

(٢) هى فى الأصل Ave وهى تهليل فى رومية القديمة . (المعرب)

ويذهب بعض الباحثين إلى أن دليل كنزنجتن ليس سوى تزيف أتقن تدبيره .

وبالقرب من نيوبورت فى رود أيلند عمود مستدير من الحجر أقامه المستعمرون من الفيكنج ، وقد خلد الشاعر لونجفلو Longfellow المقبرة التى شهدها هنا فى قصيدته « هيكل فى عدة الحرب » . ويزعم بعض علماء الآثار أنهم عثروا على فئوس « نوردية » ، وعلى أدلة أخرى تثبت أن أهل إسكنديناوه قد نزلوا برأس كود Cape Cod بل وبجهات أبعد نحو الجنوب، وحتى لو كانت هذه الأدلة ثابتة وهناك كثير من الشك فى معظمها ـ وكان مثل هذا التوغل الاسكنديناوى قد حدث فعلاً ، فهى لا يمكن أن تعتبر أول هجرة وصلت إلى أمريكا ، فلا ريب فى أن الرواد الأول من الفيكنج قد وجدوا شعباً من الهنود الأمريكيين حينما وصلوا إلى سواحل لبرادور التى يغلفها الضباب .

ويقول البعض إذا كان الفيكنج قد جاءوا عن هذا الطريق فلم نستبعد أن تكون بعض عناصر شمال أوربا الأخرى التى سبقت الفيكنج قد هاجرت عبر المحيط الأطلسى الشمالى عن طريق أيسلند فجرينلند ثم لبرادور؟ ولكن إذا أدخلنا فى الاعتبار الزمن الذى لابد وأن الهجرات الأولى قد حدثت فيه فإن نظرية طريق المحيط الأطلسى الشمالى تصبح داعية للسخرية ، فلم يكن شعب من شعوب العالم القديم قد عرف أى نوع من المراكب منذ ثلاثين ألف سنة خلت . ربما كانوا يعبرون الأنهار أو البحيرات الضيقة على كتل من الخشب مستعينين بمجاديف من فروع من الشجر ، ويستحيل بمثل هذه الوسيلة البدائية من وسائل النقل المائى القيام برحلة عبر المحيط من أوربا إلى أيسلند فجرينلند .

ويفترض أحد علماء الحيوان الإنجليز وهو الأستاذ هـ . ا . فورست فى كتابه « القارة الأطلنطية » « Atlantean Continent » وجود معبر أرضى فى المحيط الأطلسى الشمالى يمتد من اسكنديناوه إلى أيسلند ثم إلى

أمريكا الشمالية . ويزعم أن النباتات وأسماك الحياة القديمة قد هاجرت من أوربا إلى أمريكا على هذا المعبر متنقلة من مجرى مائى إلى آخر . فلم لا يكون الإنسان كذلك قد اتخذ منه طريقاً يسلكه فى تحركاته ؟ ويعتمد فورست على أسطورة القارة الأطلنطية المفقودة فى البرهنة على وجهة نظره ، ومن أسف أنه لا يوجد دليل جيولوجى واحد على وجود أى معبر ارضى بالمحيط الأطلسى منذ عصر البليستوسين ، وهو العصر الذى ظهر فيه الإنسان. وليست قارة أطلانطيس المفقودة أو معبر فورست الأرضى إلا واحدة من بضع قارات أسطورية يفترض أنها غاصت تحت مياه البحار السبعة ، وكان موضوع إمكان وجود قارات مفقودة من الإثارة بحيث ظل بعض الناس يعتقدون حتى اليوم أن الأمريكان الاول قد نشأوا فى واحدة منها أو اتخذوا إحداها طريقاً لهجرتهم، ولا تزال تظهر كتب جديدة فى الموضوع كل عام .

كانت قارة أطلانطيس أكثر القارات المفقودة شهرة ، وكان أفلاطون أول من أشار إلى هذه القارة التى يفترض أنها كانت تقع فى المحيط الأطلسى الجنوبى ، فقد تحدث عنها فى محاورتين من محاوراته هما تيماوس ، وكرتياس اللتين كتبهما حوالى ٣٥٥ ق . م . وكان أفلاطون فى محاوراته هذه يحاول أن يضع بعض القضايا عن مبادىء الحكم . وكانت قارة أطلانطيس تقع بحسب روايته فيما وراء أعمدة هرقل ، وهو الاسم الذى أطلقه اليونان على مضيق جبل طارق ، وكان عليها مدينة مستديرة يبلغ قطرها خمسة عشر ميلاً هى مدينة باسيليا ، التى كان يصلها بالبحر مرفآن : داخلى وخارجى وكان من ورائها سهل يعتمد على الرى . ويصف أفلاطون مظهر المدينة (عمادنها وفيلتها) ويردد حكاية الملوك العشرة أبناء الاله بوسيدون ، الذى حكم أطلانطيس ولم يصف اطلاقاً المراكب أو المبانى أو أى مظهر آخر لأطلانطيس بتعبيرات حضارية غير مألوفة لديه . فقد كان يستخدم هذه الأرض الخرافية ، وملوكها العشرة الأسطوريين ليضع عدداً من القضايا الاجتماعية ، لقد كان الأطلنطيون فى أول الأمر من أصحاب الفضيلة ثم هبط مستواهم الخلقى فأصبحوا أشراراً جشعين ومن ثم فقد دعا الآلهة كبيرهم

زيوس إلى اجتماع عقده فى قصره ، وانتهت المحاورة بهذه الكلمات ، ... وهكذا تحدث زيوس ... ، ولم نعرف إطلاقاً ما تكلم به زيوس ، على أن أفلاطون كان قد وضع قضيته وكان كل ما يعنيه أن قارة أطلانطس قد انتهت .

ومن أسف أن أطلانطس لم تنته ، فقد التقط القصة بعض الكتاب فى القرن الخامس عشر حينما كثرت الشائعات عن الأراضى الجديدة ، وكتب السر فرنسيس بيكون فى القرن السابع عشر « قصة الاطلانطس الجديدة » فجعل أراضيها فى أمريكا نفسها . ولكن أسطورة القارة المفقودة عادت فبعثت فعلاً فى العصر الحديث فى كتاب نشره هاربرز سنة ١٨٨٢ لمحام من فيلادلفيا يدعى اجناتيوس دونيللى وكان عنوان الكتاب : « اطلانطس : عالم ما قبل الطوفان » . ولم تأت سنة ١٨٩٠ حتى كان قد ظهر للكتاب ثلاثة وعشرون طبعة فى أمريكا وستة وعشرون طبعة فى انجلترا . وإذا ما ظهرت قصة وبخاصة إذا كانت على شكل كتاب فإن كثيراً من الناس يعتقدون أنها لابد وأن تكون حقيقة ، ويتحمس لها البعض فيواصلون أذاعتها ، وهكذا ظهر الكتاب تلو الكتاب عن القارة المفقودة منذ بداية القرن العشرين .

ويزعم دونيللى أنه مادامت الشعوب والحضارات فى أمريكا وأوربا والشرق الأدنى متشابهة فلابد وأنها نشأت أصلاً فى اطلانطس . ويقول أن هنود أمريكا والأوربيين الأول إنما جاءوا جميعاً من اطلانطس . فلكلا الكتلتين أساطير عن الفيضان ، وقد استخدمت كلتاهما الحراب وما رست الزواج والطلاق ، ولكن هذه سمات حضارية لمعظم شعوب الأرض كما أوضح الانثربولوجيون ، ويمكن أن نبرهن بنفس الحجة على وجود اتصالات بين أفريقية واستراليا وأوربا .

ولا يقل عن هذا فساداً « برهنة » دونيللى على أن الكتابة المايوية

مشتقة من الهيروغليفية المصرية . فقد وضع جدولاً يوازن فيه بين الرموز المصرية والحروف الصوتية المايوية ، كما وضعها الأسقف الاسباني لاندا أسقف مريدا في يوكتان . والظاهر أن دونيللي لم يعرف أن الابجدية المايوية التي أخذها الأسقف لاندا عن الهنود كانت سخرية مقصودة دبرها الهنود ليثأروا من الأسقف الذي أحرق كتبهم الوطنية . وحتى هذه الابجدية المزيفة كانت تختلف كثيراً عن الكتابة المصرية مما اضطر دونيللي إلى وضع « أشكال انتقالية » .

ولم يقنع دونيللي بهذا بل وضع جدولاً مقارناً يبين أن هناك ارتباطاً بين الصينية والاتومية ، وهي إحدى اللغات المكسيكية ، ومن ثم فهما مشتقتان من لغة أطلانطس المفقودة . إن الصينية والأوتومية كلتيهما من اللغات التي يتحدد معنى الكلمة أو المقطع فيها بنبرة الصوت عند النطق ، وهذا ينطبق أيضا على كثير من اللغات الافريقية . ولم يكن هذا فحسب بل لقد تخير دونيللي الكلمات الصينية التي تتفق وغرضه وزاد بأن وضع في جدوله كلمات لا يضمها أي قاموس صيني على الاطلاق . ومع هذا كله فإن أي دراسة سريعة للغتين الصينية والأوتومية لتظهر أن لا علاقة بين اللغتين . ورغم هذا فلا يزال كثير مما يكتبون عن أطلانطس في وقتنا الحاضر يذكرون في معرض البرهنة على وجودها أن اللغة الأوتومية إنما هي لهجة صينية أو يابانية قديمة للغاية .

ولما كان كل كاتب يسعى إلى أن يجدد رواية السلف فقد جعلوا من أطلانطس قارة سكنها شعب عجيب ، استخدم المعادن منذ عهد سحيق وكانت له طائرته وغواصاته بل وعرف الطاقة الذرية واستخدمها . وغالباً ما يعمد هؤلاء الكتاب ونذكر منهم على سبيل المثال جورج وولف إلى ترديد قصة أن القاره الكبيرة حينما غاصت تحت مياه المحيط ، نجحت بعض العناصر التي نجت من الغرق في الوصول إلى السواحل الامريكية فكانوا أول من وطأت أقدامهم أرض هذه البرية العذراء .

إن فكرة غرق أطلانطس تحت مياه المحيط لمما يضفي طلاوة على قصتها . ولقد يقال بعد ذلك إذا كانت القارة قد اختفت فكيف نستطيع أن نثبت أنها وجدت على الاطلاق ؟ لهذا يضاف إلى سحر القدم جاذبية الكنوز الغارقة والمدن المخسوفة .

ومن نافلة القول أن نذكر أنه لا يوجد دليل جيولوجي أو انثربولوجي على أنه قد وجدت ذات يوم جزيرة كبيرة أو قارة فيما وراء « أعمدة هرقل » منذ ظهرت الحياة البشرية في القارة الأمريكية .

وبكل جسارة ادعى الأركيولوجي الألماني الغواص يورجن شبانوت Yurgen Spanuth في سنة ١٩٥٣ أنه عثر على القارة الغارقة تحت مياه بحر الشمال تجاه جزيرة هليجولاند ، بل وأعلن اكتشاف حائط مقوس في قاع المحيط هو بقية من حائط المدينة المستديرة باسيليا ، عاصمة أطلانطس نفسها ، ولكن الغواصين الآخر أخفقوا في أن يعثروا على أي أثر للمدينة الغارقة .

وليس الأنثروبولوجي بحاجة إلى أن يذكر أن بحر الشمال كان في معظم العصر الجليدي وادياً تغطيه الأدغال ولم تبدأ المياه إلا في نهاية العصر في غزو هذا الوادي الذي يكون قاع القنال الإنجليزي كما نعرفه الآن . وكان آخر من مشى في أجمات الوادي صيادون بسطاء لا يزالون يحيون حياة العصر الحجري الوسيط ، وهناك كثير من الأدلة على وجود هؤلاء الصيادين ، ولا يوجد دليل واحد على قيام أي مدنية كبيرة ، بل وحتى أفلاطون في قصته الخيالية لم يضع أطلانطس المفقودة في بحر الشمال أو في المحيط الأطلسي الشمالي كما يريدها هـ . ا . فورست أن تكون .

ولكن الناس مغرمون بقصص المدن الغارقة والقارات المفقودة ! وما فتئت الجمعيات الأطلانطية في الولايات المتحدة تنمو وتزدهر وتنشر الكتب وتعقد الاجتماعات . ومن أنشط الجمعيات التي كرست جهودها لفكرة أطلانطس جمعية الدراسات الأطلانطية Societé d'Etudes Atlantéenes

فى باريس . وقد حدث فى أحد اجتماعاتها فى سنة ١٩٢٧ أن ألقى منافس بقنابل ذات رائحة كريهة ففضت الاجتماع ، وهكذا دخلت سياسة المشاكسة ميدان القارات المفقودة .

وتكاد تتساوى مع أطلانطس فى شهرتها قارة خيالية أخرى ضاعت هى قارة مو Mu ، وقد ظهرت أسطورة مو (تحت اسم مختلف) لأول مرة سنة ١٩١١ فى كتاب من تأليف عالم بالأساطير مبتدع يدعى لويس سبنس Lewis Spence ، وفيه يتحدث عن قارة فى البحر الكاريبى سماها أنتيليا . ولكن الذى نشر معظم المزاعم عن القارة المفقودة فى المحيط الهادى كاتب لا يرتدع يدعى جيمس تشرشورد James Churchward . ويحفل كتابه الذى نشر فى صورته « النهائية » سنة ١٩٢٩ بعنوان « قارة مو المفقودة » بالأخطاء والأوهام . وكانت معظم معلوماته عن القارة مستمدة من « ألواح ناكال » التى أعطاها له راهب هندوكى غامض لم يره أو يسمع به أحد سوى تشرشورد ، وتفضل فترجم له الألواح ، وروى له كثيراً من الأنباء الأخرى عن حياة الموويين وأيامهم .

وكانت مو الخيالية فى المحيط الهادى ، وزعموا عن قصد أنها كانت مثلثة الشكل تقريباً ، قاعدتها فى جزر هواوى ويمتد طرفها الجنوبى فى المحيط الهادى حتى جزيرة إيستر ، وكانت محمولة على أحزمة من الغاز ، وهو أمر غير معهود كقاعدة لكتلة من الأرض الصلبة ، فلما تبدد الغاز غاصت قارة مو تحت مياه المحيط .

وقبل أن تغوص القارة نجّت أعداداً هائلة من الحيوان والإنسان وكثيراً من الأشياء فيما يزعمون ، وأخذت الخيالات عن قارة مو المفقودة تزداد كلما تعرض كاتب جديد للموضوع الذى ابتدعه فى الأصل لويس سبنس وجيمس تشرشورد ، ومن العجيب أن التغير المستمر فى الفكرة لم يزد المتعطشين إلى القراءة عن الأشياء الموية إلا سذاجة وسرعة فى التصديق ، وجمع بين الدنصور والإنسان القديم فى خليط حضارى مخبول ، وعبثاً

حاول الجيولوجيون الذين دخلوا ميدان الجدل أن يبينوا أن الدنصور انقرض قبل أن يظهر الانسان على سطح الأرض بزمن بعيد . ولكن ظل القائلون بالموية مصرين على إضافة المزيد من الهرف عن القارة الغارقة .

ويدعى تشرشورد أن بإمكانه أن يقرأ الأبجدية الموية ، ويقول إن حرف « الميم » فى الموية على شكل مستطيل وإن أى مستطيل فى الطبيعة أينما وجد يقوم دليلاً على مو . وهو برهان لا يقبل الجدل على أن الموويين قد بلغوا هذا المكان . وبناء على هذا الزعم فان سطح طوبة البناء المستطيل الشكل هو حرف الميم فى الأبجدية الموية . وهذا يدل على أن الموويين هم الذين ابتكروا الآجر .

وقد اتبع هذا المنطق الغريب أنصار النظرية الموية فى التدليل على أن هنود أمريكا هم أحفاد من نجا من الغرق من سكان قارة مو المفقودة قبل أن تبتلعها المياه تماماً . ثم غالوا فى تخيلهم فرجعوا بالصينيين بل وبالمصريين القدماء إلى نفس القارة ، ولما كانت مو قد غرقت وأصبحت أثراً بعد عين فهم يحاجون بأننا لا نستطيع أن ننفى النظرية .

ولا يقوم دليل جيولوجى على وجود قارة مو فى المحيط الهادى أكثر مما يقوم على وجود قارة أطلانطس فى المحيط الأطلسى ، ولسنا بحاجة إلى أن نرجع بالأمريكيين الأول إلى إحدى القارات الخيالية كقارة مو التى كانت آهلة بالدناصير . بيد أن الحجج الانثروبولوجية والتفنيد الجيولوجى لم يوقف حماس أنصار نظرية مو أو يوهن من عزم أتباع نظرية أطلانطس ، بل على العكس يبدو أن المطبوعات والاجتماعات الخاصة بمناقشة احتمال وجود قارة مو فى زيادة مستمرة ، ويتركز معظم هذا النشاط حول لوس أنجليس بكاليفورنيا ولكنه ليس مقصوراً بحال على هذه الجهات .

وجاءت نجدة غير متوقعة للنظريات الخاصة بقارتى مو وأطلانطس

فى أوائل القرن العشرين على يد بول شليمان Paul Schlieman حفيد هينرتش شليمان الشهير الذى اكتشف طروادة هومر ، ويظهر أن شليمان كان يفكر أن يواصل تقاليد الأسرة بأى ثمن ، فنشر فى الصحف عام ١٩١٢ قصة مثيرة عن عثوره على كنوز أثرية أسطورية مكتوبة بالخط الفينيقى ، وتحكى النقوش عن وجود قارة أطلانطس فيما وراء أعمدة هرقل. وأعلن بول شليمان كذلك اكتشافه لوثيقة كلدانية ، وردت من التبت ، وتتحدث هذه الوثيقة عن انهيار قاره مو وابتلاع اليم لها . وعندما سئل شليمان عن كيف توصل إلى هذه الاشياء العجيبة ، رد بأنها كانت فى جرة على شكل رأس بومة ، تركها له جده مختومة ، ومعها تعليمات بألا تفتح إلا بعد وفاته ، ولكن هذه الجرة لم تجد طريقها أبداً إلى أى متحف ، ولم يستطع شليمان الصغير أن يبرز الجرة أو الوثيقة الكلدانية ليعزز بها روايته.

وقد وحد أنصار مو وأطلانطس جهودهم أخيراً ، فأذاعوا أن الموويين حفروا قناة عبر جبال الأند فى أمريكا الجنوبية إلى حوض الأمزون وعن طريق هذه القناة كانت المراكب تحمل تجارتهم إلى قارة أطلانطس . فإذا تمثلنا الصورة العامة لسلاسل الأند يصبح من الجلى أن حفر مثل هذه القناة معجزة هندسية خارقة لا يقوى عليها إلا الليموريون وحدهم .

وليست مو وأطلانطس بالقارتين المفقودتين الوحيدتين اللتين يفترض أنهما الوطن الأصلى للأمريكيين الأول ، بل إن هناك قارة ثالثة هى قارة ليموريا Limuria المفقوده . ولعل من العجيب أن هذه القاره قد قال بوجودها فعلاً إثنان من علماء الحيوان هما هيكل Haekel وبلانفورد Blanford اللذان شرعا يهتمان بتوزيع حيوان الليمور فى آسيا وأفريقية منذ حوالى سنة ١٨٧٥ . والليمور أحد تلك الرئيسيات التى لها بعض صفات الإنسان، وقد عثر على حفريات أنواع منقرضة من الليمور فى جهات عدة من العالم القديم . ولا يعيش الليمور فى الوقت الحاضر إلا فى جنوب آسـيا ومدغشقر والساحل المجاور لها من شرق أفريقية ، وبسبب هذا التوزيع

قال العالمان باحتمال وجود معبر أرضى أو قارة غارقة تربط الهند وجزر الهند الشرقية (إندونيسيا) بساحل شرق أفريقية وأطلقا على هذه الكتلة الأرضية اسم ليموريا .

وسرعان ما اكتشف أن الليمور سبق له أن عاش فى جنوب شرق آسيا وفى شمال أفريقية بل وفى أوربا . ولم تعد هناك ضرورة لافتراض قارة ليموريا ولكن الضرر كان قد وقع بالفعل ؛ فهنا كانت قارة مفقودة قال بوجودها فعلاً بعض العلماء .

وكانت أشهر أبطال ليموريا هى هليوناب . بليفاتسكى Heliona P. Blefatsky التى ألفت كتابا فى الموضوع ، وعمرت مدام بليفاتسكى ليموريا المفقودة بما سمته « السلالات الجذريه » ، وهى سلالات وهمية فى أى مقياس بيولوجى ، وكان الليموريون الأصليون عمالقة خنثيين بيوضيين ذوى حواجب ناتئة ، وتهزأ مدام بليفانسكى « بالنظريات القردية » فى تطور الإنسان . وبدلاً منها كانت السلالات الجذرية فى قارة ليموريا الأصلية ، التى لم تكن تعرف الجنس بأى حال ، ثم حينما أصبح الوضع مشيناً بدخول الجنس بدأ التطور المعكوس ، وتزاوج الليموريون — وكان لبعضهم أربعة أذرع وعين إضافية فى مؤخرة الرأس — مع الحيوانات الأدنى رتبة فانحطت الصورة البشرية إلى صور تلك الحيوانات المشعرة .

والأطلنطيون فى قائمة مدام بليفانسكى هم « السلالة الجذرية الرابعة » ، التى نمت عن السلالة الجذرية الثالثة . ومن السلالة الجذرية الرابعة خرجت العناصر المغولية وبالتالى هنود أمريكا وكانت كل السلالات الجذرية فى حوزة ما تسميه « بالوعى الكونى » .

وأدخلت الولايات المتحدة وبخاصة كليفورنيا فى الخلاف حول ليموريا بسبب نظرية مغايره تضع ليموريا بالمحيط الهادى فى المكان الذى يحجز عادة لقارة مو ، أما كيف أصبحت ليموريا بديلاً من مو فأمر غير

واضح . ولكن هذه الرواية ترتبط فى العادة بأسطورة جبل شستا shasta . وطبقاً للقصة التى روجتها فى سنة ١٨٩٤ رواية ف . س . أوليفر ، مساكن فى كوكبين ، شق من بقوا أحياء من سكان ليموريا طريقهم إلى الساحل وتجمعوا حول جبل شستا فى شمال كليفورنيا ، وحتى الآن يؤكد لك أعضاء جماعات السحر فى لوس أنجليس أن من الممكن رؤية الليموريين فى ملابسهم البيضاء وهم يعقدون مؤتمرهم السرى على جبل شستا حينما يكتمل القمر بدراً ، ولسوء الحظ لا يستطيع الانثربولوجى العادى أو رجل الشارع الذى ليس له قوى خفية أن يرى هذه الأشياء مهما بحث فى كل جوانب جبل شستا .

وثمة قارة أخرى مفقودة سببت كثيراً من العناء للانثربولوجيين ، تلك هى جندوانالاند ، ومفروض أن كانت هذه القارة تمتد مما يعرف الآن بجزر الهند الشرقية (إندونيسيا) فى جنوب المحيط الهادى إلى أفريقية وأمريكا الجنوبية . وحديثاً ظهرت كثير من الكتابات والافتراضات عن قارة انتاركتيكا ، وهى قارة متجمدة الآن ولكنها لم تكن كذلك دائماً ، ويبحث المدافعون عن نظرية القارات المفقودة عن كيف يمكن التدليل على أن أنتاركتيكا لم تكن الوطن الأصلى للهنود الأمريكيين .

ولكن إذا لم نلزم أنفسنا بأن الأمريكيين الأول إنما يرجعون إلى قارات غارقة لم توجد على الإطلاق فان لدينا احتمالات أخرى أكثر قبولاً عند الانثربولوجيين . من أكثرها تشويقاً النظرية التى تعرف « بنظرية البنك الصينية »[1] . وهى تفترض أن الهنود الأمريكيين هم سلالة بحارة بنك صينى ، دفعها التيار عبر المحيط الهادى فى العصور القديمة وألقى بالأحياء منهم على السواحل الامريكية .

ولقيت النظرية تأييداً منذ سنوات خلت لأمرين لهما مغزاهما : أولها

(١) Junk نوع خاص من السفن الصينية القديمة آثرنا تعريبها بالبنك (المعرب)

أن الهنود الامريكيين مغوليو الصفات بعامة ، والآخر أن تيار اليابان الذى يتنوح المحيط الهادى الشمالى فى قوس نحو الشمال والشرق قد يحمل أى طفاوة كمركب محطمة مثلاً ويدفع بها عبر المحيط فى اتجاه شرقى . وتوضح العوامات الزجاجية لشباك صيد السمك التى تفلت من الصيادين فى جزر اليابان حركة تيار اليابان وخط سيره . وتجمع هذه العوامات الزجاجية على طول السواحل الألوشية وعلى شواطئ شمال غرب أمريكا الشمالية ، ويبدو منطقياً أن نفرض أن سفينة محطمة قد تحمل بنفس الطريقة على تيار اليابان .

وكان الانثربولوجيون قد استقرت فى ذهنهم بصفة خاصة الحقيقة التى اكتشفها الكابتن كوك ، الرحالة الذى ارتاد نفس الساحل فى سنة ١٧٧٨ ، وهى أن هنود المنطقة يقتنون أدوات شرقية المظهر . وعندما درس الانثربولوجيون فى القرن العشرين قبائل الهنود على الساحل الشمالى الغربى مثل الهيدا ، والكواكيوتل وجدوهم يستعملون عملات صينية ، ويتحلون « بدلايات » برنزية صينية . ولاحظوا أيضاً أن الأقنعة الخشبية المزخرفة التى يستعملونها فى الرقص بها فى الغالب شكل شوارب ضخمة ، ولما كان الهنود الأمريكيون عادة مرد الوجوه فان شارباً كثاً على القناع لمما يدعو إلى الاستغراب . ولكن الإينو المشعرين الذين يسكنون جزيرة هوكايد ، وفى شمال اليابان يطلقون شواربهم لتطول الى حد كبير ، يصنعون بطاطين وقبعات يتخذون منها أردية فى الحفلات ، وكذلك يفعل الهنود الامريكيون سكان الساحل الشمالى الغربى . بل أن رسوم البطاطين الهندية لتتطابق مع رسوم بطاطين شرق آسيا . والاحتفالات التى يقيمها الإينو لتمجيد الدب هى نفس الاحتفالات التى يقيمها الهنود الامريكيون ، ومن ثم فان ما يزعم من أمر بحارة السفينة الآسيوية التى دفع بحطامها التيار قد يفسر وجود هذه الظاهرات الحضارية الطريفة فى أمريكا الشمالية .

ولكن نظرية السفن الصينية وإن بدت محبوكة لا تحل مشكلة وصول

الأمريكيين الأول ، فالينك لم يكن قد صنعه الصينيون حتى القرون الأولى للميلاد ، ولا بد أن نتذكر أن أولى هجرات الانسان إلى العالم الجديد إنما حدثت فى زمن لم تكن المراكب قد عرفت فيه حتى فى آسيا نفسها . وحتى لو كان هناك نوع من الأطواف منذ ثلاثين ألف سنة فان من المشكوك فيه تماماً أن ينجو إنسان بحياته خلال رحلة تستلزم عديداً من الأسابيع لتبلغ غايتها من الساحل الشمالى الغربى مع تيار اليابان . ولو فرضنا جدلاً أن بعض الآسيويين قد وفقوا فى حملة كهذه على ينك صينى فانهم لن يكونوا أول من تطأ أقدامهم سواحل الشمال الغربى لأمريكا ، إذ سيجدون الهنود هناك فعلاً .

ومن تناولنا السفن العائمة كحل للغز نشأة الأمريكيين يبرز عدد من الاحتمالات المضللة ، وكان من الاحتمالات التى قوبلت بكثير من الترحاب ، نظرية جزيرة إيستر ، فقد بأرت الاهتمام فى اتجاه هذه الجزيرة من جزر المحيط الهادى الجنوبى رحلة الرمث كون تيكى Kon-tiki المصنوع من خشب البلسم . وقد قال ثورهيردال Thor Heyerdahl ربان الرمث بكثير من الصلات الخلابة بين جزيرة إيستر وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى وبين ساحل أمريكا الجنوبية .

وقبل رحلة «كون تيكى» بزمن طويل فكر فى جزيرة إيستر كنقطة ارتكاز فى مياه المحيط الهادى الجنوبى الفسيحة ، بدأ منها الجنس البشرى يغزوا السواحل الأمريكية لأول مرة . ولا يبدو أن جزيرة إيستر — وقد سميت بهذا الاسم لأنها اكتشفت يوم عيد الفصح سنة ١٧٨٧ — هى أحسن طريق منطقى يمكن أن تسلكه الملاحة البحرية إلى أمريكا .

إن نظرة إلى خريطة المحيط الهادى الجنوبى لتبين مدى المسافات الشاسعة التى تفصل جزيرة إيستر عن أقرب مجموعات جزر المحيط الأخرى إليها ، مما يستحيل معه أن يكون فى مقدرة الإنسان القديم القيام بالرحلة . فهذه البقعة الصغيرة من الأرض تقع على بعد ١٦٠٠ ميل من

مانجاريفا البولينيزية وعلى بعد ٢٢٠٠ ميل من ساحل أمريكا الجنوبية ، ولكن جزيرة إيستر كانت مأهولة بالسكان الوطنيين عندما اكتشفها الاوربيون لأول مرة ، ومن ثم فمن الجلى أن بعض العناصر البشرية قد قامت بالرحلة فى عصر ما قبل الأوربيين رغم أن مراكب سكان الجزيرة عندما اكتشفت كانت مراكب بدائية للغاية .

ومن المحتمل أن تكون الرحلة قد تيسرت باستخدام الزوارق ذات الأخشاب الممدودة وهى وسيلة للملاحة نشأت أصلاً فى المحيط الهادى . فالزوارق التى هى مجرد جذع شجرة مجوف هى بصفة عامة غير مستقرة ولا تصلح إطلاقاً للتجول فى المحيط . ولكن تدعيمها بكتلة خشبية إضافية على أحد جانبيها بواسطة قوائم خشبية تتعامد على مقاعد التجديف فى الزورق، تزيد كثيراً من استقرارها على الماء ، وقد يكون التدعيم على جانبى الزورق كليهما ويعرف فى هذه الحالة بالزورق المزدوج التدعيم .

وبمثل هذا النوع من الزوارق قام السكان الوطنيون فى المحيط الهادى الجنوبى برحلات منتظمة من جزيرة إلى جزيرة . وهذه الرحلات الباعثة على الدهشة قد تجاوز بعضها الألفى ميل فى البحار المفتوحة ، مما سجله التاريخ لرجال البحر من سكان المحيط الهادى الجنوبى ، الذين كانت لهم دراية بالنجوم وكانوا يتبعون خرائط بحرية صنعوها بربط العصى إلى بعضها البعض فى مجموعات . وكانوا يحملون جوز الهند ويصطادون السمك لغذائهم ، ويجمعون مياه المطر المتساقطة لشرابهم .

لا ريب أن الزورق المدعم كان الوسيلة التى حملت السكان إلى معظم جزر المحيط الهادى فى الأصل ، فجاء سكان جزر هواوى من أواسط المحيط الهندى ، وكان سكان جزر إيستر من البولينيزيين الخاص ، كما تدل على ذلك لغتهم البولينيزية التى هى نموذج للحضارة البولينيزية . تتشابه فيه الآلهة والمساكن وأكل اللحوم البشرية مع ما هو موجود فى الجزر الواقعة فى أقصى الغرب ، ومن المحتمل أن الذين عمروا جزيرة إيستر قد وفدوا عليها

بالزوارق ذات الدعامات الخشبية قادمين من جزر سولومون .

فإذا كان الوطنيون من أهل المحيط الهادى الجنوبى قد قاموا بهذه الرحلات الهائلة فى عصور تاريخية ، بل وكما هو واضح فى عصور ما قبل التاريخ فلم لاتكون هى التى حملت الإنسان الأول إلى أمريكا ؟ إن جزيرة إيستر بقعة صغيرة من الأرض فى المحيط الهادى الجنوبى الواسع لا تزيد على ١٣ ميلاً فى الطول و ١٠ أميال فى العرض ، فإذا كان بحارة الزوارق من المهارة بحيث اهتدوا إليها ، فإن الرحلة منها إلى الساحل أمريكا الجنوبية لابد وأن تكون من السهولة بمكان .

وعززت نظرية جزيرة إيستر علاقات استطاع علماء الآثار أن يتبينوها . فقد عثروا فى مقبرتين فى بيرو على أدوات ذات طابع أندى ومعها عصى من جزر المحيط الجنوبى ، وكانت هذه العصى أو « الباتو » كما تسمى فى جزر المحيط الهادى مصنوعة من خشب صلب للغاية ، وقد دبب طرفها حتى يمكن استخدامها كسلاح للطعن والضرب ، وهذه العصى من خصائص المحيط الهادى الجنوبى وليست أبداً من خصائص الساحل الأندى. ولما كان الساحل البيروفى شديد الجفاف فإن الأدوات الخشبية والمنسوجات لا يتطرق إليها التلف فى الغالب ، ويستنتج علماء الآثار أن هذه العصى لابد وأن بحارة الزوارق ذات الدعامات الخشبية من أهل جزيرة إيستر هم الذين حملوها إلى الساحل الأمريكى .

كذلك لاحظ علماء الآثار التشابه بين نقوش الأحجار البازلتية الضخمة فى جزيرة إيستر والتماثيل الميجالثية فى منطقة الأند . وفى أقرب الجزر لجزيرة إيستر تلال مدرجة يبدو أنها شيدت لأغراض الدفاع تحمل طابع الحافات الجبلية المدرجة فى جهات بيرو ، والأهرامات المدرجة فى أمريكا الوسطى . وبناء الاهرامات على شكل سلمى أوفى صورة مدرجات من أبرز خصائص المراكز الحضارية الكبرى فى أمريكا من الأند إلى المكسيك ، ثم إلى وادى المسيسبى فى أمريكا الشمالية . ويذهب الذين يدافعون

عن نظرية جزيرة إيستر إلى أن عادة النصب التذكارية الدينية على شكل مدرجات لابد وأن حملها إلى السواحل الامريكية بعض المهاجرين الأوائل

ويعقد لفيف آخر من أنصار نظرية جزيرة إيستر موازنات بين فنون أمريكا الوسطى وفنون جنوب شرق آسيا . وقد نشر الدكتور جرافتون إليوت سمث ، وهو أحد الأطباء اللامعين ، فى سنة ١٩٢٤ مقالاً بعنوان « فيلة وانتولوجيون » ، ويشعر العنوان بنوع الرسوم التى تتبعها دكتور سمث من جنوب شرق آسيا إلى العالم الجديد ، كما عقد مقارنات بين الرسوم التى وجدت فى منطقة المايا ، وكمبوديا ، والصين الهندية ، وكل جهات جنوب شرق آسيا . ويشير إلى أنه فى معابد مايويه معينة كتلك التى فى مواضع بالنكرى وكوبان ، نحت بناتها الأصليون من المايويين رءوس فيلة ، ويقرر أن المايويين ما كان لهم أن يعرفوا كيف تكون رأس الفيل ما لم يكن قد وصفه لهم أهل الجزر الذين أتوا عبر المحيط . كذلك يبدو أن رسوم الرقص وعصائب الرأس وغيرها من المظاهر الفنية الموجودة فى معابد المايويين تتفق تماماً مع التفصيلات المنحوتة فى الآثار البوذية فى جنوب شرق آسيا ، ويذهب الانثربولوجيون الأكثر حذراً إلى أن الفيلة المحفورة على المعابد المايوية قد تكون تمثيلاً للسناد الأمريكى (التابير) وهو أحد أقارب الخرتيت . ويرد الدكتور سمث على ذلك بأن رءوس الحيوانات المايوية لها أنياب فى حين أن السناد الأمريكى لا أنياب له ، والفيل الآسيوى هو الذى له أنياب . ويضيف أن المنخار أقرب فى مظهره إلى خرطوم الفيل منه إلى فنطيسة السناد .

ومن المحتمل أن يكون المهاجرون من جنوب شرق آسيا قد جلبوا معهم المظاهر الفنية بما فيها الفيلة والنقوش الحجرية الميجالثية والأهرام المدرجة بل وفكرة البناء بالحجر . وهذا قد يفسر أيضاً توزيع هذه الأشياء فى أمريكا ، فالساحل الأندى مكان يدعو إلى العجب أن يكون

هو الوطن الأصلى للمدنيات الراقية فى العالم القديم ، ولكن يمكن أن نفسر قيام المدنية فى جبال الأنْد تفسيراً مقبولاً إذا قلنا إن البذور الأولى لهذه المدنية قد وفدت من الجانب الآخر للمحيط الهادى .

ولكن مهما يكن من أمر فإن الأبحاث الانثربولوجية التى تمت فى الثلاثينات من القرن العشرين ، تقطع بأن جميع جزر المحيط الهادى الجنوبى لم تعرف الإنسان إلا فى وقت متأخر نسبياً . وقد كشفت الحفائر الاركيولوجية التى قام بها ثورهيردال فى رحلته الثانية إلى جزيرة إيستر حداثة عهد الجزيرة نفسها بالإنسان . وأظهر البحث أن موجتين من الناس قد اجتاحتا هذه الجزر ، ووفدت على بعض الأماكن أكثر من موجتين . وتتمثل الأنماط الجسمانية المختلفة لسكان المحيط الهادى الجنوبى فى الجماعات المتعاقبة التى احتلت جزر سولومون ، وجزر جلبرت ، وجزيرة إيستر ، مما يعطى الدليل على توالى تحركات العناصر من جنوب شرق آسيا . بل ولم تصل أولى هذه التحركات إلى جزر جنوب شرق المحيط الهادى إلا فى القرون التى تلت ميلاد المسيح . ومن المحتمل أن جزيرة إيستر نفسها كانت خالية من السكان قبل سنة ١٠٠٠ م . وحتى لو أثبت التنقيب فيما بعد أن بعض العناصر البشرية الباسلة قد اكتشفت هذه الجزر الصغيرة قبل ذلك ببضعة قرون فيجب أن نخلص إلى أن الزوارق ذات الدعامة الخشبية التى يحتمل أن يكون سكان جزيرة إيستر قد بلغوا بها ساحل أمريكا الجنوبية ، إنما رست على ساحل آهل بالسكان فعلاً .

ويبين ثورهيردال ورمثه « كون تيكى » أن طوفاً من خشب البلسم يمكن أن يقوم بالرحلة من ساحل الأنْد متجهاً غرباً إلى جزر المحيط الهادى الجنوبى ، وقد أثبت هيردال فعلاً أن قارباً عسنياً من هذا النوع يمكن أن يتحمل الرحلة ، فالتيارات المحيطية تتحرك بصفة عامة ، والرياح مواتية دائماً . ولكن رحلة « كون تيكى » لا تحل مشكلتنا الأساسية ، فالرمث المصنوع فى جزر المحيط الهادى الجنوبى يقابل صعوبات جمة فى تحركه نحو

الشرق . ولكن الزورق ذا الدعائم الخشبية يستطيع أن يسير بسهولة ضد التيار ، بل ويستطيع أن يشق طريقه ضد اتجاه الرياح .

وقد أظهرت رحلة « كون تيكى » كثيراً من أوجه التشابه بين المدنيات الأمريكية ومدنيات أكثر جزر المحيط الهادى بعداً نحو الشرق . ولابد أن نسلم بأن عدداً من المراكب ، ربما كانت من طراز « كون تيكى » قد قامت فى العصور القديمة بالرحلة نحو الغرب ، وقد حمل بحارة الأرماث أو الزوارق ذات الدعائم معهم الأفكار التى أصبحت راسخة الجذور فى الجزر . فالاهرام المدرجة مثلاً هى فيم يبدو عمل أمريكى أصيل وليس آسيوياً بالمرة وأن من الأيسر أن نفسر وجود التلال المدرجة فى آسيا بأنها مستمدة من أمريكا من أن نبرر العكس . ومن الواضح أن البطاطا ذات أمريكى النشأة وكان سكان جزر هواوى وغيرها من جزر المحيط الهادى يزرعونها حينما ألقى الربابنة الأوربيون بمراسى سفنهم على هذه الجزر لأول مرة . وربما حمل بعض أصحاب الأرماث الشبيهة « بكون تيكى » البطاطا معهم وأدخلوها إلى هذه الجزر .

ولكن الصلات الحضارية بين جزر المحيط الهادى وأمريكا الوسطى لابد وأن ينظر إليها على أنها حركة نحو الغرب ، وسيكون من المثمر فعلاً أن تجرى أبحاث اركيولوجية أخرى فى جزر المحيط الهادى ، ولكن ليس هناك على أى حال دليل على أن الهنود الأمريكيين قد وصلوا إلى القارة عبر المحيط

ويستشهد الذين يؤمنون بقارة مو المفقودة برحلة « كون تيكى » كمثال للرحلات العديدة التى قام بها الموويون أنفسهم ، ويعتبرون جزيرة إيستر وجزر هاواوى قمم جبال تخلفت على سطح الماء حينما غاصت قارة مو الكبيرة . ولا حاجة بنا إلى القول بأن هؤلاء لم يضيفوا دليلاً جديداً إلى نظرية جزيرة إيستر يمكن أن نستعين به فى الخروج بنتيجة أكثر سلامة .

ولا يزال بعض الناس يأخذون حتى الآن بفكرة انحدار الهنود الأمريكيين من القبائل اليهودية العشر المفقودة ، ولا يزال البعض الآخر يرى أن الهنود الاوائل كانوا صينيين أو مصريين . وقد يكون لهذه النظريات شيء من الوجاهة إذا اغضينا عن التفكير فى طريقة وصول هؤلاء القوم عبر المحيط الواسع ، وقد بعثت فى السنوات الاخيرة فكرة أن الهنود الامريكيين الاول هم الاحياء من بحارة سفن الاسكندر الاكبر . فمن المعروف أن الإسكندر جمع أسطولا ضخماً فى الخليج العربى وكان على أهبة القيام بحملة أخرى كبيرة إلى آسيا حينما مرض وأدركته المنية فى مدينة بابل سنة ٣٢٣ ق.م. ولم يسمع شيء بعد ذلك عن الأسطول وبحارته والقائد الذى عقد له لواؤه ؛ فاذا كان الأسطول الإغريقى قد وصل فعلاً إلى الشواطىء الامريكية فلابد وأنها كانت رحلة مهولة حقاً . وإذا كان الهنود الامريكيون قد انحدروا من البحارة المقدونيين فلابد وأن تغيرات بدنية هائلة قد طرأت عليهم خلال القرون التى انقضت منذ وصل الاغريق إلى أمريكا . وحتى لو تجاوزنا عن هذه الامور فان من الممكن أن نثبت على وجه القطع أن الهنود الامريكيين كانوا حيث هم قبل أن يتجمع أسطول الإسكندر فى الخليج العربى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

وليس من الضرورى أن نرجع بنشأة الهنود الأمريكيين إلى الأساطيل المفقودة أو القارات الغارقة أو حتى إلى الرحلات الخيالية عبر المحيط الواسع ، بل أن الامر لأكثر وضوحاً مما نتصور وهو أقرب الينا مما نظن .

لقد كان مضيق برنج هو الباب الأمامى لأمريكا القديمة ، فهنا تبرز شبه جزيرة سيوارد نحو الغرب فلا تبعد عن إيست كيب فى سيبريا بأكثر من ٥٦ ميلاً . وفى هذا البوغاز الضيق تقع جزر ديوميد ، وتتبع جزر ديوميد الكبرى لروسيا ، أما ديوميد الصغرى فأمريكية . ومن الممكن أن نرى الساحل السيبيرى ونحن على أرض أمريكا عندما يكون الجو صحوا .

ويتجمد مضيق برنج خلال الشتاء القطبى ، وقد اعتاد الإسكيمو أن يتنقلوا على الجليد بحرية ، فتحملهم زلاقتهم التى تجرها الكلاب من آسيا إلى أمريكا الشمالية ثم يعودون . ولإسكيمو الساحل السيبيرى نفس اللغة ونفس الحضارة التى لإسكيمو الساحل الأمريكى . ولقد توقفت الحركة عبر مضيق برنج فى السنوات الأخيرة ولكن لأسباب سياسية ، ولم يكن للصعوبات الطبيعية أى شأن فى توقفها .

بل وليس من اللازم أن نفترض أن الأمريكيين الأول قد ساروا إلى العالم الجديد عبر بحر من الجليد ، فنحن نعرف أن المهاجرين الأول قد وفدوا على العالم الجديد خلال العصر الجليدى الأخير ، أو عصر جليد وسكونسكن وفى كل عصر جليدى كانت تحتجز كميات هائلة من الماء على سطح الأرض فتكون كتلة جليدية سميكة . وتبعاً لقانون عدم فناء المادة فإن هناك كمية معلومة من كل نوع من المواد على هذا الكوكب الذى نسكنه ، فإذا تحولت هذه الملايين من الأمتار المكعبة من المياه إلى جليد فلا بد وأن تنقص مياه المحيط بنفس القدر ، ومن ثم فإن منسوب سطح المحيط ينخفض خلال العصور الجليدية عن منسوبه الحالى بنحو ٦٠ متراً تقريباً . وقد يختلف العلماء فى تقديرهم للأبعاد الحقيقية لكتل الجليد القارية ولكن انخفاضاً لا يربو على العشرين متراً فى منسوب المحيط الهادى الشمالى يمكن أن يحول مضيق برنج الضحل نسبياً إلى يابس مكشوف .

وإذن فقد كان برنج برزخاً لا بوغازاً فى وقت وصول الأمريكيين الأول ، كان عنقاً من اليابس استطاعوا أن ينتقلوا عليه إلى العالم الجديد دون حاجة إلى أى وسيلة من وسائل النقل . ولم تغمر المياه هذا المعبر الذى كان يربط آسيا بأمريكا الشمالية إلا ونهاية جليد وسكونسن حينما عاد الماء الذائب عن الجليد يرفع من منسوب سطح المحيط ، وعندما جاء هذا الوقت كانت موجات من الهجرات البشرية قد ولجت فعلاً باب أمريكا الأمامى .

وكان هؤلاء الأمريكيون الأول من الصيادين ، كانوا يصطادون الحيوانات التى تميز بها عصر جليد وسكونسن ، وتبين الأدلة التى اكتشفت فى نيومكسيكو وجنوب غرب الولايات المتحدة أنهم كانوا لا يزالون يحبون حياة الصيد والتجوال . وكان إنسان سانديا وغيره من الأنواع المماثلة يصطادون الماموث والبيسون والحصان والجمل ، وكل الحيوانات التى عاشت فى عصر جليد وسكونسن .

وقد يبدو من المستحيل لدى البعض أن يكون مثل هذا الصياد الأمريكى قد استطاع أن يجتاز برزخ برنج أثناء العصور الجليدية ، وحجتهم أن أى إنسان لابد وأن يدركه الهلاك فى تلك البرية القطبية من أرض الشمال ، قبل أن يتمكن من شق طريقه على الجليد لمئات الأميال . ولما كانت المنطقة حول القطب الشمالى أشد برداً من سائر أمريكا ، فلا بد وأن البرودة كانت زمهريراً فى ألسكا الشمالية إذا صح أن كتل الجليد قد غطت الجهات التى هى الآن وسكونسن وكلورادو .

ولكن الأمر لم يكن كذلك ؛ فقد اكتشف الجيولوجيون المتخصصون فى العصور الجليدية أن وادى نهر يوكن لم يكن متجمداً خلال معظم العصر الجليدى . ولقد كان فى أمريكا الشمالية كتلتان جليديتان رئيسيتان ؛ تغطى كبراهما مايعرف الآن بخليج هدسن وتمتد منها ألسنة جليدية نحو الجنوب فى عصور مختلفة إلى البحيرات العظمى وإلى القطاع الشمالى من الولايات المتحدة ، وتكسو الأخرى جبال الروكى مكونة حقلاً جليدياً ضيقاً يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وبين هاتين الكتلتين من جليد القارة كان يوجد ممر يفتح ويغلق مع نقص الجليد أو زيادته .

ومن ثم فقد كان فى استطاعة الإنسان أن يجتاز برزخ برنج ثم يشق طريقه فى ألسكا متوغلاً فى قلب قارة أمريكا الشمالية .

وقد أوفدت جامعة نيومكسيكو فى سنة ١٩٤١ جماعة من علماء الآثار تحت إشراف المؤلف إلى ألسكا لتتحقق من صحة النظرية ، وكان الدافع إلى إيفادها أن مدببات فلصم التى عثر عليها فى نيومكسيكو وغيرها من أنواع رءوس الحراب التى اكتشفت فى الجهات الأخرى من إقليم الغرب، قد عثر على نظائر لها فى سهول البرتا وسسكتشوان بكندا ، كما عثر على نماذج أخرى من رءوس حراب صيادى العصر الجليدى فى ألسكا نفسها غير بعيد من مضيق برنج .

ووجد علماء الآثار المفتاح الذى يبحثون عنه فى وادى نهر يوكن حيث جوف معدنو الذهب فى الأرض التى يغطيها الجليد الدائم حفرات كبيرة . وفى السنوات الأخيرة نقبت شركات تعدين الذهب مساحات واسعة مستعينة بالقوى الهيدروليكية فكان المعدنون يدلفون إلى طبقة سميكة من الرمل الرمادى تسمى « الكدر » Muck ، فتحت هذه الطبقة يوجد الحصى الحاوى لتبر الذهب . ولما كان الكدر متجمداً ويربو سمكه على التسعين قدماً فى بعض الجهات، فقد كانت عمليات التنقيب مشكلة حلتها شركات الذهب بآلاتها الهيدروليكية الجبارة، وأصبح فى مقدورها أن تخلص من الجليد مساحات واسعة من الأرض بينما كان المعدنون فى أيام التدافع اليوكونى[1] لا يقدرون إلا على إذابة الجليد فى ثقوب ضيقة فى طبقة الكدر.

ولم تكشف الآلات الهيدروليكية الجبارة عن شذرات الذهب فحسب، بل كشفت كذلك عن عظام حيوانات العصر الجليدى ؛ عن عظام الماموث والبيسون والحصان والجمل ، وكشفت مجارى الماء المتدفقة عن هياكل النمور والذئاب التى كانت تفترس الحيوانات الأخرى لتعيش .

ومع أن الكدر قد تجمد منذ عصر الجليد، فقد كانت هناك أمثلة محفوظات

---

(١) يطلق التدافع اليوكونى على الفترة التى اكتشف فيها الذهب لأول مرة فى وادى نهر يوكن فتدافع عليه طلاب الثروة من كل صوب . (المعرب)

تثير العجب . كانت معظم أجسام الحيوانات قد مزقها وطواها بعض جوائح الطوفان العارمة قبل أن تتجمد فى غلاف من الكدر ، وفى كثير من الحالات كانت أجزاء من الأنسجة والجلد والشعر بل واللحم لا تزال عالقة بالعظام ، وفى بعض الأحيان عثر على كتف كامل او على مؤخرة ماموث محفوظة لم تتعفن . وحصل المعدنون على النصف الأمامى من ماموث وليد ، وكان لايزال كاملاً ؛ فيه الخرطوم وفيه الأذنان ، وقد شحن فى ثلاجة خاصة الى متحف التاريخ الطبيعى الأمريكى .

وقد وجد علماء الآثار كذلك لحم ماموث وهو لا يزال صالحاً للأكل ، ولكن اهتمامهم باللحم المحفوظ كان أقل من اهتمامهم بالحيوانات نفسها ، تلك التى كانت غذاء للأمريكى الأول فى أواخر عصر الجليد ، وكانت العظام التى جمدت فى كدر ألسكا جزءاً من الإطار العام لقصة أمريكا الأولى ، وإذا كان المهاجرون الأول قد مروا بهذا الطريق فربما وجدت عظامهم كذلك مجمدة فى كدر حوض يوكن .

ولم يعثر على جثة مجمدة لإنسان فلصم، ولكن عثر فى إحدى الحالات على رءوس حراب صوانية لبعض هذه العناصر الأمريكية الأولى بجانب جمجمة نمر ألسكى . هذه المدببات الصوانية دليل قاطع على أن الإنسان قد عاش فى وادى نهر يوكن خلال العصر الجليدى ، وتدل المدببات الأخرى التى استخرجت من الكدر أن الإنسان كان لا يزال يجوب وادى يوكن ونهاية عصر الجليد ، وقد رأى هذا الإنسان حشود الحيوان ، وعاش على لحومها. ويؤرخ كربون ١٤ قرون الحيوانات المطمورة فى الكدر وأنيابها بأكثر من ٢٠ ألف سنة .

وعثر على نفس الأنواع من الماموث متجمدة فى الجانب السيبيرى لمضيق برنج ، فقد كانت الفيلة وغيرها من حيوانات العصر الجليدى تنتقل بين الجانبين فى حرية عبر المعبر الأرضى الذى يصل ألسكا بسيبيريا . لقد كان

برزخ برنج فى الواقع هو المعبر الذى تحركت عليه تلك الأنواع المختلفة من الحيوانات فى أوائل عصر الجليد، لتعيش إما فى العالم القديم أو فى العالم الجديد.

وكان فى استطاعة الصيادين القدامى فى أواخر العصور الجليدية أن ينتقلوا من سيبيريا إلى أمريكا الشمالية . وتؤكد الأدلة التى عثر عليها فى كدر ألسكا أن ذلك هو ما فعلوه يقيناً . ولا يزال علماء الدراسات السيبيرية وعلماء الآثار الأمريكيون يأملون فى العثور على جثة مجمدة للصياد الأول ، ولكن سواء عثر العلماء الروس على إنسان مجمد أو اكتشف الأمريكيون جسماً محفوظا لم يتعفن فى وادى يوكن ، فان هذا لا يعنى إلا القليل ، ويمكن أن نطلق على أيهما أنه الأمريكى الأول .

ومن المؤكد فى الغالب أن أول ناس دخلوا العالم الجديد قد جاؤا فى جماعات تهيم على وجهها دون أن تعرف أنها خرجت من عالم إلى عالم آخر . وقد عاد بعضهم دون شك إلى آسيا . ومن المؤكد كذلك أن المهاجرين الأول إلى أمريكا قد جاؤا على دفعات خلال فترة طويلة من الزمان . وهذا هو السبب فى تباين أنواع الصيادين الذين جمع علماء الآثار الادلة عنهم من مختلف أنحاء أمريكا الشمالية .

وقد انحدرت هذه الجماعات الجوالة التى كانت لا تزال تصطاد حيوانات العصور الجليدية المتأخرة لتعتمد عليها فى غذائها إلى الجنوب . فشقت طريقها إلى كندا ثم إلى السهول الغربية فى أمريكا الشمالية ووجدوا البيئة المثالية للصيد على طول حضيض جبال الروكى عند أقصى أطراف الكتل الجليدية حيث تنمو الحشائش فى وفرة ، وتخصص بعضهم فى صيد الفيلة واكتفى بعضهم بصيد بيسون عصر الجليد ، فلما قلت موارد الصيد وتعذر عليهم الحصول على طعامهم تحركوا جنوباً إلى مكسيكو القديمة ثم عبروا برزخ بنما إلى أمريكا الجنوبية . لقد كان فيها هى أيضاً حيوانات عصر الجليد ؛ وليس فيها من أدلة الأمريكيين الأول إلا النذر اليسير ، بيد أن

الدكتور «يونيوس بيرو» قد عثر فى سنة ١٩٥١ وهو ينقب فى كهف بأقصى الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية فى جنوب شيلى على ما يدل على أن صيادين قد عاشوا هناك وختام العصر الجليدى؛ ويؤرخ كربون ١٤ موجودات هذا الكهف بسنة ٨٦٣٩ ق . م مع خطأ محتمل يبلغ ٤١٥ سنة . وإذن فقد تحركت فى هذا التاريخ على الأقل جماعات الصيادين من أقصى شمال أمريكا لتعمر أقصى أطرافها الجنوبية .

لم يعد إذن هناك غموض حقيق يحيط بالطريقة التى وصل بها الأمريكيون الى العالم الجديد . لقد أصبحنا على علم بكيف وصلوا وبالزمن الذى وصلوا فيه على وجه التقريب . ولم يكن حل بعض المسائل الأخرى المتعلقة بأصول الأمريكيين فى مثل هذه السهولة :



الفصل الخامس

المستوطنون الأول

يهتم علماء الآثار عادة بشيئين : الناس والحضارة . وحضارة مجتمع ما، هى حصيلة أعماله وأقواله وأفكاره وكل مايصنع ، وقد زودتنا رءوس الحراب الصوانية بأول المعلومات عن الأمريكيين الاول ، وبواسطة المواد الحضارية أى أدوات الأمريكيين القدامى تتبعنا إلى الخلف خط سيرهم ، إلى السكا ومضيق برنج ، واستطعنا بالفحم المأخوذ من مواقد نيرانهم وبعظام ما قتلوا من حيوان أن نعرف متى اجتازوا برزخ برنج . وقد أصبح الجانب الحضارى من القصة معروفاً لدرجة طيبة .

ولكن لم يعثر على هياكل بشرية كما سبق أن رأينا فى الأماكن التى كان يقيم فيها إنسان فلصم فى منطقة لندنمير بشرقى كلورادو فى منطقة كلوفيس بنيومكسيكو ، ولم يعثر عليها كذلك فى كهف سانديا وكلما نقب علماء الآثار المكان إثر المكان ، كلما أصبح اختفاء البقايا الإنسانية لغزاً محيراً ، ففى مئات الأماكن التى عرف أن الأمريكيين الأول قد نزلوا بها وعاشوا فيها ، لم يكشف البحث عن شظية واحدة من عظمة بشرية .

وهذا هو أكثر الأمور غموضاً ، إذ قلما تهتم الشعوب البدائية فى العادة بموتاها . لقد كان الأمريكيون الأول صيادين ولقاط طعام ، وقد جرت عادة نظرائهم فى الجهات الأخرى من العالم أن يدفنوا موتاهم على مقربة من

أماكن سكناهم . أو ربما ألقوا بجثثهم فى بعض الأحوال مع ما يرمون من فضلات ، ومع ذلك فلم يعثر بعد على هيكل واحد لإنسان فى كل أنحاء أمريكا ، رغم كل ما بذله علماء الآثار من جهد فى البحث والتنقيب .

ولم تكن المسألة مسألة حفظ من التلف ، فقد جمعت الأطنان من عظام الحيوانات من لند نمبر وكالوفيس وكهف سانديا . وفى كثير من الحالات كانت عظام الحيوان بالغة التحجر . وفى كدر السكا كانت جثث الماموث والبيسون وغيرهما من الحيوانات أبعد ما تكون عن التلف ، فلم لم يحفظ جسم الإنسان كذلك ؟

لقد عثر علماء الآثار الذين عملوا فى المكسيك وفى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية على عشرات الآلاف من الأدوات التى صنعها الأمريكيون الأول وقاموا بتصنيفها ، ولكنهم لم يعثروا على مثل ذلك من الأيدى التى صنعت هذه الأدوات . لقد كان الأمريكى الأول نفسه رمزاً سديمياً ، وروى عديداً من القصص ، ووضع كثيراً من النظريات لتعليل عدم وجوده .

وذهب البعض إلى أن الأمريكيين الأول كانوا يحرقون جثث موتاهم ، فعند بعض الشعوب وفى بعض الحضارات كانت هذه هى الوسيلة للتخلص من الموتى ، ولا تزال تمارس حتى الآن فى بعض جهات العالم .

ويعرف علماء الآثار الكثير عن الموت ، فهم ينفقون جزءاً كبيراً من وقتهم فى نبش القبور وحفر الجبانات ، وقد وجدوا أن عادة حرق الموتى عادة راسخة فى الحضارات الراقية ؛ كانت هذه العادة مثلاً هى الوسيلة الشائعة للدفن عند شعوب أوربا فى العصر البرونزى المتأخر . وكان بناة المتاريس ، فى أمريكا الشمالية يحرقون موتاهم . ولكن من غير المحتمل أن يكون شعب بسيط قديم كالأمريكيين الأول قد عرف الحرق وسيلة للتخلص من الموتى .

ومن الثابت كذلك أن عملية الحرق تترك مخلفات متفحمة ، وقد اعتاد سكان أوربا فى العصر البرونزى حوالى ١٦٠٠ ق . م . أن يدفنوا هذه المخلفات فى أوعية ، وكذلك كان يفعل الرومان من بعد ، بل وحتى لو تركت بقايا الحرق بالعراء فإنه يمكن تمييز هتامة العظم البشرى المحروق ، ويستطيع الاركيولوجى الكفء أن يتعرف على أصغر هتامة ويقرر ما إذا كانت متخلفة عن إنسان . وليس هذا فحسب بل إن عالم الانثربولوجيا الطبيعية الواعى يستطيع بفحص سطح المفاصل فى قليل من العظام المحروقة أن ينبئك عن سن صاحبها ، وعن نوعه ، ذكراً أو أنثى ؛ ذلك لأن سطوح مفاصل معينة فى جسم الإنسان لا تتوقف عن النمو تماماً وتكون هذه المفاصل أدلة تنم عن عمر الإنسان ، ومن حجم العظام وشكلها وسمكها يستبين الأركيولوجى نوع صاحب العظام . ونكاد نجزم بأن الأمريكيين الأول لم يستخدموا الحرق وسيلة للتخلص من الموتى إذ لم يعثر إطلاقاً على هتامة من عظم بشرى فى أى جهة من الجهات التى كانوا ينزلون بها .

وقال البعض بأن الأمريكيين الاول كانت لهم جبانات خفية لم تعرف أماكنها بعد ، وقال آخرون بأنهم كانوا يضعون موتاهم فى كهوف أو فى شقوق فى صخور الجبال لا تزال مجهولة . ولكن الأكثر احتمالاً أنهم لم يفعلوا شيئاً على الإطلاق بموتاهم ، بل كانوا يتركونهم حيث أدركتهم المنية .

لقد كانت أمريكا منذ ثلاثين ألف سنة مكاناً خطراً ، حتى لنشك فى أن أحداً قد مات حتف أنفه ، ولعل الأكثر توقعاً أن الصيادين وربما نساءهم وأطفالهم كذلك كانت تنتهى حياتهم نهاية عنيفة وفى سن مبكر فيما يبدو . لقد كان الصياد الأمريكى الأول معرضا للموت فى كل لحظة وهو يحاول أن يصطاد الفيل الضخم بحربته الصغيرة ، وربما هلكت جماعات بأكملها من الأمريكيين القدامى وهم يجتازون حقول الجليد ، أو قتلتهم الوحوش المجفلة . ولو تمثلنا مخاطر ذلك العهد السحيق ، فإن من المذهل حقاً أن تقوى هذه الجماعات الجسورة على مغالبة الحياة . ولكنهم عاشوا

فعلاً وقد عثرنا على كثير من المخلفات التى صنعوها بأيديهم ، وتعرفنا على أماكن نزولهم حيث كانوا يتحلقون حول النار ليطهوا لحوم صيدهم .

وكان جزء كبير من الصعوبات التى اكتنفت البحث عن الهيكل العظمى للأمريكى القديم نتيجة للفشل الأول فى هذا الميدان، ففى بداية عهد أمريكا بعلم الآثار فى القرن التاسع عشر جد كثير من الناس فى البحث عن بقايا متحفرة للإنسان فى العالم الجديد ، فلما لم يظفروا بشىء منها فقد كثير من العلماء اهتمامهم بالموضوع أو أصبحوا من المتشائمين ، وتحقق أن الهياكل التى اكتشفت هى لهنود لا يرجع العهد بهم لأكثر من بضع مئات من السنين ، وكان أساس هذا التحقق إيمان العلماء بأن أى نوع قديم للإنسان لا بد وأن تكون له خصائص بدنية بدائية ، إذ كان المعتقد أن الإنسان الذى عاش فى أمريكا منذ ثلاثين ألف سنة لم يكن إلا إنساناً قرداً ناتىء الحواجب ، وتستند هذه الفكرة فى الواقع إلى الإستكشافات التى تمت فى العالم القديم وفى أوربا بصفة خاصة .

وفى أوربا وجدت بقايا الإنسان أحياناً مع مصنوعاته ، وعثر على سلسلة كاملة من العناصر البدائية التى لا تشبه الإنسان الحديث على الإطلاق، وأطلق على هذه العائلة ذات الحواجب الناتئة اسم « السلالة النياندرتالية » نسبة إلى إنسان نياندرتال الذى كان أشهر أفرادها . ولكن مع هذا فقد كان حجم مخ هذا الإنسان القديم فى معظم الحالات لا يختلف أبدا عن حجم مخ الإنسان الحديث ، وكانت ملامح رأسه غليظة ذات جبهة ضيقة ، وكان جسمه مكتنزاً منحنياً .

وكان طبيعياً أن يعتقد العلماء الأوربيون لفترة طويلة أن الإنسان الحديث قد انحدر من أسلاف ضيق الجباه ، وأن التحول قد تم عن طريق حلقة إنسانية لم تكن عظيمة البدائية فى مظهرها . ولكن أصبح من الجلى مع الكشوف الحديثة التى تمت فى أواخر الثلاثينات وفى أربعينات هذا القرن أن هذه الصورة البسيطة للتطور ليست صحيحة . فقد اكتشفت

حفريات بشرية من نوع مختلف كل الاختلاف فى عدة جهات ؛ فى سوانسكومب بانجلترا ، وفى فونتشيفاد بفرنسا ، وفى كانجيرا بافريقية الشرقية . وكانت هذه الحفريات لناس لاتختلف ملامحهم عن ملامح الإنسان المعاصر، ومع ذلك فقد عثر عليها بين أدوات ترجع إلى أوائل عصر الجليد .

وأصبح من الواضح أن شجرة العائلة البشرية تضم نوعين رئيسيين على الأقل من الأسلاف : أحدهما شبيه بالقرد بدائى فى مظهره ، والآخر لا يختلف كثيرا عن إنسان اليوم . ومن ثم فإن جمجمة لها المظهر الحديث فى أوربا أوغيرها من جهات العالم القديم لا يتحتم أن تكون حديثة الأصل، إذ ليس من شك فى أن إنسان نياندرتال قد عاصره إنسان يشبهنا فى الملامح إلى حد بعيد ، وقد أطلق على هذا الإنسان اسم الإنسان الحديث Neanthropic . وهناك فى أوربا أدلة كثيرة على أن هذا الإنسان الحديث قد قضى على معاصره إنسان نياندرتال ، فقد عثر علماء الآثار فى كاربينا بيوغوسلافيا على كهف يضم عظاماً مهشمة لنياندرتاليين قتلوا وأكلت لحومهم .

غير أن كثيراً من العلماء الأمريكيين ظلوا حتى الثلاثينات متمسكين بالفكرة القديمة التى تقول بأن ما ليس بدائياً فى مظهره ليس قديماً . وكان أكبر المقرين لهذه النظرية الدكتور أليس هردليشكا الذى كان لسنوات طويلة كبير أنثربولوچى المتحف القومى فى واشنطن . وقد اطلع دكتور هردليشكا كعميد لعلماء الانثربولوجيا الطبيعية على كل ما اكتشف من هياكل عظمية فى الأمريكتين ، وكان يعتقد تماماً أن أقدم العناصر الأمريكية لابد وأن تكون بدائية فى مظهرها العظمى ، وقد أحضرت كثير من الجماجم لدكتور هردليشكا ليبدى رأيه فيها فإذا لم تكن الجمجمة وحشية المظهر ضيقة الجبهة أعلن لفوره أنها جمجمة حديثة وليس لها قيمة علمية بصرف النظر عن الظروف التى أحاطت باكتشافها ، وأنها ليست قديمة مادامت غير بدائية فى مورفولوچيتها . لقد كان هردليشكا كما عبر عن ذلك أحد

علماء الآثار الممضوضين بقوله : « إن هردليشكا ليقف كهوراشيو[1] على الجسر ليحول دون دخول الإنسان الحديث إلى أمريكا » .

ولقد ظل هردليشكا يفعل هذا حتى وفاته سنة ١٩٤٣ ، ولم يحن ذلك الوقت حتى كان قد تم تنقيب عدد من أكبر مناطق إقامة إنسان فلسم وإنسان سانديا وذاعت شهرتها بين الناس ، ولم يكن عدم وجود هياكل بشرية في هذه الأماكن القديمة مما يثير دهشة الدكتور هردليشكا الذي كان يعتقد أنها على أي حال مضارب حديثة للهنود ؛ ولو فرضنا جدلاً أنه عثر على هياكل قديمة فما كان يتوقع إلا أن تكون لسلالة نياندرتالية . إن هردليشكا لم يؤمن أبداً بأن عهد الأمريكيين القدامى بالعالم الجديد يرجع إلى ثلاثين ألفاً من السنين . وعندما كانت تكتشف بعض الهياكل التي تبدو عليها سمة الإغراق في القدم لم يكن هردليشكا ليقتنع بها على الإطلاق .

وكان من المكتشفات التي ذاعت شهرتها في أنحاء البلاد ما سمي بإنسان كالاڤيراس وقد وجدت جمجمة كالاڤيراس التي أضفى عليها الشهرة شعر برت هارت سنة ١٨٨٦ . وكانت فيما يقال على عمق ١٣٠ قدماً من السطح في منجم بجهة بولدهل في كونتية كالاڤيراس بولاية كليفورنيا . وقد اكتشفها جيولوجي يدعى ج . هويتني وهي مطمورة في طبقات أرسبت منذ ملايين السنين يليه عصر الجليد . وكانت الجمجمة بلا ريب لإنسان من النوع المعروف باسم « كرومانيون » ، وهو اسم أطلق على خليط من أناس العصر الحديث في أوربا ارتبطوا بآخر عصور الجليد في فرنسا . ولو أن إنسان كالاڤيراس كان حقيقة كما يبدو فلا بد وأن الجنس البشري قد عاش في أمريكا قبل أن

---

(١) هوراشيو بطل روماني أسطوري وقف هو واثنان من زملائه أمام جيش اتروسكا بقيادة لارس بورسينا ، حتى تمكن الرومان من قطع الجسر السبليسي لحماية المدينة (المعرب)

يصل إلى العالم القديم ، وحتى هردليشكا نفسه قد خدعته هذه الجمجمة إذ كان لها بعض الخصائص البدائية .

فحص الدكتور هردليشكا جمجمة كالاڤيراس وظل يكتب عنها حتى سنة ١٩٠٧ ، ثم أظهر التحقيق العلمي الدقيق الذي أجرى عليها أن إنسان كالاڤيراس ليس سوى أكذوبة كبرى ، فقد انتزع الجيولوجي الجمجمة التي كان هو أول من اكتشفها من جانب منجم بنية طيبة ، ولكن الظاهر أن لفيفاً من أصدقائه ظنوا أنها فكاهة كبرى أن يضعوا الجمجمة الحفرية في تلك الطبقات القديمة ، وهي فعلاً كذلك . وكانت الفكاهة ناجحة لدرجة أن أحداً من هؤلاء الأصدقاء لم يجرؤ على الاعتراف بالتزوير بعد أن استهلك العلماء كميات ضخمة من الورق في مناقشة الموضوع وأعطيت الجمجمة في النهاية لجامعه هارڤارد .

لم تكن جمجمة كالاڤيراس السخرية الوحيده التي اقترنت باسم الإنسان القديم ، بل لقد صدم الدوائر الأركيولوجية في سنة ١٩٥٣ أن تعلم بالبرهان القاطع أن جمجمة إنسان بلتدون (انجلترا) زيف أحكم تدبيره ، فقد أظهرت الفحوص الكيميائية أن الجمجمة والفك قد أضيفت عليهما صفات التعتق صناعياً ؛ ثم كشفت فحوص أخرى عن حداثة العظام . لقد كان هناك عدد من الألاعيب المماثلة أقل أهمية في الأمريكيتين ، ولكن لحسن الحظ كشف معظمها علماء الآثار اليقظون قبل أن تصل أخبارها إلى الجرائد أو تذيع على صفحات الكتب ، ولا بد أن نتوقع مثل هذه الأمور في لغز بالغ الأهمية كلغز الأمريكي الأول .

وهنا لم نعد نجادل — كما فعل هردليشكا — في أن سكان أمريكا لا بد وأنهم كانوا بدائيين في ملامحهم ، فإن المسألة تظل مشوشة كما هي إذ لا ندري ما يمكن أن يكون . هل كان الأمريكي الأول مغولي السلالة ؟ أم كان يختلف عن الهنود الأمريكيين الذين عرفتهم القارة فيما بعد ؟ أو ربما كان الأمريكي

الأول فعلاً فرعاً من القبيلة النياندرتالية وفد فى الأزمنة القديمة عن طريق سيبيريا فكان أول من هاجر إلى ألاسكا .

وكان هناك كثير من المرشحين للحصول على شرف الأولوية . ولكن معظمهم نحى لسبب أو آخر . استبعدت هياكل لاجواسانتا (فى جنوب البرازيل) بعد أن أثبتت أعمال التنقيب الأخيرة أنها حديثة للغاية . واستبعد كذلك هيكل عثر عليه تحت نيو أورليانز وآخر اكتشف بالقرب من ناتشيز بولاية المسيسبى لعدم وجود ما يكفى من الأدلة لتحديد عمره .

وكان من أكثر المكتشفات تخييباً للآمال ، تلك التى عثر عليها فى نيومكسيكو ، غير بعيد من كهف سانديا وظن فيها أنها بقايا الأمريكى الأول . وقد عثر فى سنة ١٩٢٦ على جمجمة بشرية فى كهف بقمة «بيشوبس كاب» فى جنوب غرب نيومكسيكو ، عثر عليها باليونتلوجيون مهتمون بدراسة عظام الحيوانات المنقرضة . وكان الكهف مليئاً بطبقات من عظام حيوانات العصر الجليدى ، وكانت متعددة الأنواع إلى حد بعيد ، وعثر بين هذه العظام على جمجمة إنسان ؛ ولكن الباليونتلوجيين أذهلتهم كثرة عظام الحيوانات ففاتهم أن يعينوا بالدقة المكان أو الوسط الذى وجدت فيه الجمجمة ، وقد فقدت الجمجمة نفسها عند شحنها إلى كاليفورنيا ، وقد حاول البروفيسور كيرك براين وهو نفس أركيولوجى جامعة هارفارد الذى نقب فى كهف سانديا ، حاول فى سنة ١٩٢٩ أن يقيّم مخلفات بيشوبس كاب بعد أن زار منطقة الحفائر ولكن استنتاجاته لسوء الحظ ليست حاسمة .

ولاحت بارقة أمل عندما اكتشف فى سنة ١٩٣٥ هيكل عظمى فى منطقة لا تبعد بأكثر من ١٤ ميلاً عن منطقة فلصم الأصلية ، بأخدود ديدهورس فى ولاية نيومكسيكو . وكان هذا الهيكل مطموراً على عمق كبير فى جانب الأخدود وفى وضع يدل على العراقة فى القدم ، وكان رأى الدكتور برج و . فجنز ـ وهو الذى كتب عن مكتشفات فلصم الأصلية ـ

فى أول الأمر هو أنه لنفس الإنسان الذى كان يصطاد بيسون عصر الجليد فى جهات فلصم ، وأطلق عليه اسم هومو نوفوسمندس Homo Novusmunds أى « إنسان الدنيا الجديدة » ولكن توالى التنقيب أظهر لسوء الحظ أن هذا الكائن وإن كان من أناسى الدنيا الجديدة فعلاً إلا أنه ليس عتيقاً ، ويلوح أن الهيكل هو هيكل هندى حديث نسبياً دفن فى شقوق الصخر على جانب الأخدود ، ولا يمكن بأى حال أن يكون هو الأمريكى الأول .

وعثر على هيكل عقد عليه أكبر الرجاء فى أن يفوز بشرف الأولوية فى فيروبيتش Vero Beach بولاية فلوريدا غير بعيد من ميامى . وكان الدكتور ا . هـ . سيلاردس E.H. Sellards من رجال المتحف التذكارى فى أوستن بولاية فلوريدا وأكثر الباليونتلوجيين اهتماماً بالموضوع هو الذى عثر عليه بنفسه حينما كان ينقب فى سنة ١٩١٦ فى بعض الأراضى الكدرة التى تقع خلف الشاطىء مباشرة والتى سبق أن عثر فيها على عدد من هياكل الماموث والماستدون ، ولما كان الدكتور سيلاردس باليونتولوجياً وعالماً فقد كانت أعمال التنقيب تجرى بعناية بالغة حتى يتفادى أى خطأ يمكن أن يقع ، ولم يفقد أى شىء من البقايا البشرية ، وسجلت الأوضاع التى كانت فيها عند كشفها بكل عناية . وقد وجد الدكتور سيلاردس وأعوانه أنه يمكن التمييز بين ثلاث طبقات فى الأرض التى حفروها فى فيروبيتش ، تحتوى رمال أعلاها وكدرها على فخار وأدوات صدفية لهنود محدثين ، وتحتها طبقة أخرى من الرمل تبعثرت فيها عظام الثدييات المنقرضة ومعها بعض العظام البشرية ، ثم الثالثة وتتكون من رواسب بحرية ولم يعثر فيها المنقبون على أية عظام حيوانية أو بشرية .

وكان علماء الآثار على يقين من أن الإنسان قد عاش على شاطىء فيرو فى وقت ما بعد انحسار مياه المحيط التى كانت تغمره ، وقد حدث هذا فى العصر الجليدى الأخير حينما انحصرت كميات هائلة من بخار الماء على

وحدد زمن هذه الحركة وجود اليابس فى شكل جليد وهبط منسوب المحيط ، هيا كل الماستدون والماموث وكلاهما من الفيلة التى عاشت فى عصر الجليد . ويبدو أن العظام البشرية التى وجدت مع هذه الهيا كل فى الطبقة عينها إنما ترجع إلى نفس الزمن واعتقد دكتور سيلادوس أن هذه العظام البشرية هى لإنسان العصر الجليدى ، ومن ثم فهى يقيناً عظام الأمريكى الأول ، ولم يثنه عن اعتقاده أن تكون العظام غير بدائية فى مظهرها على الإطلاق وأن يكون إنسان « فيرو » كما أسماه حديثاً للغاية فى ملامحه .

ولم تمض اعوام حتى كان اثنان من علماء الآثار ، المتحمسين هما جيمس جيدلى James Gidley وفريدريك لوميس Fredrich Loomis يعملان مرة أخرى فى فيروبيتش ، وراحا ينقبان على مقربة من ملبورن بولاية فلوريدا وفى رواسب تشبه إلى حد كبير الرواسب التى نقب فيها سيلاردس وعلى بعد ثلاثين ميلا منها . ووصلا إلى نفس النتيجة : طبقات ثلاث ؛ عثر فى الوسطى منها على أجزاء من هيا كل بشرية وعلى عظام حيوانات من العصر الجليدى منقرضة ، وآمنا كما آمن سيلاردس من قبل بمعاصرة الإنسان لهذه الحيوانات ، ولكن كان من رأيهما أن التركيب كله يرجع إلى عصر أحدث بعض الشىء ، إذ ربما تكون حيوانات عصر الجليد نفسها قد ظلت على قيد الحياة فى مناخ فلوريدا زمناً طويلاً بعد انتهاء عصر الجليد فى المناطق الواقعة فى الشمال .

وظل بعض علماء الآثار لعدة سنوات يعتقدون أنهم عثروا فعلاً على الأمريكى الأول ، ووضعت لافتات على جانبى الطريق بالقرب من فيرو وملبورن تعلن للسياح الذين يمرون بالمنطقة أن فى استطاعتهم أن يلقوا نظرة على بقية حقيقية من الأمريكى الأول لقاء سنتات معدودات . ومع الإعلان صورة لكائن أشبه بالقرد الضخم ، ولعلهم عمدوا إلى هذا المسخ ليتوفر فى الإعلان عنصر الإثارة والتشويق .

ولكن بعض علماء الآثار لم يكونوا على يقين من أن مكتشفات فيرو ، وملبورن هى حقيقة عظام لإنسان عصر الجليد . فاعلن الدكتور ارفنج روز Irving Rouse — ويعمل الآن فى جامعة ييل — فى سنة ١٩٥١ بعد دراسة مستفيضة أنه لا يظن أن العظام البشرية قد دفنت حيث هى فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه عظام الحيوانات المنقرضة ، ومن رأيه أن هنوداً أحدث عهداً قد شوشوا الوضع باتخاذهم المنطقة مدافن لموتاهم . فقد كانت الأدوات الحجرية والعظمية التى وجدت مع العظام البشرية هى نفس الأدوات التى كان يستعملها كثيرون ممن نعرفهم بأهل فلوريدا الأقدمين ، ولا يستبعد أبداً أن تكون هياكل فلوريدا قد أنزلها إلى حيث هى من كانوا يعيشون على المنطقة السطحية . ولسوء الحظ لم يقطع التحليل الكيميائى للمحتوى المعدنى فى عظام الإنسان والحيوان بأى شىء . ولم يظهر التحليل الكيميائى للمحتوى الفلورينى الذى يمكن أن يعين كمية الفلور التى امتصتها العظام من التربة المحيطة بصورة قاطعة ما إذا كانت العظام البشرية لها نفس عمر عظام حيوانات عصر الجليد .

وشك معظم علماء الآثار فى الأمر بعد أن درسوا فى دقة كل أدلة فيرو وملبورن . شك الدكتور هردليشكا بالطبع حينما فحص الجماجم فلم يجد لها الملامح البدائية التى هى فى نظره أول دليل على التعتق ، ولم يتمسك بعض الباحثين بضرورة وجود الجبهة الضيقة ولكنهم ظلوا يشيرون فى تحفظ بالغ إلى جماجم فيرو وملبورن المهشمة ويقولون : « لاريب فى أن أمريكياً ما قد عاش فى عصر الجليد ، وكان من المتعذر إجراء اختبارات كربون ١٤ على العظام نفسها إذا لم يسبق لها أن احترقت . وما بقى هناك شك فلن نستطيع لسوء الحظ أن نحل هذا الإنسان محل الصدارة بين الأمريكيين القدماء .

وثمة هيكل آخر يمكن أن يكون الأمريكى الأول عثر عليه فى منيسوتا وهو هيكل امرأة يشير إليها علماء الآثار عادة باسم « مينى منيسوتا » ،

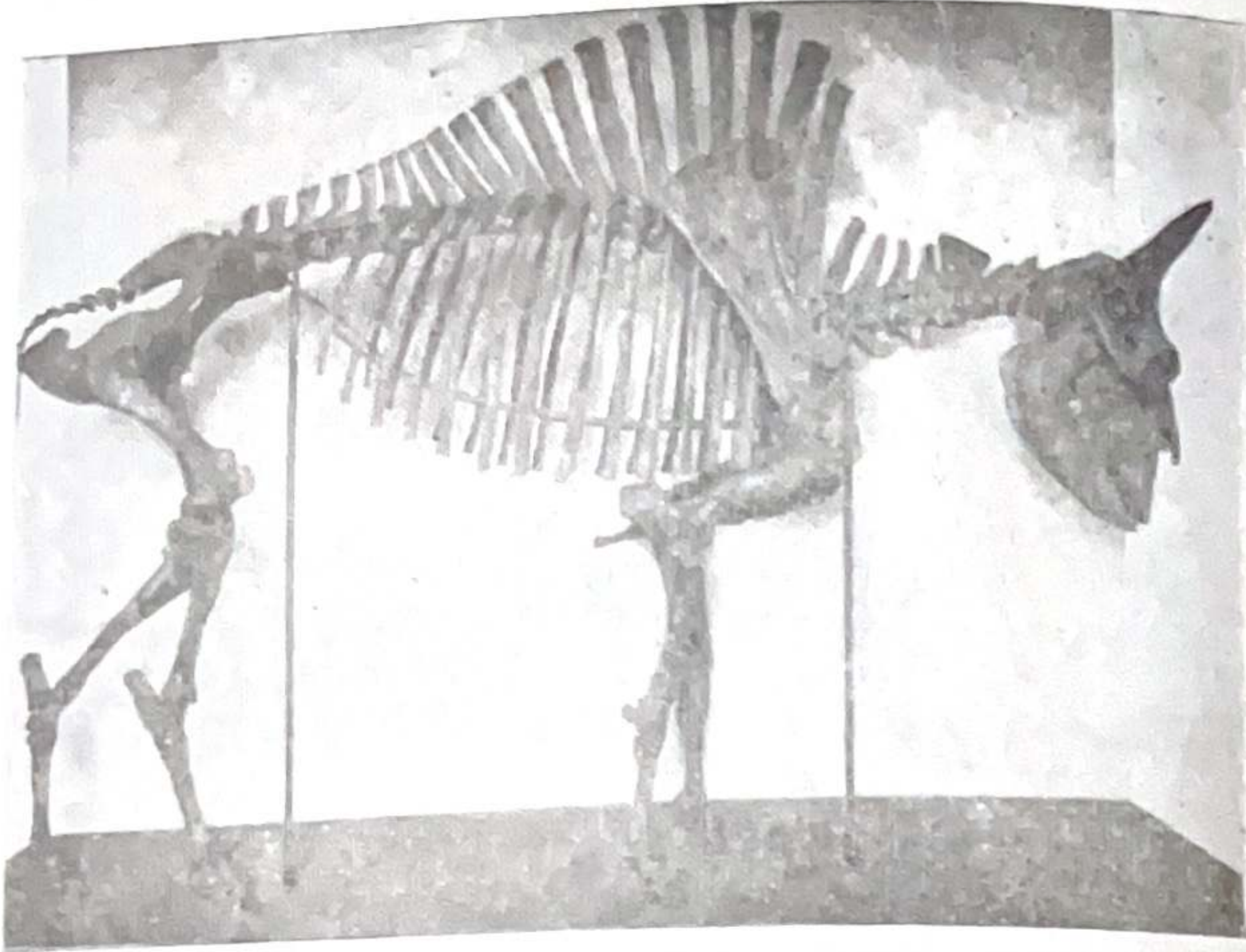
وقد وجده بعض عمال الطرق وهو يعمل فى الطريق الرئيسى إلى الشمال من مندفعات بليكان Pelican فى منيسوتا . كان ذلك فى سنة ١٩٣١ وكان العمال يشقون الطريق فى رصيف من الحصى فكشفوا عن هيكل عظمى ، يكاد يكون كاملاً على بعد عشرة أقدام من السطح، ووجدوا معه لقيتين ثمينتين : إحداهما من الصدف مستديرة ولها ثقبان لا بد وأنها كانت تعلق منها حول عنق مينى منيسوتا كحلية ،والأخرى خنجر طوله نحو ٩ بوصات مصنوع من منطاح من قرن وعل .

وغر العمال أن وجدوا الهيكل على هذا البعد من السطح فحملوه إلى الدكتور ا . ا . جنكس A. E. Jenks من أساتذة جامعة منيسوتا . وأدرك الدكتور جنكس لفوره أن هذا الهيكل قد يكون هيكل الأمريكى الأول الذى يبحث عنه علماء الآثار .

وعاود الدكتور جنكس الحفر فى الطمى وطبقات الحصى التى كشف العمال فيها عن الهيكل ، فعثر على هنامة من العظام تدل على أن الجسم كان مضطجعاً فعلاً فى ذلك المكان ، بيد أن هذا الطمى والحصى قد أرسب فى قعر بحيرة جليدية ، كان الجيولوجيون قد سموها بحيرة بليكان، وهى لا وجود لها الآن. ولكن لا جدال فى أن مسطحاً مائياً كان يشغل المنطقة فى أواخر عصر جليد وسكونسن ، فإذا كانت مينى منيسوتا قد دفنت فى الطمى الجليدى فلا مجال للشك فى أنها كانت هناك فى عصر الجليد وقد غرقت أو ألقى بها فى مياه البحيرة يوم أن كان للبحيرة وجود . وليست طبقات الطمى والحصى بأقل دلالة على تاريخ هذا الهيكل من عظام الماموث أو غيره من الحيوانات لو أنها وجدت معه .

وثبت أن مينى منيسوتا فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها ، ونشر عنها الأستاذ جنكس كتاباً كاملاً أشار فيه إلى أنها لم تكن على شىء من الجمال . لقد كانت أسنانها كبيرة للغاية وكان وجهها بارزاً لدرجة أنها لو عاشت مع القرود الدنيا لما شعرت بأى غربة . وحتى الدكتور هردليشكا التزمت

بيان بصور الكتاب



شكل رقم (١)

هيكل مركب لبيسون تيلورى ، البيسون الذى كان يصطاده إنسان فلصم



شكل رقم (٢)

مدببة فلصمية من لندنمير بولاية كلورادو



شكل رقم (٣)

مدببة من الصوان فى مكانها (عند طرف المسطرين) بكهف سانديا بالقرب من ألبوكيرك بولاية نيومكسيكو



شكل رقم (٤)

مدية فى جسم ذئب كاسر . فى بلاكووتر درو بولاية نيومكسيكو



شكل رقم (٥)

أثريون ينقبون عن عظام الماموث بالقرب من دنت بولاية كلورادو



شكل رقم (٦)

جمجمة لمرأة ميدلاند ، ميدلاند بولاية تكساس



شكل رقم (٧)

منظر عام لرابية كاهوكيا ، سنت لويس الشرقية بولاية الينوى



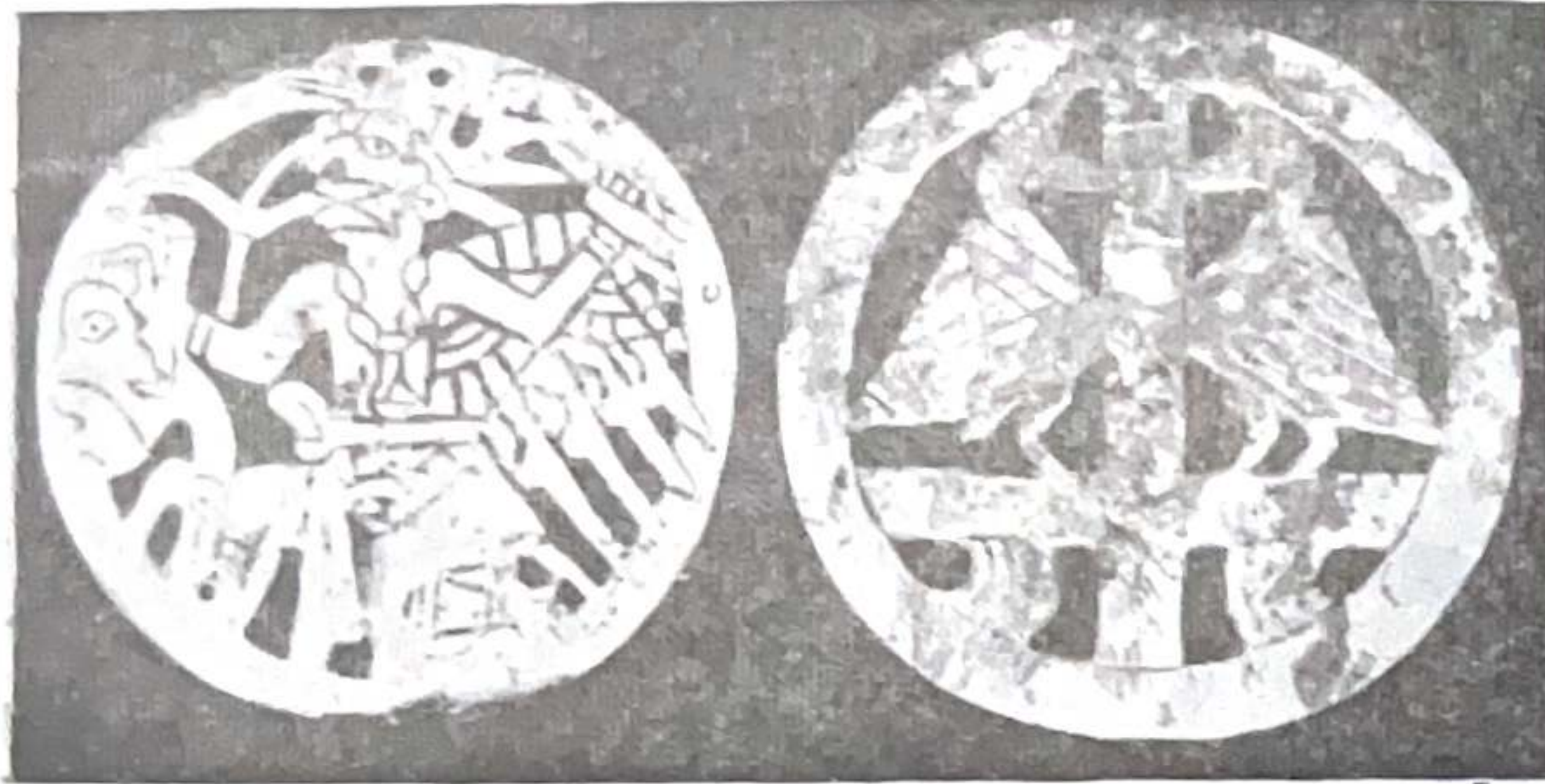
شكل رقم (٨)

لآلىء مثقوبة لتنظم فى عقود ، من المذبح المركزى لرابية ماديسونفيل



شكل رقم (٩)

رسم هولمز لرابية الحية ، فى أوهايو



شكل رقم (١٠)

قلادتان من الصدف تعلقان فى العنق للزينة ، ويظهر فى القلادة التى الى اليسار محارب يمسك باحدى يديه رأسا مقطوعا وبالأخرى سلاحا من أسلحة الإحتفالات الدينية . أما التى الى اليمين فتبين وحدة زخرفية مألوفة فى حضارة أتواه . من مجموعة أتواه ولاية جورجيا



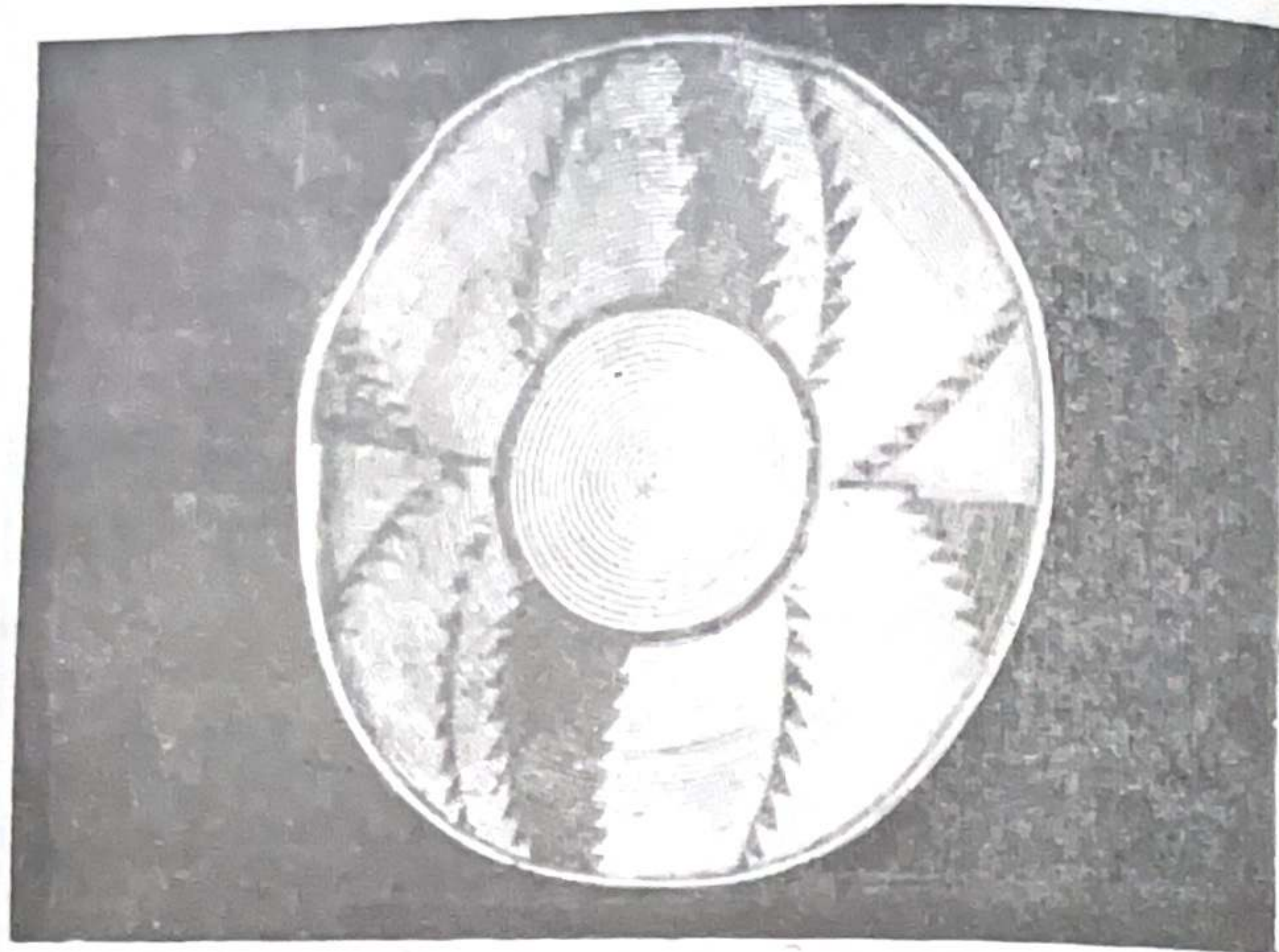
شكل رقم (١١)

صورة مقدسة منحوته . من مجموعة اتواه ، كارترفيل بولاية جورجيا



شكل رقم (١٢)

قال ماء نخارية من المدافن . من رابية المعبد ، اتواه بولاية جورجيا



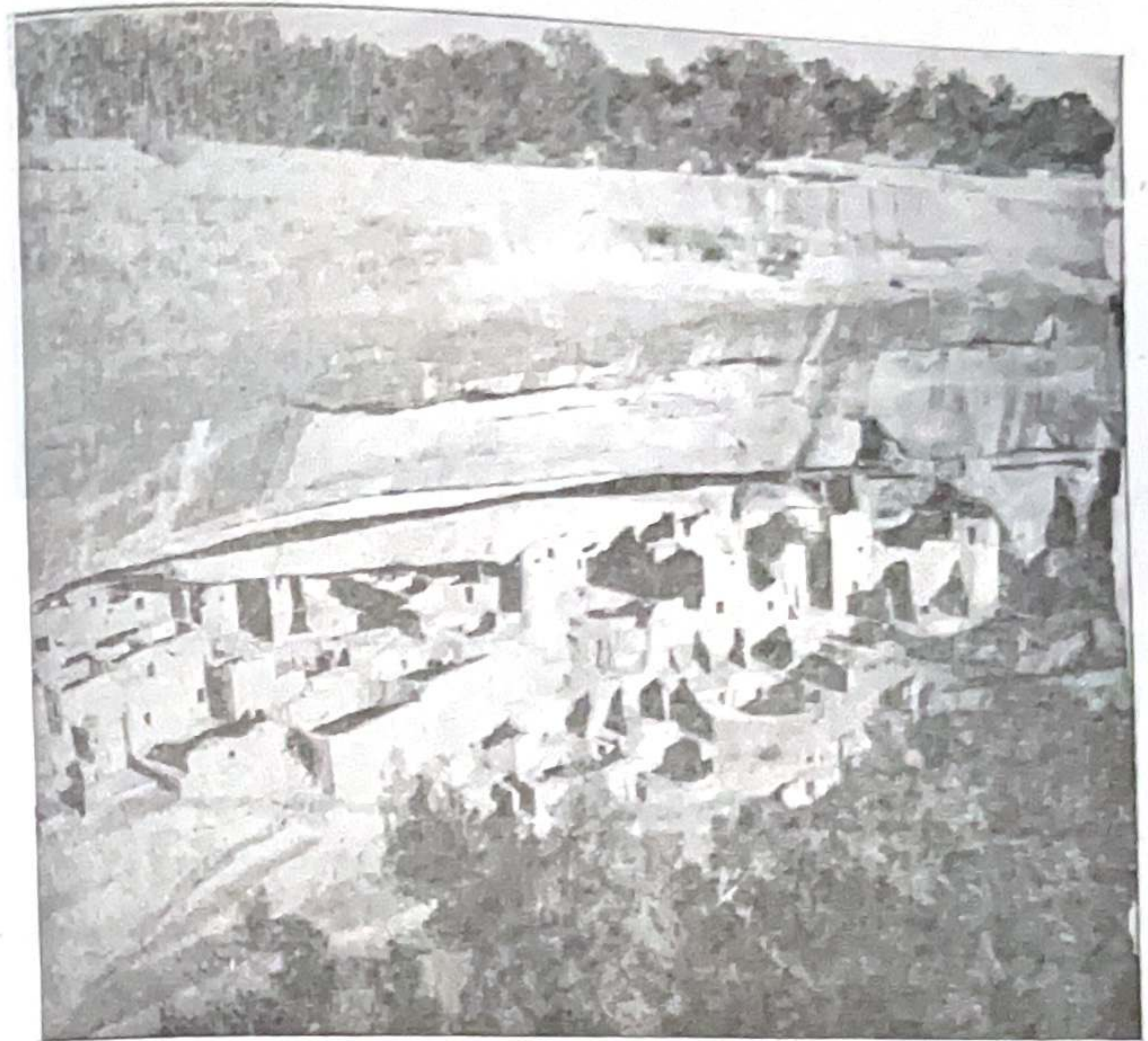
شكل رقم (١٣)

سفط دقيق النسيج طول قطره قدم وخمس بوصات ونصف البوصة، عثرعليه فى كهف جراند جالش ، بيوتاه



شكل رقم (١٤)

غرارة من عصر ما قبل التاريخ، مصنوعة من الياف اليوكا ، من أطلال الجروف بجراندجالش فى ولاية يوتاه



شكل رقم (١٥)

ميزافردى بولاية كلورادو



شكل رقم (١٦)

البيت الأبيض ، مساكن جرفية من عصر ما قبل التاريخ ، فى خانق دي شيللى بولاية أريزونا



شكل رقم (١٧)
عدد من لحود القرى بكل منها أوعية للطعام ، فى تل للنفاية تحت الخرائب بالقرب خيميز فى نيومكسيكو



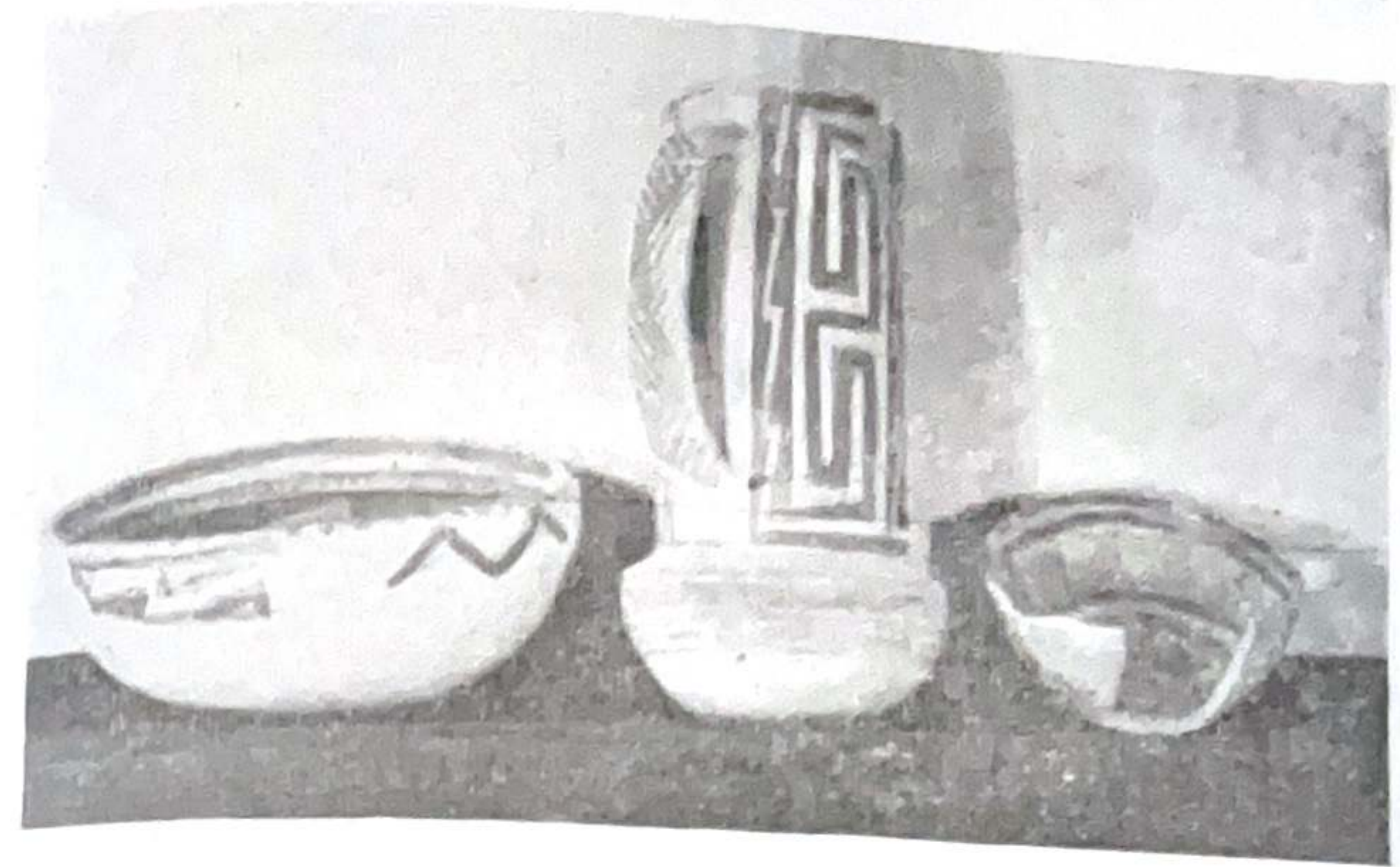
شكل رقم (١٨)
لحد من لحود القرى وقد وضعت مع الميت أوعية الطعام . قرية كوادوا
(يطلق عليها الآن اسم أثر كورونادو) .

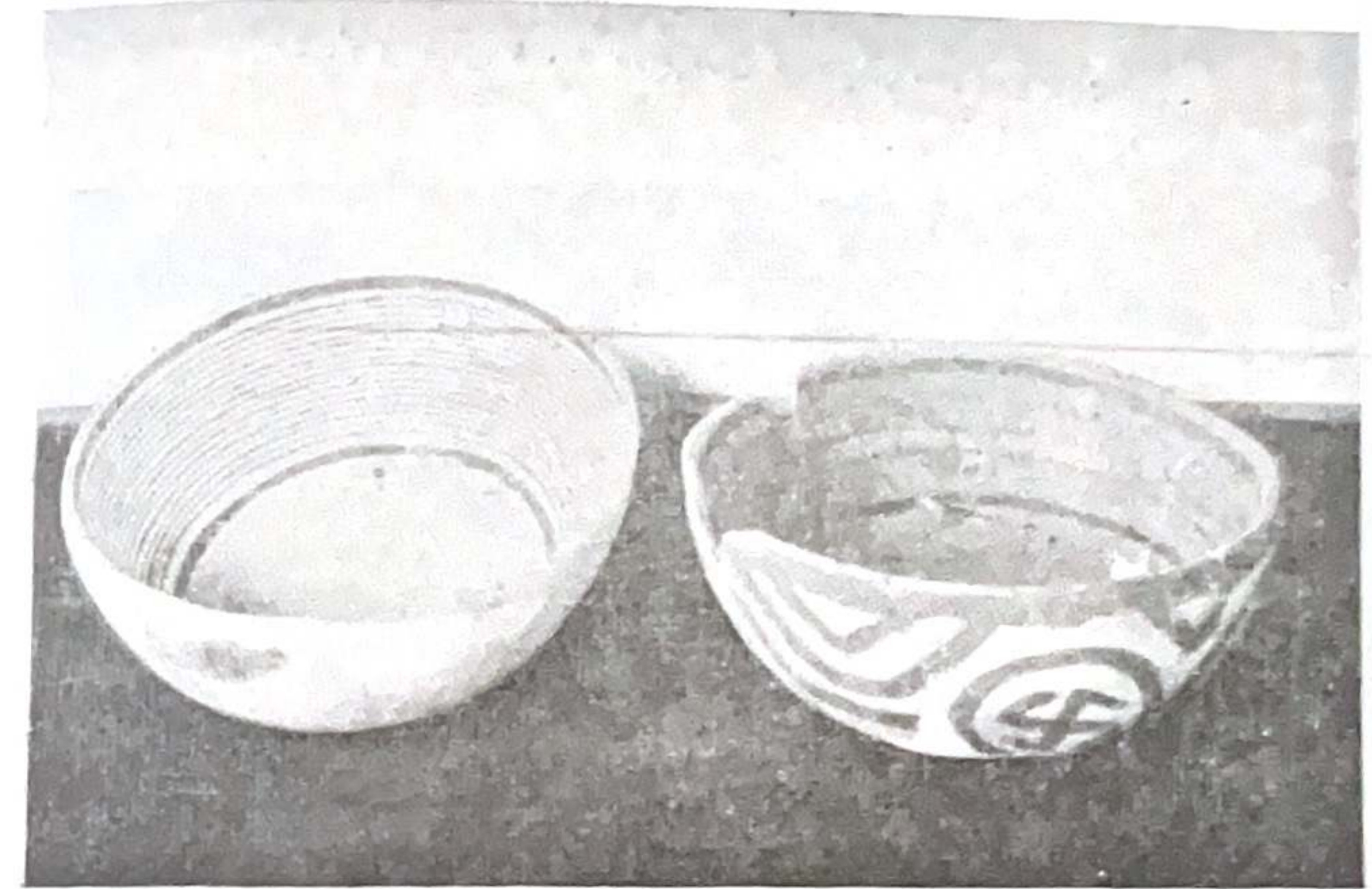


شكل رقم (١٩)
حفائر فى المبانى ١ ، ٣ بقرية سان كرستوبال ، فى نيومكسيكو



شكل رقم (٢٠)
التنقيب فى قرية صغيرة من عصر القرى ٢ ، والمعبد فى المقدمة ،
خانق شاكو بنيومكسيكو





شكل رقم (٢١)

فخار من خانق شاكو ، نيومكسيكو



شكل رقم (٢٢)

رسوم سوداء على فخار أبيض (غليون من الفخار فى الوسط) من خانق شاكو ، نيومكسيكو



شكل رقم (٢٣)

وعاء من الفخار على شكل حيوان . من خانق شاكو ، نيومكسيكو



شكل رقم (٢٤)

قرية بونيتو بخانق شاكو ؛ نيومكسيكو



شكل رقم (٢٥)

فخار . قرية بونيتو ، نيومكسيكو



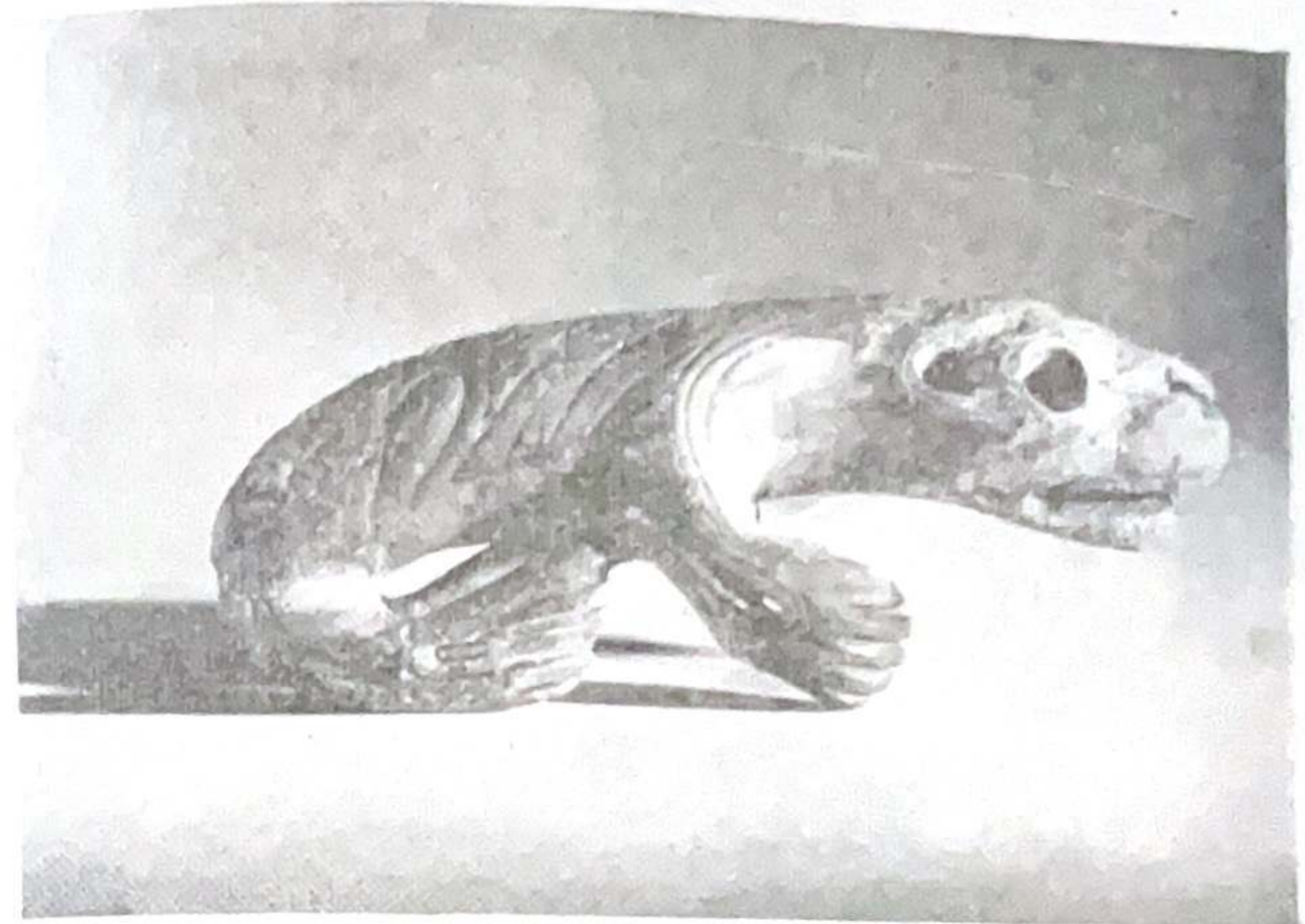
شكل رقم (٢٦)

مصباح حجري . أماكناك «
الجزر الألوشية .



شكل رقم (٢٧)

رواسب الكدر في ألسكا . الخشب والعظام مجمدة في الكتلة المختلطة . بالقرب من خليج كربل بالسكا



شكل رقم (٢٨)

عجل بحر من العاج . من مدينة أيبوناك الطمورة ، فى شمال غرب ألسكا

فى أحكامه قد وجد فى ملامحها ما يدفع إلى الاغتباط .

ولم يتخل الدكتور هردليشكا عن دورهوراشيوفنادى بأن مينى منيسوتا ليست أبداً امرأة من عصر الجليد ، بل هى ولو أنها قبيحة للغاية فتاة من هنود السيوكس المحدثين . وذكر أن الفتاة لو كانت قد غرقت فى بحيرة بليستوسينية لتفسخت عظامها وتبعثرت بفعل الأمواج . وأيده فى رأيه عالم آخر هو دكتور ارنست انتفز Ernest Antevs ولكن اعتراضه يقوم على أساس مختلف ، إذ يرى أن هنود السيوكس قد دفنوا الفتاة فى وقت حديث جداً فى اخدود صغير أو فى شق فى الحصى الجليدى وهذا هو السبب فى وجود الهيكل على العمق الذى وجد فيه .

ويرد الدكتور جنكس على هذه الإعتراضات فيذكر أن فتاة منيسوتا كانت مدفونة فى طين طبق ، وهذا الطين إنما تكون فى قعر بحيرة بليكان بعد التقدم الأخير للجليد وسكونسن بزمن قصير . ولم تكن طبقات الطين ولا طبقات الحصى التى تعلوها قد أصابها أى اضطراب . فكيف استطاع هنود السيوكس أن يدفنوا إحدى نسائهم على هذا العمق ؟ هذا فضلاً عن أن المكان لا يبدو شبيهاً بمدافن السيوكس . ويرد دكتور انتفز على ذلك بأنه لا توجد علامات تؤكد أن الهيكل يرجع إلى عصر الجليد ، بل لقد وجد قصة محفوظة فى سجلات هنود السيوكس الذين يعيشون غير بعيد من المنطقة عن فتاة قبيحة الوجه فى الخامسة عشرة من عمرها قتلت فى حفلة شراب صاخبة وتم دفنها سراً فى الليل وربما كانت هى نفس الفتاة .

هكذا احتدم الجدال وأصر كثير من علماء الآثار على أن مينى منيسوتا قد وجدت ، وقال الآخرون بنفس الإصرار إنها لم توجد . ويعتقد الأستاذ جنكس مكتشف مينى جازماً أنها كانت امرأة من عصر الجليد .

وبرغم التشويش الذى سبق أن أحدثه اكتشاف التزييف فى جمجمة كلافيراس طلعت ولاية كليفورنيا بمرشحين اثنين لشرف الأولوية ، أطلق على أحدهما اسم إنسان ستانفورد وكان قد اكتشف جمجمته سنة ١٩٢٢ أحد طلاب جامعة ستانفورد على عمق ٢٠ قدماً من السطح فى أحد جانبى جون سان فرانسيسكو عقب فيضان دافق ، عرى قاع الجون فكشف عن الجمجمة ، وكانت الجمجمة مطمورة فى حصى شديد الإندماج ، وكان وضعها يشعر بأنها عريقة فى القدم ، وقد أعلن أحد الجيولوجيين الذين عملوا مع هردليشكا فى حذر ، أن جمجمة ستانفورد ترجع إلى ما يقرب من أربعة آلاف سنة .

وقد آمن العلماء الذين نظروا إلى جمجمة ستانفورد فيما بعد فى ضوء المكتشفات الأحدث بقدمها ، وذهب بعضهم إلى أن عمرها قد يزيد على الأربعة آلاف سنة ، بل وربما كانت لأحد الأمريكيين الأول . لقد وجد تركيبها لا يختلف عن تركيب جماجم هنود كليفورنيا المحدثين . ولكن لم يكن هناك مايحول دون اعتبارها عريقة فى القدم . ولسوء الحظ لم تكن معها أدوات أو مدببات يمكن أن نؤرخها بها .

أما المرشح الآخر فكان « إنسان لوس انجليس » ، وقد عثر على اثنين من هياكله . عثر على أحدهما سنة ١٩١٤ فى آبار زفت لابرى La Brea تجاه ولشير بوليفارد Wilshire Boulevard مباشرة . وتتكون هذه الآبار الصمغية الخداعة بسبب تبخر الغاز الطبيعى ، ويظهر أنها ترجع لآلاف السنين . وقد عثر المنقبون على هيكل إنسان لوس انجليس مغموراً فى تلك المادة اللزجة السوداء ، وكانت الأدوات التى وجدت معه من طراز العصور الكليفورنية المتأخرة ، ويقول المتشككون إن رجلاً يقع فى الزفت اللزج لابد وأن يغوص فى بضعة سنين إلى مستوى يحتوى على عظام أكثر قدماً .

أما إنسان لوس انجليس الآخر فقد عثر عليه فى سنة ١٩٣٦ عمال مصلحة الأشغال وهم يحفرون مصرفاً يحازى نهر لوس انجليس . وجدوا جمجمة على عمق ١٣ قدماً من السطح ومعها أجزاء من عظام أخرى ، وواصلوا حفرهم فى جانب المصرف فكشفوا عن أحسن جزء من هيكل بشرى ، وأسرع العلماء من جامعة كليفورنيا الجنوبية إلى المسرح ، ليقوموا هم أنفسهم ببعض أعمال التنقيب . وعثر على زوج من الأسنان الضخمة لفيل من العصر الجليدى ، غير بعيد من مكان الكشف الأول . وقال كثير من العلماء بأن إنسان لوس انجليس هو الأمريكى الأول ، ولكن ظل هناك ظِلٌ للشك فى أن يكون هذا الهيكل قد أنزل من السطح إلى حيث هو فى زمن متأخر ، وعلى أى حال فقد كانت الجمجمة مهشمة ولا يمكن أن نستخلص منها الشىء الكثير .

وقدمت ولاية مكسيكو كذلك جمجمة على أنها جمجمة أول إنسان عاش فى العالم الجديد ، ويطلق على هذا الإنسان اسم « إنسان تيبكسبان » Tepexpan وكان قد عثر عليه فى سنة ١٩٤٩ فى وادى مكسيكو بالقرب من قرية تيبكسبان حيث يوجد المستشفى الاتحادى للأمراض العقلية ، وتميز إنسان تيبكسبان بأن كشفه قد تم على يد علماء وبطريقة علمية سليمة .

واعتقد الدكتور هلمت دى ترا Hellmut de Terra الذى عمل فى مستويات العصر الحجرى القديم فى الدنيا القديمة وفى الدنيا الجديدة ، أن معظم المكتشفات المعزوة للأمريكى الأول عديمة القيمة لأن الذين اكتشفوها كانوا عمالاً أو أشخاصاً غير ذوى خبرة ، فقضوا على معظم الأدلة المعززة قبل أن يظهر الأركيولوجيون على المسرح . وبالتالى اصطحب الدكتور دى تيرا وزميله الجيوفيزيائى دكتور هانز لوند برج Hans Lundberg بعض كشافى المناجم وذهب ينقب عن الإنسان القديم ، وقرر أن يبحث فى وادى مكسيكو وبخاصة بالقرب من قرية

تيبكسبان . وكان العمال الذين يشتغلون بمد أنابيب المياه قد صادفوا هنا بالفعل هيا كل الماموث غير بعيد من سطح الأرض ، ومن ثم فقد أمل الباحثان ومعهم كشافو المناجم فى أن يعثروا على إنسان العصر الجليدى نفسه .

وبعد عدة أسابيع انقضت والكشافون يبحثون السطح بآلاتهم الكهربائية ، حدد الباحثان أربع نقط للحفر دل عليها طنين الآلات ، وعلمت النقط بعصى ، ثم بدأ الحفر ، فلم يكن سوى واحدة منها هى التى تشتمل على هيكل بشرى .

كان الهيكل منكفئاً على وجهه والركبتان منثنيتان حتى لاصقتا البطن ، فبدا كما لو كان هيكل إنسان قتل فى مستنقع قديم وانكفأ على وجهه فى الطين ، وكانت بعض عظام الظهر مفقودة كأنما قضمتها الحيوانات أو ربما نخرتها الرخم يوم أن كانت بالعراء .

وسار البشير بإنسان تيبكسبان على أنه أول إنسان من العصر الجليدى لا ترقى إليه الشبهات ، ودلت الدراسة على أن الجمجمة هى لإنسان فى حوالى الستين من عمره يبلغ طوله خمسة أقدام وسبع بوصات ، ولم يكن للجمجمة ملامح بدائية مما يطرب لها دكتور هردليشكا ، ولكن معظم علماء الآثار قد استقر رأيهم على أنه ليس من اللازم أن يكون الأمريكى الأول بدائياً على الإطلاق .

وأضيف إلى ذلك مكتشفات أخرى فى جهة سانتا إيزابل استيبان التى تقع غير بعيد ، وهى قذائف مدببة وأدوات من الشظايا وجدت مع عظام الماموث . وأكد اكتشاف أدوات الإنسان القديم مع ثدييات عصر الجليد أن الجنس البشرى قد شهد نهاية دور جليد وسكونسن فى وادى مكسيكو .

ولكن وا أسفاه على إنسان تيبكسبان وتاج التحقق الذى ألبسوه ! لقد أعاد فحص المكان اثنان من علماء الآثار فقر رأيهم على أن هيكله

قد يكون أنزل إلى قاع محفور . إن دى ترا ورفاقه قد غلبهم الحماس فى تنقيبهم الأصلى فلم يحيطوا الحفر بالعناية الكافية ، وربما وجد الدليل على أن الهنود المحدثين قد حفروا هوة وربما لا يوجد ؛ ولكن ظلالاً خفيفة للشك تكفى لتغير الأوضاع . ولم نعد على يقين مما إذا كان إنسان تيبكسبان هو أمريكى العصر الجليدى أم هو هندى مكسيكى من عصر حديث نسبياً .

وثمة جمجمة أخرى من أمريكا الجنوبية رشحت لشرف الأولوية وقد عثر عليها فى سنة ١٩٢٥ جماعة من الباليونتلوجيين كانوا ينقبون عن عظام الثدييات المنقرضة فى بيرو فى مكان يسمى بونن Punin ولكن ظلاً من الشك امتد إلى إنسان بونن كما امتد لزملاء أخر ، فلم يعد الدليل على عتقه مما يسمو فوق الجدال .

ولم يبق ممن افترض أنهم يمثلون الأمريكى الأول إلا إنسان واحد يعترف الجميع بقدمه ، وحتى هذا الإنسان لا يروى كل الغلة ، إذ لسنا على يقين من أى أنواع الأمريكى الأول كان ! ولكن هيكله قديم وما فى ذلك ريب .

وقد عثر على هذا الإنسان الثبت فى تكساس سنة ١٩٥٣ بمحض الصدفة ، عثر عليه كيث جلاسكوك Keith Glascock أحد عمال حقول البترول وهو يبحث عن أدوات قديمة فى مزرعة بالقرب من ميدلاند بولاية تكساس ، فوجد فى قاع حفرة صنعتها الرياح إثنين من رءوس الحراب وهتامة من العظام البشرية . وفى حرص نادر وكتمان بالغ استدعى بعض العلماء ليقوموا بانتزاع العظام من مثواها فى الرمل بدلا من أن يفعل هو ذلك ، وذهب الدكتور اليكس كريجر Alex Krieger والدكتور فريد وندورف Fred Wendorf إلى مزرعة شاربور Scharbauer حيث وجد جلاسكوك العظام ، وقاما بالحفر لحصلا على مزيد من شظايا العظام البشرية يكفى لبناء أهم جزء فى الجمجمة البشرية ، ووجدا كذلك مزيداً من رءوس الحراب بالقرب من العظام ، وكانت هذه شبيهة بمدببات فلصم فى شكلها ،

ولكن ينقصها التحزيز التقليدى الذى يميز مدببات فلصم . كما عثرا على أحجار محترقة وعلى عظام مكسورة لحصان العصر الجليدى وللوعل والبيسون ، وظهر بما لا يقبل الشك أن الإنسان قد لقى حتفه هناك فى الوقت الذى ماتت فيه حيوانات عصر الجليد ، وقد احترقت بعض عظام الحيوان حيث كان الإنسان يطهو لحمها فيما يبدو .

ولكن ظهر أن إنسان ميدلاند لم يكن رجلاً بل امرأة مثل مينى منيسوتا . وكانت الجمجمة ضيقة للغاية ، ولكنها فيما عدا هذا لا تختلف عن جماجم هنود تكساس المحدثين . وأظهر التحليل الكيميائى الذى أجرى على العظام البشرية ، أن عمر شظايا الجمجمة هو نفس عمر عظام الحصان والبيسون ، وبدا أن سيدة ميدلاند قد عاشت فيما يعرف الآن بتكساس الوسطى خلال العصور الجليدية .

ويحتمل أن تكون بعض الهياكل الأخرى هى لأمريكيين قدامى ، ولكن يعوزنا الدليل الكامل على ذلك ؛ بل وأن هناك بعض الشك فى المكان المضبوط لسيدة ميدلاند فى صورة الأمريكيين الأول ؛ فبرغم أن مدببات فلصم التقليدية قد عثر عليها فى مزرعة شاربور فإنه لم يعثر على شىء منها فى جوار الجسم . وربما كانت سيدة ميدلاند إحدى نساء قبيلة وفدت على المكان فى زمن متأخر قليلاً عن زمن فلصم . وبودنا لو حصلنا على هيكل لإنسان سانديا ، وخير منه أن نعثر فى كدر السكا على جسم واحد ممن كانوا أول من وطئت أقدامهم شواطىء العالم الجديد ، وإنا لحاصلون على بغيتنا غداً أو بعد شهر أو بعد عام ، وربما يعثر عليها عامل يحفر خندقاً أو عالم آثار يبحث عن الحقيقة . وعندما يحدث ذلك فإن معلوماتنا عن أمريكا القديمة وعن الأمريكى الأول سيتسع مداها إلى حد بعيد .

الفصل السادس

رغيف من الذرة

ارتفعت سحب من الغبار الخانق ، ووضع علماء الآثار كمامات الغبار على وجوههم فبدوا فى ضوء الكهف المعتم وكأنما مسخوا خنازير. ولكن العمال لم يأبهوا بالغبار الذى امتلأت به خياشيمهم، فراحوا يعملون معاولهم ورفوشهم فى التراب بهمة لا تفتر ، فلما وصلوا إلى الطبقات الدنيا من سلسلة متتابعة من طبقات العشب الجاف والقذر ، أنتزع أحد المنقبين من الجرف المنهار أمامه شيئاً بدا كأنما هو سويقة نبات جاف تحمل فى طرفها برعماً ، وندت من عالم الآثار دكتور هربرت ديك Herbert Dick صيحة مكتومة ، وتحلق حوله الأركيولوجيون الآخر يتطلعون إلى النبات القديم المنكمش وكأنما يتطلعون إلى كنز من الذهب .

وكان الذى اكتشفه عالم الآثار ديك سنة ١٩٤٨ فى تراب كهف بات Bat بولاية نيومكسيكو كنزاً فى الواقع ، بمقاييس العلماء على الأقل . فقد كانت السوق المنكمشة وبرعمها أحد المفاتيح الهامة فى حل أكبر ألغاز أمريكا وهو : «أين ومتى نشأت الزراعة الأمريكيه ؟» .

أعقب عصر صيادى حيوانات العصر الجليدى فى العالم الجديد ، عصر كان على الإنسان أن يوائم بين نفسه والبيئة ، ففى نهاية عصر الجليد انقرضت

الحيوانات الضخمة التى ميزته ، ولم يعد الصيد الوفير ميسوراً ، ولو أن الأمريكيين كانوا أقل قدرة على التكيف لانقرضوا هم كذلك ، ولكننا نحن البشر مخلوقات رمامة تأكل الحيوان والنبات معاً ، بل وتأكل أى شيء إذا لم يكن مفر من أكله . وفى قرون الشدة التى أعقبت عصر الجليد تحولت الجبلة الأولى من الأمريكيين شيئاً فشيئاً إلى الأطعمة النباتية .

بل إن الصيادين الأقدمين قد اكتشفوا ولا ريب كثيراً من الدرنات والثمار الصالحة للأكل، ولا بد أنهم عرفوا خلال سلسلة طويلة من التجارب أى الأنواع أكثر تغذية وأيها لا فائدة فيه إلا مجرد ملء البطون ، وأيها فيه السم الزعاف لآكله ، وقد عاشت جماعات صغيرة من الأمريكيين الأقدمين فى الفترة التى أعقبت عصر الجليد يلتقطون هذه الأغذية النباتية ويصطادون الحيوانات الصغيرة التى كان فى وسعهم قتلها أو احتبالها . وفى فترة التوائم هذه أخذ الإنسان يعتمد شيئاً فشيئاً على النباتات .

وكانت الزراعة الحقيقية لهذه النباتات فاتحة عهد جديد ، إذ لم يترتب عليها عناية مصطنعة ببعض النبات فحسب . بل ترتب عليها كذلك تغيرات فى النبات أحدثها النشاط الهادف للإنسان . ولربما كان لبعض لقاط الطعام الأول ممتلكاتهم الخاصة من التوت البرى يحمونها من التخريب ، ويدفعون عنها الدخلاء ، ولكن هذه ليست فى الواقع زراعة ؛ ولم تبدأ الزراعة بمعناها الصحيح إلا حينما أدركت هذه العناصر أن فى إمكانها الحصول على أنواع محسنة من الفاكهة لو انتقت أجود التوت وغرسته .

اكتشفت الزراعة فى العالم القديم وربما كان هذا حيث العراق اليوم ، وكانت الحبوب من قمح وشعير وشيلم هى أقدم النباتات التى زرعها الإنسان القديم أوجود إنتاجها فى أرض ما بين النهرين . ولأمر ما لم تعرف زراعة العالم الجديد هذه الحبوب . ولم تكن هناك وسيلة طبيعية تستطيع بها منتجات العالم القديم الزراعية أن تصل إلى أمريكا ، فمن المؤكد أن زراعة

القمح لم تنتشر شمالاً إلى سيبيريا حيث لا يستطيع القمح أن ينمو ، ومن ثم فنحن على يقين من أن الإنسان فى أمريكا قد هداه عقله إلى فكرة زراعة النبات مستقلاً عن زميله فى العالم القديم ، وليس لدينا لسوء الحظ شيء نؤكده غير ذلك .

وحينما وصل الرواد الأوربيون فيما بعد إلى شواطىء أمريكا ، وجدوا الهنود يزرعون الذرة فى كل جزر الهند الغربية ، وفى أمريكا الوسطى . وقد ذكر ديجو ، أخو كولمبس أنه سار فى إحدى الجهات مسافة ١٨ ميلاً فى حقل ذرة هندية . وأخطأ الأوربيون فأطلقوا على هذه الذرة الهندية اسم Corn وهى لفظة تعنى «الحب» ؛ أى حب . ولكن الاسم شاع علماً على الغلة الزراعية الكبرى للهنود الأمريكيين .

وعندما تعلم الأوربيون من الهنود الأمريكيين كيف يزرعون الذرة ، هالهم تعدد الأنواع التى يعرفونها ، لقد كانت قبائل الزراع الهنود تزرع أنواعاً مختلفة من الذرة ، وحينما وصل المستكشفون الأسبان إلى أراضى قرية هنود هوبى فى شمال إريزونا، وجدوهم يعرفون ويزرعون ثمانين صنفاً من الذرة ، وربما دل تباين الأصناف هذا على أن الهنود قد زاولوا زراعة الذرة منذ عهد بعيد .

وقد سار نبات الذرة نفسه شوطاً بعيداً ، ولما كانت المُطُر تنمو على جانب السوق مباشرة فلم يكن للذرة من سبيل ينشر به حبوبه ، فإذا لم يكن النبات فى رعاية الإنسان فإن مطره الناضجة تسقط إلى جوار سوقه ، ومن ثم فإذا نبتت الحبوب فى الفصل التالى ، فإنها تنمو فى كتلة متراصة يزاحم فيها العود الأعواد الأخرى ، والذرة فى العادة لا تؤتى أكلها إذا زرعت متكاثفة ، أو إذا لم تلق العناية الكافية فى تنقية أرضها من الحشائش. وإذا ترك عود الذرة دون أن ترعاه يد الإنسان ، أخفق فى أن يتكاثر إلا لفصلين أو ثلاثة على أحسن تقدير . وبعبارة أخرى لم يعد فى مقدور

الذرة فى شكلها المتطور أن تعود إلى حالتها البرية بعد أن غيرت فيها يد الإنسان تغييراً جذرياً .

والذرة نبات رقيق ، شديد الحساسية بالصقيع وبالطفيليات المتنوعة ، ولا يقدر على منافسة الحشائش ، وهو يتطلب لكى ينضج مطراً سنوياً لا يقل عن ١٥ بوصة ، ولا يؤتى خير غلته إلا إذا زادت كمية المطر عن ذلك القدر .

هذه الاعتبارات جميعها وضعها علماء الآثار وعلماء النبات فى أذهانهم وهم يبحثون عن نشأة الذرة فى العالم الجديد . وما كان لهم أن يتطلعوا إلى هذه النشأة فى الأجزاء الشمالية من أمريكا الشمالية أو أقصى الجنوب من أمريكا الجنوبية ، وكانت أحسن السبل لبلوغ الغاية هى البحث عن بعض الأسلاف البرية للذرة ، التى استطاع الأمريكى القديم بذكائه أن يستنبت منها الذرة التى زرعها فيما بعد . وكان من الواضح أن أفضل الأمكنة صلاحية للبحث هى المراكز المتمدنة التى زرعت فيها الذرة لقرون طويلة .

وأرّ علماء الآثار اهتمامهم عند البحث عن مكان النشأة فى بلاد المايويين فى المكسيك الجنوبية وفى جواتيمالا ، فهنا عدد لا يحصى من الأدلة على مدنية قديمة كانت تعتمد فى المقام الأول على زراعة الذرة ، وكذلك فعل علماء النبات ، وكللت أعمالهم بالنجاح .

لقد اكتشفوا فى مرتفعات جواتيمالا نوعاً طويلاً من النباتات العشبية يدعى تيوسنتى Teosinte أو تيوسنتلى Teocentli ، وجدوه نامياً فى خرائب المدن المايوية ، وكان هذا النبات يشبه الذرة شبهاً سطحياً إذ كان ينقصه العود الغليظ والمطر الذى يحمله . ولكن كان فى استطاعة علماء النبات على أى حال أن يدللوا على قرابة التيوسنتى للذرة الحديثة ، فقد كان

النباتان مثلاً يتبادلان اللقاح إذا مازرعا متجاورين مما يؤكد وجود القرابة، وهلل علماء الآثار فرحاً لهذا الإكتشاف فقد أصبح من الواضح أن أسلاف المايويين الأقدمين قد اكتشفوا زراعة التيوسنتى ، ثم طوروه بمهارة ليكون النبات الغذائى فيما بعد .

ولكن التعليلات البسيطة معرضة للخطأ دائماً ، وبخاصة إذا كانت تعالج موضوعاً معقداً كموضوع الحياة البشرية ، وقد أدرك علماء النبات بما أجروه من حسابات فيما بعد ، أنه حتى مع التهجين الحاذق لابد من نحو ٢٠ ألف سنة لننتج من التيوسنتى حبوباً على مُطّر . وحينما نقول التهجين الحاذق فلابد أن نفترض سلفاً وجود سلسلة تامة من العوامل البربانكية(١) التى تغير النبات من سنة إلى أخرى مع علم سابق بالغلة الأخيرة التى نسعى إليها . وحتى مع هذا يظل هناك كثير من الشك ، فيما إذا كان من الممكن تحويل التيوسنتى إلى حبوب غذائية مهما كان الزمن الذى استغرقه ، وأياً كانت الطريقة التى عمد إليها الإنسان القديم . وأصبح من الواضح أن الذرة الأمريكية ليست من التيوسنتى ، الأمر الذى أربك بخاصة كثيراً من علماء الآثار كانوا قد سارعوا فأعلنوا أن التيوسنتى هو الجد الأعلى للذرة .

وبرغم فشل التيوسنتى ظل معظم علماء الآثار الأمريكان يعتقدون أن الذرة إنما نشأت أصلاً فى مكان ما بأمريكا الوسطى أو قريباً منها ، وظن بعض علماء النبات أن من المحتمل أن يكون النبات المسمى الذرة البرعمية Pod Corn والذى يزرع الآن فى الجزء الشمالى من أمريكا الجنوبية ، هو الجد الأصلى للذرة الأمريكية الحديثة .

---

(١) نسبة إلى لوثر بربانك (١٨٤٩ — ١٩٢٦) وهو أحد علماء النبات الأمريكيين وقد استنبط كثيراً من أصناف النبات من أشهرها البطاطس المعروفة باسمه (المعرب)

وتتميز الذرة البرعمية فى الواقع بأن حبتها تغطيها ست قشور صغيرة، وهذا النظام أخص بالأعشاب البرية منه بالذرة العادية ، ومن ثم فإن الذرة البرعمية أقرب فى مظهرها إلى الذرة البرية التى اشتق منها كل أنواع الذرة الهندية ، وتنمو الذرة البرعمية بريا لعدة أجيال إذا كانت الظروف مواتية.

وكان الذى اكتشفه هربرت ديك فى كهف بات بولاية نيومكسيكو سنة ١٩٤٨ نوعاً من الذرة البرعمية ، وعزز هذا الاكتشاف مكتشفات أخرى حصلت عليها جماعة من أركيولوجيي متحف شيكاجو للتاريخ الطبيعى فى كهف تولاروزا Tularosa بولاية نيومكسيكو بعد سنتين من اكتشاف ديك . وتبين الأدلة الاركيولوجية فى الجنوب الغربى للولايات المتحدة أن الزراعة لم تنشأ فى نيومكسيكو حيث يوجد هذان الكهفان ، رغم أنه قد عثر فى كهفى بات وتولاروزا على أجزاء من براعم وحبوب وأعواد نوع بدائى من الذرة البرعمية مختلطة بمخلفات أخرى قديمة فى رواسب يبدو أنها فى غاية القدم ، وأظهرت اختبارات النشاط الاشعاعى للكربون التى أجريت على أقدم هذه الأجزاء ، أنها ترجع إلى ٤٥٠٠ سنة . وكانت أصناف الذرة قريبة جداً من الذرة البرعمية ؛ وإذن فقد كان بعض السكان الأقدمين لما يسمى الآن نيومكسيكو يزرعون أصنافاً بدائية من الذرة الهندية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة .

وقد عثر على بعض كيزان الذرة الحفرية خلال البحث عن أقارب الذرة الهندية. عثر تشارلس دارون فى رحلته الشهيرة حول العالم فى جزيرة سان لورنزو التى تقع تجاه الساحل البيروفى ، على بعض أرغفة الذرة مطمورة فى رواسب بحرية تقع على ارتفاع ٨٥ قدماً فوق المستوى الحالى لسطح البحر ، وربما دل هذا فى ظاهره على أن الذرة قد وجدت منذ ملايين السنين ، ولكن التعليل الأقرب إلى الحقيقة هو أن الرواسب البحرية التى اكتشفت فى جزيرة سان لورنزو كانت منزلاً لبعض الهنود البيروفيين منذ بضع مئات

من السنين ، وكان هؤلاء يأكلون المحار وأرغفة الذرة ثم يلقون بالفضلات جميعا فى أكوام القمامة على الشاطىء .

وأكثر من هذا تضليلاً كوز من الذرة المتحجرة عثر عليه فى سنة ١٩٢٠ فى محل لبيع العاديات فى كوزكو ببيرو ثم وجد طريقة إلى مؤسسة سمثونيان. وقد فحص هذا الكوز المتحجر كثير من علماء الآثار وعلماء النبات وقرروا أنه لا جدال فى أنه كوز ذرة هندية ، ولكن الذى حيرهم أن هذه الحفرية وإن بدت قديمة إلا أنها ليست بدائية فى تكوينها ، فهى لا تختلف فى الواقع عن أى كوز ذرة يشترى اليوم من سوق كوزكو ، وأخيراً قرر علماء النبات أن هذه العينة القيمة لابد من أن يضحى بها لاستخلاص ما يمكن أن يكون بداخلها من معلومات، وعندما شطرت شطرين وجد أنها مصنوعة من طينة الفخار ووجد فى مركزها تجويف يحتوى على ثلاث كرات طينية مصنوعة . ولم يكن هذا الكوز المتحجر ، سوى مصلال صنعه بيروفى ذكى فى عهد سحيق ليلهو به طفله .

وتبين أن كثيراً مما عثر عليه من الذرة البرية أو القريبة من البرية هى هجين من الذرة الهندية والتيوسنتى اللذين يتلاقحان بسهولة ؛ وصمم بربانك نفسه — وكانت شهرته فى التربية الهادفة لتحويل بعض أنواع النباتات الغذائية إلى أشكال متعددة فى أوجها — على أن يحل لغز أصل الذرة الهندية وبدأ بالتيوسنتى فحصل بعد ثمانية عشر جيلاً من تربيته على صنف من الذرة مقبول ولكنه بدائى، ثم اكتشف فيما بعد أن تجاربه لم تبدأ بالتيوسينتى أبداً ، وإنما كانت تجارب على هجين من التيوسينتى والذرة. ومات بربانك العظيم دون أن يحل لغز الذرة .

وهكذا استمرت شجرة نسب الذرة بكيزانها وحبوبها المضللة تراوغ وتتهرب من كشف سرها ، ولا شك أن جذر الشجرة هو جذر المدنيات

الكبرى فى العالم الجديد . ولولا التطور الذى شهدته الذرة الهندية لاستحال على الحضارات الأمريكية العظيمة أن ترى النور .

ولكن الذرة الهندية لم تكن النبات الوحيد الذى قامت عليه الزراعة فى أمريكا بل كان هناك نوعان من الخضر لهما نفس قدم الذرة هما القطانى[1] واليقطين ، وقد ظهرت الفاصوليا الأمريكية وهى من النباتات الزاحفة منذ عهد بعيد وكان لها فى معظم المجتمعات الزراعية الأهمية التى للذرة فهى غنية بالبروتين ومن ثم يمكن أن تكون بديلاً للحم ، وليس لدى الزراع وقت ينفقونه فى الصيد ومن ثم فزراعة القطانى تغنيهم عن الطراد ، ولابد أن نتذكر أن القطانى قد عرفت وزرعت فى العالم القديم كذلك ، وكثيراً ما يطلق على الأنواع الأمريكية اسم « القطانى المرقطة » لأن كثيراً من أصنافها تتعدد فيه الألوان . وقد زرع القطانى فلاحو العالم القديم والعالم الجديد كل على حدة .

وقد عرف الهنود الأمريكيون القرع واليقطين وهما ينموان برياً ثم عمدوا إلى زراعتهما ولا يزال كثير منهم يزرعون أصنافاً خاصة من اليقطين والقرع ، ويحتفظ بهذه الأصناف سليمة مستقلة بالانتخاب الدقيق لبذور كل نوع ، إذ سرعان ما يفقد الصنف ميزاته لو أنه زرع قريباً من الصنف الآخر بدرجة تسمح باختلاط اللقاح ، ولو زرع القرع واليقطين معاً ولم تزد المسافة بينهما على بضعة أقدام لنتج عنهما صنف من اليقطين ذى الثآليل ولم يتغير شكل النجم الذى اشتقت منها كل أصناف القرع واليقطين عن شكله البرى إلا قليلاً .

وفى كل حضارات أمريكا الشمالية كانت الذرة والقطانى والقرع

---

(1) مثل اللوبيا والفاصوليا وغيرها (المعرب)

تكون ثالوثاً مقدساً ، وكانت عند الكثيرين هى التركيب الزراعى الأساسى ، وكان هنود قرى جنوب غرب الولايات المتحدة مثلاً يعتبرون آلهة الذرة والقطانى والقرع الأرباب الثلاثة الكبرى الحاكمة .

وظهر فى عصر متقدم للغاية مركز زراعى راق فى منطقة الأند بأمريكا الجنوبية ويعتقد بعض علماء الآثار أن المحصولات الزراعية بما فيها الذرة نفسها إنما نشأت أصلاً فيما يعرف الآن باسم بيرو وقد أمكن العودة بتاريخ المحصولات الزراعية هناك إلى نحو ألفى سنة قبل الميلاد على الأقل . وظهر فى هذه المنطقة ما يسمى بالبطاطس الايرلندية والاناناس والفول السودانى وفاصوليا ليما والفلفل والطماطم .

أما البطاطس وقد وسمت بالايرلندية لأنها زرعت فيما بعد فى أيرلندا فهى فى الأصل من نباتات الأودية الجبلية الرطبة فى بيرو ، وقد زرعها السكان الأقدمون هناك للحصول على درناتها النشوية ، وقد أصبحت بطاطس الأند الآن نباتاً يسر الحياة فى كثير من أنحاء العالم . لقد نقلت من بيرو إلى أوربا سنة ١٥٨٥ وهى الآن الغذاء الأساسى فى كثير من الدول الأوربية .

لقد زرعت أصناف متنوعة من فاصوليا ليما — وهى منسوبة إلى ليما القديمة فى بيرو — فى عصور ما قبل التاريخ ، وقد أغرم الأنديون القدماء بخاصة بنوع كبير الحجم منها لم يكونوا يأكلونه فحسب بل كانوا يستعملونه أداة للتراسل كذلك ، وكثيراً ما حمل السعاة فاصوليا ليما ذات النقوش مئات الأميال فى مسالك الجبال .

وكان الفول السودانى مصدراً هاماً للبروتين والزيوت ؛ وهى من العناصر الضرورية لشعب لم يعد يصطاد البرى من الحيوان . وكثيراً ما قلد البيروفيون القدماء بالصلصال صور الفول السودانى والبطاطس وفاصوليا

البا وغيرها من المنتجات الزراعية . وتظهر هذه التماثيل الصلصالية أن أشكال تلك النباتات هى فى الوقت الراهن كما كانت منذ عشرات القرون. لقد وصل الزراع المحدثون حقاً بكل غلات العالم الجديد هذه إلى ذروة الكمال بانتقاء البذور واستخدام الوسائل العلمية الحديثة ولكن أصولها معروفة وأشكالها ثابتة لم تتغير كثيراً .

وتمثل البطاطا التى ظهرت فى أمريكا الجنوبية القديمة مشكلة اركيولوجية أكثر تعقيداً ، وقد نشأت على ما يظهر فى المناطق المدارية من أمريكا الجنوبية . كان يزرعها الاندبون ، وكان يزرعها كذلك كثير من السكان الاقدمين فى حوض الأمزون وفى المناطق المدارية الأخرى من أمريكا الوسطى ، وقد حملت البطاطا غرباً إلى جزر المحيط الهادى فى وقت ما من الزمن السحيق ، وعند ما اكتشف الأوربيون جزر هاواوى وجدوا سكانها يزرعون البطاطا ، وكذلك عرفتها جزر أخرى فى أواسط المحيط الهادى ، ووصول هذا النبات الزراعى دون سواه من النباتات الأمريكية أمر فيه كثير من الغموض . فالذرة وهى أكثر النباتات الأمريكية أهمية وأعرقها تاريخاً ، لم تحمل إلى جزر المحيط الهادى مع أنها تزدهر فى الظروف المدارية ودون المدارية .

وهنا نشير إلى لغز أركيولوجى ظهر فى جنوب شرق آسيا ، فى الأدب الصينى وفى الفنون الشعبية ببورما أوصاف لنبات كأنما هو الذرة الهندية ومنذ أكثر من خمسين عاماً وجد المبشرون القرويين البدائيين فى غرب الصين يزرعون الذرة ، وكان الزراع فى تلال أسام وبورما يزرعون كذلك أنواعا من الذرة تصلح للبليلة والتقشير والتحميص ، وعندما سئلوا عنها كان جواب هؤلاء وهؤلاء أنهم يزرعون الذرة منذ الأزل : وأعتقد بعض الانتربولوجيين وهم يتبعون خط سير البطاطا أن الذرة الهندية قد انتقلت من أمريكا إلى آسيا منذ آلاف السنين ، وعكس آخرون الآية فقالوا بأن

الذرة نشأت أصلاً فى آسيا ومن ثم فهى « الذرة الآسيويه » لا الأمريكية، وكانت العقبة أمامهم جميعاً أنهم لم يجدوا أثراً للذرة فى جزر المحيط الهادى على طول طريق البطاطا .

وجرب فلاحو الدنيا الجديدة الأقدمون كذلك كل أنواع الأشجار المثمرة فأكلوا جميع الفواكه البرية وأصناف البندق المتنوعة ، بل وفى بعض الأحوال جربوا لحاء الأشجار ، ولكنهم لم يضيفوا إلى عالم الفاكهة كما نعرفه اليوم سوى صنف واحد هو الافوكادو ، الذى يظن أن زراعته بدأت فى الجهات المدارية من أمريكا الوسطى والجنوبية .

وعثر السكان الأصلاء فى العالم الجديد ، وهم يبحثون عن النباتات الغذائية على نبات لم يكن فى الحسبان ، وليست لهذا النبات قيمة غذائية ولكنه عظيم الأهمية عند الكثيرين ، وهذا هو التبغ الذى عرفه كل الزراع من الهنود الأمريكيين ومارسوا زراعته ، بل وكانت تزرعه بعض القبائل الهندية التى تزرع الذرة أو غيرها من المحصولات الحقلية . وكان التبغ بين الغلات الزراعية الأولى التى وصلت أوربا ومنها انتشرت إلى كل أنحاء العالم ، وكان التبغ فى انتشاره أسرع من أى نبات غذائى .

إن مساهمة الدنيا الجديدة فى تطوير الزراعة لا تقل أهمية عن مساهمة إفريقية والشرق الأوسط والصين ، وتعيش قبائل إفريقية برمتها وكثير من شعوب أوربا وآسيا على الذرة الهندية ، وقد لا يكون اسم الهنود الأمريكيين قد طرق أسماعهم أبداً ، وقد أصبح الفول السودانى والبطاطس الأندية الغذاء الأساسى لخلق كثير من سكان إفريقية وأوربا .

قامت المدنيات العظيمة فى العالم القديم على الزراعة وتربية الأنعام ، فماذا فعلت أمريكا القديمة من أجل استئناس الحيوان ؟ فى حدود ما نعلم لم يكن فى أمريكا القديمة أى حيوان أو طير مستأنس ، ولابد من الاشارة

إلى وجود عدد قليل نسبياً من الحيوانات الصالحة للاستئناس فى أمريكا بعد أن انحسر عنها الجليد ، ولكن مع هذا كان الأمريكيون الأقدمون متخلفين للغاية فى تربية الحيوانات والطيور للإفادة منها فى الغذاء أو الشغل .

وفى مناطق الأنديز استأنس البيروفيون اللاما فى عصر ماقبل التاريخ . وقد انحدرت اللاما وأقاربها الوحشية كالألباكا والفيكونا والجواناكو من إبل العصر الجليدى . لقد انقرض الجمل فى أمريكا الشمالية ونهاية عصر البلستوسين ولكن ظلت هذه الأنواع من الجمال الطويلة الأعناق والأقل حجماً ترعى فى أمريكا الجنوبية . واللاما ليست عظيمة النفع كحيوان مستأنس . إنها لا تستطيع أن تجر أو تحمل على ظهرها إلا الخفيف من الأحمال ، فضلاً عن أنها عنيدة لا يكبح جماحها بسهولة . وأهميتها كمصدر للحم أو اللبن ضئيلة ، ويمكن أن يغزل شعرها خيوطاً ولكن شعر الفيكونا والألباكا أكثر صلاحية لهذا الغرض . ويستطيع الرجل فى جبال الأنديز أن يحمل من الأثقال ما تنوء به اللاما ، وأن يقطع بحمله مسافة أطول مما تستطيع .

وقد دجن الأنديون خنزير غينيا من أجل لحمه ، ولكن فى استطاعتنا أن نحكم من الصور المنقولة عن هذا القارض الصغير أنه حتى البيروفيين الأول لم يستطيبوا لحمه ، ربما بسبب رائحته الكريهة . وقد احتل خنزير غينيا الآن مكانه كحيوان للتجارب المعملية فأصبح عزيزاً على العلم محبباً لدى العلماء . كذلك كان القوم يربون البط المسكوفى فى حظائر ، وقليلاً من القردة والطيور الزاهية الريش .

وكان عدد الحيوانات التى استئنست ، والطيور التى دجنت فى أمريكا الوسطى والشمالية أقل منه فى أمريكا الجنوبية . وكان المكسيكيون والمايويون فى عصر ماقبل التاريخ يحتفظون بالببغاء والكتزال ليحصلوا على

ريشها الزاهى الألوان . ودجن سكان القرى الهندية فى جنوب غرب الولايات المتحدة الديك الرومى ، وهو من الدواجن ذات الأهمية لما يحمله من لحم إذا أحسنت تغذيته . ولكن هنود القرى ما كانوا يربونه لحمه ، بل لأنه طائرهم المقدس ، وكان الطلب على ريشه عظيماً لتقديمه قرابين ؛ ومن ثم فقد كانوا يربونه لريشه لا اللحم .

نشأت المدنيات فى أمريكا القديمة معتمدة على الزراعة كل الاعتماد تقريباً . وجاءتها كل الحيوانات المستأنسة والدواجن الأليفة من العالم القديم . ولكن زراع العالم الجديد قد أقاموا عدداً من المدنيات لا يقل فى مداه وفيما أسداه إلى البشرية عن أى من مدنيات العالم القديم . ويبدو أن الزراعة الأمريكية قد بدأت بالذرة التى كلما شملت رقعتها جماعة من الأمريكيين الأقدمين كلما نمت حضارتهم تبعاً لذلك . لقد استعمل هذا النبات كنقود ووقود وحلى ، واستخدموه فى أعمال البناء وفى صنع الشراب ، وكانت المدنيات التى أوفت على الغاية هى تلك التى مارست زراعة الذرة والقطانى والقرع أطول زمن ، وتقاس عظمة ما حققه الأمريكيون القدامى بالذرة والرغيف .



الفصل السابع

لغز المتاريس

قبل أن يصبح توماس چيفرسون رئيساً للولايات المتحدة كان من رجال الآثار الأوائل فى البلاد. وكان يشاركه الإهتمام بالآثار وبقصص الغابرين عدد من مثقفى العصر، ولكن أمريكان ذلك الوقت لم يكونوا قد ألموا بعد بالأصول الأولى للعالم الجديد، لم يكونوا قد عرفوا قصة الهجرات عبر مضيق برنج، ولم يكن چيفرسون وزملاؤه قد سمعوا بإنسان فلصم، ولا عنوا أنفسهم بموضوع الكشف عن هيكل الأمريكى الأول.

ولكن الرئيس چيفرسون كان يلح عليه لغز ربى من التراب وجدها المستوطنون الأوربيون منتشرة فيما بين حوض سانت لورانس شمالاً وأقصى أطراف فلوريدا جنوباً. وكلما توغل المستعمرون الأمريكان فى الداخل كلما وجدوا مزيداً من هذه الدكوك[1] كما سموها. وعندما اجتازوا جبال الأبلاش وهبطوا إلى وادى نهر أوهايو وجدوا آلافاً من هذه الربى الترابية بعضها عظيم الحجم للغاية، وفى هذه الفترة الباكرة من تاريخ علم الآثار الأمريكية لم يكن هناك سوى لغز واحد، هو لغز الربوات.

(١) الدك كومة من التراب فوق قبر قديم (المعرب)

وبعد أن انتهت حرب الاستقلال التفت توماس چيفرسون إلى هذا اللغز الذى تعلق به اهتمامه منذ أيام الصبى، عسى أن يجد فيه الراحة من أعباء وظيفته. ولم يكن چيفرسون واحداً من الرواد الأول الذين وضعوا النظريات عن الربى و «بناة المتاريس» فحسب، بل أنه أول من نقب وسجل تنقيبه كدليل اركيولوجى يدعم به رأيه. وقد وصف چيفرسون ربوات موطنه الأصلى فرجينيا فى كتابه الرائع: «ملاحظات عن فرجينيا» الذى كتبه سنة ١٧٨١ ونشره عام ١٨٠١، وقد حفر إحدى هذه الربى كما يقول ليعرف من هم «بناة المتاريس» وليستكشف الغرض الذى دفعهم إلى إقامة مثل هذه الربوات.

ويتحدث چيفرسون فى «ملاحظات عن فرجينيا» عن ربوة فى وادى نهر ريفنا علوها نحو ١٢ قدماً فيقول: «شرعت بحفر سطحى لبعض أجزائها فحصلت على مجموعات من العظام البشرية على أعماق مختلفة من السطح تتراوح بين ست بوصات وثلاثة أقدام ... وخمنت أن هذا الدك قد يكون به ألف من الهياكل البشرية .. وتؤكد المظاهر أنه نشأ ونما بسبب ما كان معتاداً من جمع العظام وتكوينها».

وبتعليل علمى سليم ربط چيفرسون دكوك القبور هذه بقبائل الهنود، ولم يقترب كثير من علماء الآثار الذين جاءوا بعد چيفرسون بزمن طويل من الحقيقة كما اقترب. لقد تصور چيفرسون أن أمريكا قد يكون عمرها هنود وصلوا إلى لبرادور عن طريق جرينلند وإيسلند، أو هاجروا إلى الشواطىء الأمريكية من شبه جزيرة كمشتكا لسيبيريا أو عن طريق مضيق برنج، ورجح فى النهاية مجيئهم من شمال شرق آسيا عن طريق مضيق برنج، وأنه لإستنتاج مذهل، فما كان معظم العلماء على عهد چيفرسون يعلمون أن الجنس البشرى لم تكن نشأته فى العالم الجديد. وخاص معظم الباحثين الأوربيين والأمريكيين إلى أن جنة عدن وبالتالى موطن نشأة

الإنسان كانت فى الأراضى المقدسة ، ولكن چيفرسون وقد أنعم النظر فى العدد الكبير من اللغات الهندية فى أمريكا ، انتهى إلى أن هذا التنوع الكبير فى الألسنة يبين أن هنود أمريكا شعوب أقدم من شعوب آسيا . وعندما أصبح توماس چيفرسون فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة واصل اهتمامه بلغز « بناة المتاريس » واستمر يفكر فى شأنهم ومصيرهم الأخير .

ولم يكن توماس چيفرسون الوحيد بين رؤساء الولايات المتحدة الذى اهتم بالروابى ، بل نجد أن الجنرال واشنطن ، فى الوقت الذى كان فيه چيفرسون يحفر فى فرجينيا ، يكتب إلى الجنرال بيكر فيذكر أنه يأمل أن تبوح الربى بأسرارها . وتحول الرئيس وليم هنرى هاريسون إلى أثرى ومؤلف يحاول أن يحل لغز « بناة المتاريس » وكتب هاريسون كتاباً بعنوان « مقال عن السكان الأصليين لوادى نهر أوهايو » يضع فيه عدداً من الأسئلة ثم يحاول الإجابة عليها . ويظهر أن موضوع اختفاء « بناة المتاريس » كان يعنيه أكثر مما تعنيه نشأتهم ، إذا كان قد كتب عليهم أن يستسلموا لشعب آخر أوفر عدداً وأكثر قوة ، فإلى أى البلاد لجأوا ؟ وماذا كان من أمر الغزاة ؟ » ولهاريسون نظريته عن نشأة أصحاب الروابى فقد كتب : « إن السجلات المصورة لهذه الأمة تعزو أصلهم إلى الأزتك وهم شعب يقال إنه وصل إلى المكسيك فى نحو منتصف القرن السابع . ويعلن كاتب أمريكى هو الأسقف ماديسون أسقف ولاية فرجينيا وقد بذل كثيراً من الجهد فى تحقيق هذا الموضوع ، يعلن عن إيمانه بأن هؤلاء الأزتك هم نفس الشعب الذى سكن وادى نهر أوهايو حيناً من الدهر . وكل الاحتمالات فى الواقع فى جانب هذا الرأى . وقد اقترب هاريسون بهذا التصور الرائع من الحقيقة اقتراب چيفرسون منها .

وبينما كان فضول توماس چيفرسون ونظريات وليم هنرى هاريسون

تقترب بهما من الحقائق الخفية كان عدد كبير من الأمريكيين الآخر يعنون أنفسهم بالموضوع . كان مئات من الفلاحين والأثريين الهواة ينقبون آلاف الروابى من مين إلى جورجيا ، ولم يكن لهذا التنقيب إلا القليل من النتائج العملية ، وانتهى أمر عدد كبير من « المخلفات الهندية » إلى معارض الجمعيات التاريخية ، ولكن لم تحمل إلينا مخلفات هذا العصر المندرس سوى قليل من البيانات . وكان معظم جامعى المخلفات ممن قد يعنيهم لغز الروابى يعتبرونها مشكلة لا يمكن سبر غورها . ولكن كثيراً من حكام الولايات وأعضاء الكونجرس ورجال الجامعات قد تصدوا لها وكتبوا عنها .

وحتى قيام الحرب الأهلية لم يكن قد تم شىء تقريباً لتحديد من هم بناة المتاريس ولماذا بنوها .

وقد تجول عدد من الأثريين الأوروبيين فى شرق أمريكا ليروا الروابى وليحصلوا على مجموعات من مخلفات بناة المتاريس ، ولم يكن فى طاقة أحد منهم أن يعاون فى حل المشكلة على أساس الاستكشافات التى تمت فى أوربا . لقد لاحظوا صلات واهية بينها وبين شعوب بعينها من أمم عصر البرونز الأوروبية الذين كانوا يقيمون دككاً من التراب أو الأحجار على قبور موتاهم ، وألمع علماء الدراسات القديمة إلى ما فعله آخيل بطل حروب طروادة من إقامة دك على جثمان صديقه باتروكليس . وواضح أن كان لبعض بناة المتاريس الأمريكيين أدوات معدنية ثم تنتهى المجانسة عند هذا الحد . لقد كان بناة الدككة فى وادى نهر أوهايو يستعملون النحاس بدل البرونز ولكن أصحاب البرونز فى أوربا لهم جدود وأحفاد مختلفون ، ولا يمكن أن ندلل على أى صلة بينهم وبين بناة المتاريس فى أمريكا .

وعاد معظم الباحثين إلى افتراض أن بناة المتاريس الأمريكيين هم من نسل البابليين أو المصريين أو غيرهم من شعوب العالم القديم ، وكان من

النظريات التى لاقت الاستحسان فى أوائل القرن التاسع عشر النظرية التى ترجع بهم إلى القبائل اليهودية العشرة المفقودة فقد كانت هذه القبائل على نفس المستوى الحضارى الذى نراه فى أعمال بناة المتاريس . ويتفق القسيس تاديوس هاريس من ماساشوستس فى بحث نشره سنة ١٨٠٥ أن يكون هنود أمريكا المحدثون من نسل تلك القبائل ، ولكنه يؤكد أن بناة المتاريس إنما هم سلالة منهم ، ثم لا يفسر كيف وصلت هـــذه القبائل العشر التى طردها سارجون من بلاد ما بين النهرين إلى الساحل الشرقى من أمريكا .

وكان اعتماد النظريات الأولى عن لغز الروابى على الكثير من التخمينات والقليل من الحقائق . وربما كان تنقيب توماس جيفرسون فى مزرعته بفرجينيا هو أكثر الأعمال اعتماداً على الأسس العلمية خلال الخمسين سنة التالية ، ولم يتم سوى القليل من التنقيب العلمى فى القرن التاسع عشر رغم أن كثيراً من الناس قد أزالوا كثيراً من الأكوام ، وكرس معظم القرن لأعمال الجمع بعد أن أصبح معروفاً أن بهذه الروابى الترابية كثيراً من المخلفات ، وكانت « الغنائم » فى روابى بعينها خيراً منها فيما سواها ومن ثم فقد تعلم المنقبون لقصد المتعة أو لقصد الربح أين توجد أحسن المخلفات ليحفروا فى تلك الأماكن .

والجمع يهدف إلى تكوين المجموعات ليس مما يعنى علم الآثار ، فقد جمع الإنسان كل شىء تقريباً خلال تاريخ البشرية الطويل وهناك قواعد معينة يستهدى بها الجامعون . منها أن المجموعة لا بد أن تكون كاملة حتى تفوق على المجموعات المماثلة ، ومن أهمها أن الشىء كلما كان نادراً ومن الصعب اقتناؤه كلما عظمت قيمته فى المجموعة .

لم يحد جامعو الآثار عن هذه القواعد ، فحفروا الروابى بأنفسهم أو استأجروا العمال والفلاحين ليحفروها لهم ، وتكدست عشرات الآلاف من

المخلفات بهذه الطريقة ولم يخطر لأحد من هؤلاء الجامعين أن يطلب المعلومات عن المخلفات مع المخلفات ، فقد كانت قيمة الأشياء فى ذاتها هى ، وكانت المعلومات التى ربما جمعت عن شىء منها تضيع إلى الأبد ، فى أول الأمر بانتقال المجموعة من صاحبها إلى إبنائه ، أو مع بيعها إلى أحد الأثرياء من الهواة ، وكان بعض تجار العاديات ينحرفون عن الصواب فعلاً ليحيطوا بالغموض أصل الأشياء التى يتجرون فيها ، وتظل مصادرها من الأسرار حتى يستمر الحفر والتنقيب ، واتسع نشاط تجار مخلفات الهنود على عهد الحرب الأهلية ، وشملت تجارتهم كل الأشياء ، وأصبح لهم فى نيويورك ، وفيلادلفيا ، ونيوأورليانز ، وغيرها من المدن المكانة التى كانت لتجار المطرزات فى أوربا ، أوالنبيذ فى فرنسا . وبلغ رأس المال المتداول فى هذه التجارة حداً كبيراً . ولا يرجع رواج جمع المخلفات فى أواسط القرن التاسع عشر إلى غريزة التملك فحسب ، بل وإلى الاهتمام المتزايد بالعاديات كذلك . وقد صنع المخلفات التى يجد الخبراء فى البحث عنها ويبذلون المال للحصول عليها ، شعب غامض عاش قبل ظهور الهنود بزمن طويل .

وبرز بين هؤلاء الجامعين للمخلفات عدد من الأفراد كان من أشهرهم « سيروس مور » ، وهو من الأثرياء الذين جمعوا ثروتهم من القطن ، وقد ساعده المال الوفير على أن يكرس حياته للتنقيب فى الروابى للحصول على ما تضم من كنوز ، وفى كل شتاء كانت تصنع وفق طلبه عائمة فى سنسناتى وسانت لويس ، فإذا ما تم بناؤها سار بها ليقضى ورجاله الصيف التالى فى مياه أوهايو أو المسيسبى ، وكان يحمل معه خمسة وعشرين من الخبراء فى التنقيب ، ولما كانت تقوم على ضفاف المسيسبى وروافده آلاف من الروابى فما كان يعوز المنقبين أبداً العثور على الأماكن التى يتخذون منها ميادين لرفوشهم ، وسرعان ماتحمل الغنائم الأثرية إلى ظهر العائمة ومور فى مقعده بسطحها يلعب البنجة[1] التى كان فى استطاعة الزائر أن يتبين من حيوية

(١) البنجة : آلة موسيقية أشبه بالطبل لها أربعة أوتار (المعرب) .

أنغامها ما إذا كان المنقبون قد حصلوا على أشياء نادرة أم عادوا بالمألوف من المخلفات . فإذا ما جاء الخريف عادت العائمة إلى نيو أورليانز برجالها المكدودين السعداء ، مليئة بكنوز بناة المتاريس التي يحسدهم عليها كل هواة المخلفات من أهل العصر . وفي الربيع التالي تتحرك الجماعة بعائمتهم إلى الشمال ليستبدلوها بأخرى وهكذا دواليك .

ولم تكن عمليات الجمع هذه نادرة خلال النصف الآخر من القرن التاسع عشر ، وكانت النتيجة الحتمية أن تتكدس كميات ضخمة من المخلفات في المتاحف ولدى جمعيات العاديات ، ووجد جزء كبير منها طريقه إلى أوربا . وبدأ نفر من علماء الآثار يبنون معلوماتهم على أساس هذه المجموعات بدلاً من استخلاصها من الروابي نفسها ، ولكن برزت في المقدمة بعض الأسئلة الواضحة كان أولها السؤال الذي طالما سأله كل منقب وكل مقتني للمخلفات وهو : « من هم بناة المتاريس ؟ »

وبدا واضحاً أنهم ليسوا الهنود ، أو على الأقل ليسوا الهنود العاديين . فالهندي الأحمر الذي كان يعرفه جورج واشنطن لم يبنِ الروابي ولم تبنها قبائل الشوني أو الاروكوي أو غيرهم من القبائل الذين عرفهم المستوطنون الأول . فلم تكن القبائل الهندية التي التقت بطلائع الأوربيين على علم بالمعادن في حين أن بعض الروابي كان غنياً بأدواته وحليه المعدنية ، ثم إن إقامة الروابي الضخمة يستلزم وجود مجتمع في أحسن نظام ، ولم يكن أحد من الهنود الذين رآهم الأوربيون قد بلغوا هذه الدرجة من المدنية .

وثمة سؤال آخر وضعه جامعو المخلفات الأول وهو : « ما عمر هذه الروابي ؟ » ، وواضح أن بناة المتاريس قد سكنوا أودية الأوهايو والمسيسبي في عهد سحيق ، حتى لقد نسيهم الهنود المحدثون تماماً ، كذلك نمت فوق الربى أشجار ضخمة مضت عليها مئات السنين مما يدل على أن هذه الروابي لابد وأنها أقيمت قبل أن تنبت هذه الأشجار .

وقد تساءل الحصفاء من الأوربيين الأول مثل الجنرال رفوس بتنام « هل كان بناة المتاريس ينتمون إلى شعب واحد ؟ » . لقد لاحظ جامعو المخلفات حتى الأوائل منهم أن هناك عدة أنواع للروابي ، كانت هناك روابي منفردة ، وروابي منتظمة في مجموعات ، وكان بعضها مقوس السطح والبعض الآخر مستوياً سواء في ذلك الكبير منها والصغير ، وكانت تضم أنواعاً متعددة من المخلفات في داخلها أو فيما حولها ، وكان في بعضها أشياء صنعت من المعدن ، وفي الأخرى غلايين حجرية قدت على أحسن مثال ، وأنواع شتى من الأدوات الفنية . وكان الفخار الموجود فيها يختلف من مكان إلى مكان .

وكان أكثر الأسئلة تردداً هو ما يتعلق بمصير هؤلاء الناس ، فإذا لم يكن بناة المتاريس من الهنود الذين نعرفهم — ولا يبدو أنهم ليسوا منهم — فإلى أين ذهبوا إذن ؟ كيف يختفي شعب متمدن له صناعاته المعدنية ليحل محله شعب بدائي متوحش ؟

كانت المحاولات الأولى للإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها مما يتعلق بلغز بناة المتاريس عن طريق دراسة مجموعات المخلفات الهندية . وكان من أوائل الذين اهتموا بهذا النوع من الدراسة تشارلس وولبي مدير متحف بيبودي Peabody Museum بجامعة هارفارد الذي أنفق عمره في دراسة المجموعات الضخمة التي يضمها المتحف . وبعد سنوات طويلة من الدرس ألف كتابه « آثار نيو إنجلند » الذي نشره في سنة ١٩٣٥ . وقد ضمنه ملاحظاته التي استخلصها من مجموعات المتحف ، ومن المجموعات الخاصة الموجودة بولايات الشرق ، وقسم الدكتور وولبي الأدوات والأسلحة والحلي إلى فئات مختلفة ، ثم حاول أن يتبين منها من هم بناة المتاريس ، وأن يميز بين القبائل المتنوعة والعصور المختلفة ، بل وحاول أن يخمن اللغات التي كانوا يتكلمون بها ولكنه بصفة عامة لم يهتد إلا إلى القليل .

وكان من أكبر هواة جمع المخلفات جيرارد فوك Gerard Fowke أحد ضباط فرسان الاتحاد فى الحرب الأهلية . وكان قد بدأ هوايته قبل أن تشتعل الحرب بين الولايات ، فلم تأت سنة ١٨٨٠ حتى كان فوك قد رأى من مخلفات الهنود أكثر مما رأى غيره من معاصريه . كان قد اطلع على المجموعات التى يقتنيها مئات من الهواة المحليين من جورجيا حتى منشجان وبوبها فى جداول منظمة ، ومن الطريف أن نذكر أن فوك كان يذرع الأرض على قدميه ؛ لم تكن له ثقة بالقطارات وبخاصة بعد أن حدثت حادثة صغيرة لقطار كان يركبه فى أيام الحرب الاهلية ، فأقسم بعد أن انتهت الحرب ألا يعتلى ظهر حصان ماعاش وبر بقسمه ، وحتى حينما بدأت السيارات الحديثة التى لا تجرها خيول تطوى الطرق بسرعتها الخاطفة لم يحفل فوك بأن تكون له واحدة منها ، كان يعتبر المشى أشرف وسائل السفر وأكثرها أمناً ، وما كان يهمه أن يمشى من ناشفيل بولاية تينيسى إلى لويزفيل بولاية كنتكى ليرى مجموعة جديدة من المخلفات ، أو ليزور ربوة لم يكن قد زارها من قبل . بل وحتى العشرينات من هذا القرن كان فوك بقامته المديدة من المناظر المألوفة على طرق ولايات أوهايو وإنديانا والينوى ، وكان ينتعل دائماً أحذية الفرسان الطويلة التى تبلغ الركبة أو تتجاوزها ، وندر أن كانت من معدات المشى المثالية .

تعلم فوك الشىء الكثير من آلاف الأميال التى قطعها فى تجواله بحثاً عن الآثار ، وانتهى إلى أن هناك أنواعاً مختلفة من الروابى ، أقامتها عناصر شتى من بناة المتاريس يمكن أن نتعرف عليهم من الأدوات الحجرية والحلى التى تركوها من ورائهم ، وقضى فوك بأن بعض الشعوب التى عاشت فى شرقى المسيسبى لم تبن ربى على الإطلاق .

وكان فى مقدرة فوك أن يقسم المخلفات إلى فئات بدراسة أنواعها الكثيرة التى أصبحت مألوفة لديه ، وذهب إلى أن أثمن الاشياء وأكثرها

طرافة هى التى مصدرها أوهايو . والواقع أن وادى نهر أوهايو كان أغنى جهات الولايات المتحدة بالمخلفات . وكان كثير من الأشياء التى عثر عليها هناك مصنوعة من النحاس ، وكان بعضها منحوتاً من الحجر على منوال فنى لا نظير له فى مكان آخر ، وركز فوك فى السنوات الأخيرة من رحلاته دراساته فى منطقة أوهايو ، وألف فى النهاية كتابه « تاريخ الآثار فى أوهايو » وفيه يتفكر فيما إذا كان بناة المتاريس من الأزتك أو من التاهو أو يستند إلى أقوال مختلف الكتاب عن الطريق الذى اعتاد الأمريكيون الأقدمون أن يسلكوه إلى العالم الجديد . ويضمن فوك كتابه كل المعلومات السابقة عن الروابى وبناة المتاريس ويضع قوائم بكل الانواع المختلفة من المخلفات على أساس الفئات التى سبق أن قسمها إليها .

ولكن حتى جيرارد فوك لم يدرك أبداً مدى التعقيد الذى عليه مشكلة بناة المتاريس . ولم يحل الذين جمعوا المخلفات ولا الذين قاموا بدراستها لغز الروابى ، فالحل الصحيح للغز هو فى الآثار الترابية نفسها أكثر منه فى الأشياء المدفونة فيها .

وقبل الحرب الأهلية مباشرة وضع رجلان البداية الحقيقية لعلم الآثار الأمريكية ، وكان أحد الرجلين مساحاً والآخر من رجال المحاماة ، هذان الرجلان اللذان عملا معا على الدوام هما ا . ج سكوير E. G. Squier و ا . ﻫ . ديفس A. H. Davis وكانا لعدة سنوات يعملان فى مسح أراضى حوض نهر أوهايو ويضمان حدود المزارع ، وقد وصلا بعملهما هذا غرباً حتى وسكونسن الغربية وأعالى المسيسبى ، ووجدا آلافاً من الروابى الترابية منتشرة فى المنطقة ، ولكنها تقوم بصفة خاصة فى الجهات النهرية المستوية حيث توجد أحسن الأراضى الزراعية واكتشفا وهما يخططان الحدود بما لديهم من أجهزة المساحة البسيطة أن معظم الروابى التى صادفاها ليست مجرد دكة أو ركام قبور كتلك التى توجد فى بنسلفانيا وفرجينيا .

كان الكثير من روابى حوض نهر أوهايو قد أقيم فى مجموعات ، وكانت الجسور الترابية التى تكونها تأخذ فى الغالب شكل دوائر أو مربعات أو مسدسات أو غير ذلك من الأشكال الهندسية . وكانت الروابى المستديرة أو المستطيلة تصاحب هذه « الأشغال » الهندسية كما سماها سكوير وديفس ، وزاد اهتمام الرجلين بالموضوع فأصبحا ينفقان أقل الوقت فى تخطيط الحقول ، وأكثره فى رسم الأشغال الترابية من بنسلفانيا حتى وسكونسن ووضع الخرائط لتوزيعها . وحملهما عملهما فى النهاية هابطين مع المسيسبى إلى حيث صورا ورسما الخرائط لمعظم المراكز الرئيسية للروابى فى الحوض الأدنى للنهر ، وزارا الأشخاص الذين يقتنون مخلفات الروابى واستفادا من الخرائط التى لديهم .

فى سنة ١٨٤٨ نشر سكوير وديفس نتائج عملهما فى كتاب هو المرجع الأول لعلم الآثار الأمريكية ، وكان عنوانه « الآثار القديمة فى وادى المسيسبى » وقامت على نشره مؤسسة سميثونيان على أنه المجلد الأول فى سلسلة من الكتب . ولأول مرة يعطى كتاب أصبح الآن من التحف النادرة ، مخططاً شاملاً للغز الروابى الكبير . ولم يكن معظم هواة جمع المخلفات الهندية قد أدركوا من قبل مدى المشكلة . لقد كانت الدريئة من النحاس المطروق إحدى العجائب فى ذاتها ، فكيف بربوة تطلبت زهاء عشرين سنة من مائة ألف عامل ليتموا تشييدها ؟ وهكذا دفع كتاب « الآثار القديمة فى وادى المسيسبى » الأمريكيين والأوروبيين إلى الشعور بأعمق ألغاز الماضى . لقد كانت لبناة المتاريس فى عصرهم الأهمية التى كانت للفراعنة ولأهل ما بين النهرين فى زمنهم . ولكن نظريات سكوير وديفس عمن هم بناة المتاريس وإلى أين ذهبوا كانت فى منتهى السذاجة .

مسح سكوير وديفس معظم منطقة الروابى وأشارا إلى ضخامة مشكلتها ولكن هذا لم يكن كل شىء . بل لقد قاما كذلك بالتنقيب فى بعض مجموعات الروابى بعد فراغهما من أعمال المساحة ، وكان تنقيبهما بالمقاييس

الأثرية الحديثة عملاً تخريبياً بغيضاً . كان أشبه « بالحفر عن البطاطس » بتعبير علماء الآثار المحدثين ، بيد أن كثيراً من هؤلاء يودون لو عرفوا القاعدة السحرية التى اتبعاها فى الحفر . لقد كان سكوير وديفس يصلان حتماً إلى أكثر الودائع أهمية من ربوة واحدة فى مجموعة ضخمة من الأشغال الترابية بعد عمل يوم واحد فى الغالب أو ربما يومين ؛ لقد ترك البناة الأقدمون وبخاصة فى وادى نهر أوهايو فى معظم الأشغال الهندسية الخاصة بالطقوس الدينية أشياء جميلة الصنع كقرابين تضمها مخابىء خفية ، وكانت هذه تشمل فى العادة غلايين منحوتة على أشكال الطيور والحيوانات والسلاحف والأسماك ، ودروعاً وخوذات ، وفئوساً من النحاس ، وعقوداً وأقراطاً وغيرها من الحلى . وكانت جميعها من الأشغال الفنية الرائعة التى مهر فيها بناة الروابى ، كانوا يودعونها فى مخابئها كقرابين لآلهتهم ولموتاهم .

كون سكوير وديفس مجموعة من آلاف النماذج تضم أجمل الأشياء التى كان على بناة المتاريس أن يقدموها كقرابين ، وحاولا أن يبيعا هذه المجموعة إلى مؤسسة فى الولايات المتحدة تدفع لهما ما يكفى لتسديد ما أنفقاه على الحفر ، ولكنهما لم يكونا موفقين ، واشترى المجموعة متحف بلاكمور فى سلسبرى بانجلترا وهى الآن مودعة بالمتحف البريطانى .

وبفضل جهود سكوير وديفس وغيرهما من الذين عنوا بدراسة مخلفات الهنود ، اهتمت حكومة الولايات المتحدة آخر الأمر بلغز الروابى وشرع مكتب الاتنولوجية الأمريكية التابع لمؤسسة سميثونيان يعمل رسمياً ، وبدأ سنة ١٨٨٠ فى عملية مسح شامل لكل منطقة الروابى تحت إشراف الدكتور سيروس توماس Cyrus Thomas أحد موظفيه . وشمل المسح خلال السنوات العشر التالية كل ولايات شرق المسيسبى وبعضاً من ولايات الغرب وكان سيروس توماس شعلة نشاط ، فقاد بنفسه معظم بعثات المسح

ووقعت على الخرائط الرسمية كل الربى حتى الصغير منها ، والذى يقع بعيداً عن مسالك المجارى المائية ، وأجريت بعض الحفائر ، ولكن الجزء الأكبر من عمليات المسح كان محاولة لرسم مخطط كامل للوضع كله . وكانت النتيجة مذهلة حتى لسيروس توماس نفسه .

نشرت النتائج الرسمية لهذه المساحة العظيمة الأولى من نوعها فى التقرير السنوى الثانى عشر لمكتب الإثنولوجية الأمريكية سنة ١٨٩٠ . لقد أنجز سيروس توماس وزملاؤه عملاً ضخما فى عشر سنوات . عينوا ووقعوا على خرائطهم أقل من نصف الروابى والأشغال الترابية التى نعرف الآن أنها قد وجدت . وأصبحت ضخامة المشكلة على أى حال ملموسة لأول مرة . ووجدت أنواع مختلفة من الروابى من أونتاريو فى كندا حتى ساحل خليج المكسيك فى فلوريدا ، ووجد عدد ضخم من الروابى التى لم يكن المنقبون الأول يتوقعون وجودها فى أودية الأنهار إلى الغرب من المسيسبى ، فقد كانت ولايات داكوتا الشمالية وداكوتا الجنوبية ونبراسكا ، وكنساس واكلاهوما ، وتكساس ترقشها أشغال بناة المتاريس الغابرين . وقدر مساحو الحكومة أن عندها فى المنطقة كلها ما يربو على المليون . وهو تقدير نعرف الآن أنه كان متحفظاً للغاية .

وحاول كثير من الباحثين أن يقدر عدد ساعات العمل التى استلزمها تكويم كل هذا التراب ، وقال أكثرهم اعتدالاً بأنه يتطلب عشرات الآلاف من الناس يعملون لمئات السنين . إننا نعرف أن هذه الروابى قد أقيمت دون استخدام العربات ذات العجلات أو الاستعانة بالدواب ، فلم تكن العجلة أو الحيوانات المستأنسة التى يمكن استخدامها فى الجر قد عرفتها أمريكا القديمة ، وإنما أقامها عديد من الناس يحملون التراب فى مقاطفهم ومن أماكن نائية فى بعض الأحيان .

ولنتصور كم من عبوة المقاطف قد استلزمها تكويم رابية كاهوكيا

الواقعة فى وادى نهر المسيسبى فى سانت لويس الشرقية . إن الرابية الرئيسية فى مجموعة كاهوكيا عبارة عن هرم ناقص قمته مسطحة وطوله ١٠٨٠ قدماً وعرضه ٧١٠ قدم وارتفاعه ١٠٠ قدم وكان فى مجموعة كاهوكيا فى الأصل ٣٠٠ من هذه الأكوام الترابية الأصغر حجماً بعض الشىء . وتذهلنا ضخامة العمل البدنى الذى تتطلبه حتى فى عصرنا هذا ، عصر البولدوزر والآلات الضخمة التى تحرك التراب ، ولا بد أن درجة تنظيم هؤلاء الناس كانت لا تقل عنها لدى الفراعنة الذين بنوا الأهرامات .

ومن الجلى أن نشاط بناة المتاريس قد امتد حتى شمل أمريكا الشمالية كلها ، وقد أوضح المنقبون الأوائل كذلك أن كان هناك أنواع مختلفة من بناة المتاريس تركوا أنواعاً متباينة من الروابى فى هذه المساحة الواسعة ؛ ولكن هؤلاء الناس القدامى قد ابتعدوا فى نشاطهم التجارى كثيراً عن الروابى التى أقاموها . ففى مجموعات نيو إنجلند وفى أدوات الطقوس الدينية التى وصفها جيرارد فوك ، والتى اكتشفها سكويرو ديفس فى « الأشغال الهندسية » كثير من الأشياء التى جلبت من أماكن تبعد كثيراً عن حدود منطقة الروابى .

ومما يسترعى الانتباه، المعدن الذى كان بعض بناة المتاريس يستخدمونه عادة فى تشكيل أدواتهم . لقد استعملوا الذهب وقليلا من الفضة فى بعض الأحيان ، ولكن النحاس كان أكثر المعادن شيوعاً بينهم ، ويحصل على النحاس نقياً تقريباً من منطقة إيل رويال فى متشجان . وكان هذا النحاس هو الذى أدى بكثير من الكتاب الأول إلى افتراض أن بناة المتاريس كانوا على صلة بالشعوب التى كانت تستعمل المعادن فى العصر البرونزى بأوربا أو بالحضارات التى عرفت كيف تصهر البرونز فى بلاد ما بين النهرين. والواقع أن بناة المتاريس الأمريكيين لم يصنعوا البرونز أبداً ، وإن يكن الكثير من نحاسهم بالصدفة مختلطاً بغيره من العناصر ، وكان بناة المتاريس

يطرقون سبائك النحاس على البارد ، ولكنهم كانوا يحمونه عند شغله حتى لا يتبلور أو يتشقق ، وهذه العملية التى تعرف بالتقسية ليست صهراً حقيقياً . وكان بناة المتاريس الأمريكيون يستعملون النحاس كحجر طروق لا كمعدن .

إن طرق التجارة التى سلكها بناة المتاريس للحصول على النحاس لتدعو إلى العجب . لقد كان لدى بعض جماعاتهم من النحاس أكثر مما لدى غيرهم ، فكان النحاس يحمل من بحيرة سوبيرير إلى خليج المكسيك ، وكانت أصداف الخليج وبخاصة الضخمة منها تنقل إلى أوهايو والينوى . ونقل بناة المتاريس من الجنوب كذلك أسنان القرش وأفكاك البرا كودا التى لابد وأنها كانت من الأشياء القيمة فى الوقت الذى وصلت فيه إلى أوهايو .

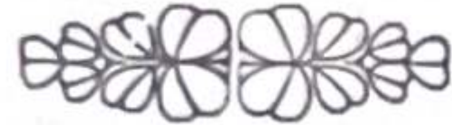
ومن أقصى الغرب ، من المنطقة التى هى الآن نيومكسيكو أو ربما من ويومنج ، حمل تجار بناة المتاريس الأوبسيديان أو الزجاج البركانى الأسود الذى هذبوه لجعلوا منه سكاكين التضحية الجميلة ، وكان يحصل على أسنان الدب السنجابى من منطقة جبال الروكى . وكان بناة المتاريس على الساحل الشرقى يوردون صفائح الميكا الفضية من كارولينا الشمالية والجنوبية ، والأصداف من شواطىء المحيط الأطلسى ، وكان يتجر فى الأحجار التى يسهل حملها ، أوالتى لها جمال أخاذ من كونيكت ونيوجرسى إلى الينوى وأيوا .

وكان كثير من بناة المتاريس يجمعون محار المياه العذبة من المجارى المائية الداخلية . وكانوا يستخدمون الأصداف ملاعق ومجارف ، وربما حصلوا أحياناً على إحدى لآلىء المياه العذبة فكانت تعد كنزاً ثميناً ، وكان لعقد متجانس من اللؤلؤ عند الواحد من زعماء بناة المتاريس نفس الأهمية التى له عند أحد راجات الشرق الأقصى ، وقد كشف علماء الآثار عن قدر كبير من لآلىء المياه العذبة فى إحدى الودائع التى تركها بناة المتاريس قرباناً

لموتاهم ، ويحتفظ متحف أوهايو اليوم بعدد من عقود اللؤلؤ القديمة هذه التى لا يزال لها إغراؤها . وقد قدر ثمن بعض هذه العقود ببضعة آلاف من الدولارات للعقد الواحد .

وبإضافة المعلومات من هذا النوع يزداد لغز الروابى عمقاً . من هم اولئك الناس الذين وسع نشاطهم أكثر من ثلاثة أرباع القارة ؟ هل كان بناة المتاريس فعلا على صلة بالازتك كما اعتقد الرئيس هاريسون ؟ وما مدى عراقتهم ؟ هل هم أسلاف الهنود الحديثين ؟ وإذا كانوا كذلك ، فلم لم يبن هنود العصر الحديث روابى ؟ ولم لم يصنعوا أشغال معدنية ؟ . ماهو مكان بناة المتاريس فى الصورة العامة لأمريكا القديمة ؟ ما هى اللغة التى كانوا يتكلمون بها ؟ وما هى الملامح التى كانت لهم ؟

هذه الأسئلة ومئات من أمثالها سألها كل من قرأ كتاب سكوير وديفس: « الآثار القديمة فى وادى المسيسبى » ولكى يجاب على هذه الأسئلة بدأ أثريو مكتب الاتنولوجية الأمريكية حفائرهم ، فلا يمكن أن يحل لغز الروابى سوى الرفش . وكان لا بد من خمسين سنة أخرى وملايين الرفوش العديدة حتى أمكن حل اللغز فى النهاية .



الفصل الثامن

لغز المتاريس يحل؟

لم يكتشف حتى سكوير وديفس فى مسحهما لمنطقة الروابى من هم بناة المتاريس ، لقد ذكرا عدداً من الفروض الخيالية فى كتابهما « الآثار القديمة فى وادى المسيسبى » ولكن فروضها أثارت من الأسئلة أكثر مما وضعت من الأجوبة ؛ وأصبح من الواضح أن لغز الروابى لن تحله أعمال المساحة الدقيقة ولا الوصف الجغرافى الشامل .

ومن هذا العصر ، عصر الفروض والقصص الخيالية والجمع المهوش ظهر وليم ميلز من رجال متحف ولاية أوهايو . وكان دكتور ميلز نفسه من جامعى الآثار فى شبابه ، ولكنه وجد أن تكويم المخلفات لم يحل اللغز .

ومن ثم بدأ فى سنة ١٩٠٠ يحفر وينقب . واختار مناطق للحفر لم تكن فى ذاتها مما يسترعى النظر ، ولم يقتصر تنقيبه على روابى الطقوس الترابية ، التى وصفها سكوير وديفس بل نبش كذلك فى مواضع القرى التى عاش فيها بناة تلك الروابى ، وقلب أكوام الفضلات التى خلفوها ، وفحص النفايات المحطمة التى نبذوها . ومن مثل هذه الأشياء التى تهمل فى الغالب حصل الأثرى ميلز على أعظم معلوماته .

وشجع التنقيب فى أوهايو فى أوائل القرن العشرين الأثريين فى

الولايات الأخرى فشرعوا ينقبون فيها. بدأ الدكتور فاى كوبر Fay.Cooper ينقب فى ولاية الينوى، ووارن مورهيد Warren Moorehead فى ولاية جورجيا ، و . س . وب Webb فى كنتكى ، وتزايدت أعمال التنقيب الدقيق فى العقدين الثالث والرابع ، وكان على المنقبين فى كثير من الحالات أن يعودوا إلى الأكوام المنهارة التى نبشها جامعوا الآثار من قبل فى غير عناية ، وساءهم أن يجدوا أن المعلومات الثمينة التى يبحثون عنها قد أصابها الدمار فى بعض الأماكن ، ولكنهم مع الأناة وحسن الأسلوب استطاعوا أن يعيدوا تأليف قصة الروابى وبناتها من الأشياء الصغيرة التى عثروا عليها .

وسرعان ما أصبح من الميسور أن يميز الأثريون بين أصناف من الروابى ، وأنواع مختلفة من فنون بناتها ، الذين أطلقوا عليهم أسماء مميزة ، وعرف العلماء أن بناة الروابى لم يعيشوا جميعاً فى زمن واحد ، ولم يكن هناك عصر ذهبى فرد كوم فيه هؤلاء الناس آثارهم الترابية الضخمة . ففى أوهايو مثلا أرجع الدكتور ميلز الأشغال الترابية الكبيرة ذات الأشكال الهندسية إلى شعب سماه « الهوبول » ، ومنشأ الاسم أن الروابى من هذا النوع قد نقبت علمياً لأول مرة فى مزرعة مسز هوبول Mrs. Hopewell بالقرب من تشيليكوث Chillicothe بولاية أوهايو ، وفى الطبقة التى تعلو مخلفات هوبول وجد ميلز وجماعته من الأثريين مخلفات قبيلة أخرى من بناة الروابى سماها فورت اينشنت Fort Ancient ، ولما كانت طبقة فورت إينشنت تعلو طبقة هوبول فيبدو أن شعب فورت إينشنت إنما هو أحدث من شعب هوبول .

ولكن الأسئلة الكبرى عن شعوب بناة الروابى كانت لا تزال بلا إجابة عند وفاة الدكتور ميلز فى سنة ١٩٢٨ ، وحمل هـ . س شترون H. C. Shetrone أحد معاونيه العبء من بعده ، وطلب من الأثريين فى كل أنحاء الولايات المتحدة أن يفدوا إلى أوهايو للمعاونة فى حل المشكلة ؛

الأثريين الذين حفروا فى كل ولايات شرق المسيسبى وفى بعض ولايات الغرب ، وأدت الجهود المشتركة إلى حل اللغز .

كان هناك بصفة عامة طرازان رئيسيان فى إنشاء الروابى . ففى شمال المسيسبى وفى كل جهات نيو إنجلند كان معظم الروابى مستديراً أو مخروطياً ، وكان ركام القبور البسيطة هذه فى العادة صغير الحجم ، يندر أن يتجاوز ٢٠ أو ٣٠ قدماً فى الارتفاع ، وكان المنقبون فيها يعثرون دائماً على هياكل عظمية ولهذا السبب يطلق عادة على مثل هذه الركامات « روابى الدفن » وكانت الربوة التى حفرها توماس چيفرسون فى مزرعته بولاية فرجينيا من هذا النوع .

أما فى جنوب وادى المسيسبى الذى يمتد من سانت لويس حتى خليج المكسيك ، فكانت معظم الروابى مربعة أو مستديرة ، وكانت سطوحها مستوية ، وكان أغلبها على مستويين أو أكثر فى شكل أقطع . وندر أن عثر فى مثل هذه الروابى المستوية السطح على مدافن ، ونحن على علم الآن بأن معظم هذه الروابى لم تشيد لتكون جبانات ، ولكنها كانت الأساس لمبان أو معابد من الخشب . ومن ثم أطلق عليها اسم روابى المعابد أو الروابى ذات السطوح المستوية .

وبدأ الأثريون يميزون أنواعاً أخرى من الروابى بالإضافة إلى هذين الطرازين الرئيسيين منها ، ومن هذه الأنواع تلك الأشغال الهندسية التى توجد فى وادى الأوهايو منتشرة فى ولايات انديانا والينوى وغرب ايوا والتى سبق أن خدعت سكوير وديفس ، وتتكون هذه الأشغال من جسور من التراب ترتفع إلى ١٥ أو ٢٠ قدماً ، أقيمت على شكل دوائر ومربعات ومثمنات وحوائط متوازية « ممرات » . وتحصر هذه الأشغال الهندسية فى الغالب مساحة تزيد على المائة فدان داخل حائط من التراب

على شكل دائرة أو مربع أو غير ذلك . ويوجد فى هذه المساحة غالباً عدد من روابى الدفن فى نظام متجانس .

وثمة نوع آخر من عمائر بناة المتاريس هو التل المحصن ، وقد وجدت بعض هذه التلال فى كل ولاية من ولايات شرق المسيسبى ، وتتركز بخاصة فى ولايات أوهايو وكنتكى وتينيسى ، ومن المحتمل أنها ليست جميعاً من صنع قبيلة واحدة من بناة المتاريس ، إذ أنها تتباين فى صنعها وفى تخطيطها ، وهى كلها أكوام من التراب أو الحجر أو منهما معاً ، جمعت بأعلى تل منعزل لتكون تحصيناً مغلقاً ، وكانت الأجزاء السهلة المرتقى من التل تحصن فى العادة بصف من حوائط مفرد أو مزدوج ، به بوابات ذات مواقع استراتيجية ، وأبواب يهاجم منها المحاصرون أعداءهم المغيرين . أما الجوانب الشديدة الانحدار من التل والأوعر مرتقى ، فيكتفى فى تحصينها بحوائط أقل ارتفاعاً ، وكان معظم هذه المتاريس يعلو سطوحها فيما يحتمل ، أوتاد من الخشب يلقى عليها الحسك زيادة فى تحصينها . وكان بعض حصون قنن التلال يحصر مساحة تبلغ نحو المائتى فدان زودت بالخزانات الصناعية تمد من فيها بالمياه أثناء الحصار .

وهناك نوع مختلف تماماً من هذه الروابى هو تلك التى كانت تشيد على صورة طائر أو حيوان أو ثعبان أو إنسان . وكانت مثل هذه الروابى قليلة الارتفاع فى العادة ذات خطوط مستديرة ، وأكثر ما يكون وجودها فى مجموعات . ولا يدل الشكل العام للتماثيل فى كثير من الحالات على طائر بذاته بل على نوع من الطيور كالنسور والخطاطيف ، وقد مثل فنانو بناة المتاريس الدببة والسلاحف والثعالب بأمانة . وكانت جثث الموتى تدفن فى هذه التماثيل فى أجزاء كالرأس أو القلب ومن ثم فيمكن اعتبار هذه الروابى التمثالية نوعاً فاخراً من روابى الدفن . فقد كانت روابى الدفن المستديرة فى معظم الأحوال تعلوها أمثال هذه التماثيل . وتتركز الروابى

الشمالية فى منطقة وسكونسن ولكنها مع ذلك موجودة فى كل مكان. وينتمى إلى هذا النوع الركام الشهير فى أوهايو والذى يأخذ شكل الأفعى، وقد يكون المعماريون القدماء الذين أقاموا تماثيل وسكونسن هم الذين شيدوا ركام الأبسوم (١) فى تنيسى أو ربما شيده سواهم.

وهناك عدد متنوع من الطرز الأخرى بجانب هذه الأنواع الرئيسية لعمائر بناة المتاريس. فقد تمكن الأثريون أن يميزوا فى بعض أجزاء أوهايو وكنتكى وفرجينيا الغربية نوعاً سموه «روابى نقطة الشيكولاته»، وهو ركام ذو قاعدة مستديرة يأخذ شكل مخروط مدبب، وكان بعض هذه الروابى كبيراً مرتفعاً متناسق الجوانب، ومنه ركام مياميسبورج فى أوهايو الذى يبلغ ارتفاعه ٧٥ قدماً، وركام جريف كريك الشهير بالقرب من دويلنج فى فرجينيا الغربية.

وميز الأثريون فى ميسورى ما سموه «روابى الحدائق» وتدل «الروابى الحلقية» فى شرق تكساس على نوع مختلف من النشاط القديم، كما تدل الميادين والبحيرات الصناعية والأرصفة والقنوات فى جهات فلوريدا كيز ذات الأجمات على أن نشاط بناة المتاريس قد وصل إلى هذه الجهات.

وكانت الأنماط المختلفة من الروابى ترتبط دائماً بأنواع مختلفة من الفخار والنحاس والعظام والأصداف، واستطاع العلماء من خلالها أن يميزوا بين شعوب مختلفة من الناس؛ وأطلقوا على القبائل القديمة أسماء هى فى العادة أسماء المناطق التى عثروا عليها فيها لأول مرة، إذ أن الأسماء الأصيلة قد ضاعت مع الزمن. وهكذا بدأ الأثريون فى جورجيا يتحدثون عن شعب إتواه Etowah الذى يحمل اسم مجموعة الروابى القائمة على نهر إتواه، وفى الباما كانت قبيلة موندفيل هى التى شيدت الروابى الفخمة

(١) حيوان ثديى كيسى شبيه بالكنغر يعيش فى أمريكا (المعرب)

ذات السطوح المستوية فى موندفيل Moundville على نهر بلاك ورير، وفى تنيسى عاشت قبيلة كاندى كريك، وهكذا أعطى الأثريون لقبائل بناة المتاريس أسماء فى كل الأماكن التى خلفوا فيها آثارهم الترابية. ومن الواضح أن كانت هناك قرابة بين الجماعات المتنوعة من بناة المتاريس التى بنت نفس الأنواع من الروابى، وكانت لهم نفس العادات الدينية بصفة عامة. ويؤيد تنوع الفخار وأنواع الأحجار والأصداف والأشغال المعدنية التى عثر عليها فى الروابى أو حولها، وجود مثل هذه القرابة بين القبائل، وقيام علاقات تجارية وأحلاف سياسية فيما بينها.

وكان من أعقد المشكلات أن عدداً من الشعوب القديمة فى الجزء الشرقى من أمريكا الشمالية لم يشيدوا الروابى لا من هذا النوع ولا من ذلك، ويتوهم بعض الأثريين أن هذه الشعوب أقدم عهداً من بناة المتاريس، ولكن لم يقم على ذلك دليل يعتد به.

ومهما يكن من أمر فقد بقيت أسئلة حائرة بلا جواب. من أين جاء بناة المتاريس وإلى أين ذهبوا؟ وما مدى قدم هذه الروابى؟ ومن أين جاءت فكرة بنائها فى المقام الأول؟

حاول عدد من الأثريين الذين عملوا فى منطقة الروابى أن يستخدموا طريقة التأريخ الشجرى مستفيدين من التجارب التى تمت فى الجهات الأخرى. ووفدت على وادى المسيسبى فى سنة ١٩٣٧ إحدى تلاميذ دكتور دجلاس الأول وهى الدكتورة فلورنس إليس Florence Ellis لتضع تقويماً شجرياً معتمداً للمنطقة ولكن عملها انتهى إلى الفشل.

لم يعثر إلا على النزر اليسير من الخشب فى الروابى، فلم يكن الطين المرطوب فى الأودية المطيرة التى شيدت فيها الروابى مما يصون الخشب من التلف. ولكن من ناحية أخرى كان هناك بعض الخشب المتفحم الذى

يمكن المؤرخين الشجاريين من عمل قطاعات يفحصون فيها حلقات عمر الأخشاب . وقد وفقت دكتورة إليس فى الحصول على عدد لا بأس به من عينات الخشب المتفحم من بعض الروابى المختارة فى المنطقة .

ولكن التاريخ الشجرى فى المسيسبى لم يؤد إلى غاية . فقد وجدت الدكتورة إليس أن معظم الأشجار فى أودية النهر « مجاملة » وتعنى بهذا أن الحلقات كانت من التعادل فى النمو بحيث لا تكون أى رسم ذا دلالة . ولم تكن الفترات الرطبة أو الجافة فى وادى المسيسبى فى العصر القديم من الثبات أو الطول بحيث تخلق حلقات واسعة وضيقة تمكن العلماء من وضع التواريخ . وحددت الدكتورة إليس الوقت الذى شيدت فيه روابى معينة وهو تحديد يقوم على التخمين الواعى ولكن صاحبته لا تقطع به .

وحيث فشلت إحدى الوسائل العلمية نجحت وسيلة أخرى . فمع التوسع فى استخدام النشاط الاشعاعى لكربون ١٤ فى التاريخ ، أخذت الروابى الواحدة تلو الأخرى تكشف عن سر عصرها ، وكانت بعض النتائج مذهلة ؛ واستمد معظم التاريخ من أجزاء الفحم النباتى الذى عثر عليه فى الروابى ، إذ قام الفنيون فى معاملهم بإحصاء خفقات النشاط الإشعاعى المنبعث من ذلك الجمر الذى طال على خموده العهد . وكانت التواريخ تتدرج من ١٠،٠٠٠ سنة لبعض شعوب ماقبل بناة المتاريس فى كهف مودوك Modoc بولاية الينوى ، إلى تواريخ حديثة ترجع إلى ١٠٠٠م أومابعدها ، لبناة المتاريس الذين عاشوا فى جنوب وادى المسيسبى ، وكلما ازداد عدد تواريخ كربون ١٤ التى يقرها الأثريون ، كلما أصبحت صورة التسلسل الزمنى واضحة . وكان الإبداعيون القدماء على حق من بعض الوجوه فقد عاشت فى أودية شرقى أمريكا الشمالية منذ آلاف السنين شعوب سبقت بناة المتاريس ، وكان الكتاب الأقل رومانسية على حق كذلك فى أن بعض الروابى لم تشيد بالفعل إلا فى عصر حديث . وسرعان ما قال

الأثريون المؤرخون بأن البعض على الأقل من بناة المتاريس كانوا لا يزالون يشيدون الروابى فى العصور التاريخية ، وقد شهد الرواد الأسبان الذين جابوا الجزء الجنوبى الشرقى من الولايات المتحدة ، أمثال كابيزادى فاكا ، وهرناندو دى سوتو ، وترستان دى لونا ، الهنود وكانوا لا يزالون فعلا يشيدون الروابى الترابية . وقد غفل الرومانسيون الأول تماماً عن هذا الدليل .

أما كيف وصلت طريقة تشييد الروابى إلى العالم الجديد فكانت لا تزال مجهولة . لقد عاش الناس فى أودية اوهايو وتينيسى وسفانا ، وفى غيرها من الجهات المستحبة فى شرقى أمريكا الشمالية دهراً طويلا قبل أن يدخل هذا الفن منذ ستة أو ثمانية آلاف سنة ، وكان هؤلاء الناس يزاولون الالتقاط والصيد للحصول على غذائهم ، ويطلق الأثريون على شعوب ما قبل بناة المتاريس اسم « الشعوب العتيقة » .

لقد صنعت الشعوب العتيقة الشبكة الغصنية [1] التى وجدت تحت بوسطن ، وفى كنتكى جمعت قبائلهم قواقع المياه العذبة وأكلوها ، وتركوا فضلاتها فى أكوام تنتشر على طول ضفاف الأنهار ، وفى جورجيا عاشوا يصطادون الحيوانات الصغيرة ويجمعون الفاكهة والبندق والتوت البرى ، ولم يكن لدى الشعوب العتيقة فى معظم الأحوال فخار ، ولم يبنوا مساكن محكمة بدل الروابى .

ثم دخل فن بناء الروابى فى حوالى ١٠٠٠ ق.م ، ويكاد يكون من المؤكد أنه دخل وادى المسيسبى من منطقة كان قد تأصل فيها من زمن بعيد . وأقدم أنواع الروابى هى روابى الدفن المستديرة . ويبدو أن هذا النوع هو الذى انتشر فى الوادى الأعلى للمسيسبى ، ويوجد عدد من أقدم روابى الدفن التى يرجع بها كربون ١٤ إلى سنة ٧٠٠ ق.م فى ولايات أوهايو

(١) شبكة تصنع من أغصان لصيد السمك (المعرب)

وإنديانا والينوى فمن أين تكون الفكرة قد جاءت ؟ يبدو أن أول بناء للروابى قد بدأ فى قلب قارة أمريكا الشمالية .

ويذهب بعض الأثريين إلى أن فن بناء الروابى إنما جاء من المكسيك . ففى المكسيك وأمريكا الوسطى كان الهنود يشيدون أهرامات من التراب ، وقد شيدوها من الحجر فى بعض الأحيان . ولكن لا يمكن أن نقتفى أثر الروابى الترابية من وادى المكسيك شمالا إلى المسيسبى ، وعلى أى حال فلم يشيد المكسيكيون أبداً روابى للدفن مستديرة .

وقال علماء أخر ربما وصل فن بناء الروابى من آسيا عبر مضيق برنج فقد كانت الروابى وإقامتها شائعة فى آسيا فى العصور القديمة ، وترقش أراضى الاستبس الروسية روابى الدفن التى يمتد تاريخها من العصر الحجرى الحديث إلى عصر البرونز وما بعده . ولكن يحاجهم آخرون بأن ألسكا وكندا الشمالية ليس بها أثر لتلك الروابى ، فكيف يمكن أن ينتقل بناة المتاريس من سيبيريا القديمة إلى أعالى وادى المسيسبى دون أن يتركوا على طريقهم أى رابية ؟

كذلك وجد الفخار مع أقدم روابى الدفن وكان معظم تلك الأوانى الفخارية القديمة مزخرفاً ببصمات حبال مجدولة ، وكان الخزافون القدماء يحصلون على هذه النتيجة بلف قطعة من الحبل حول محراك من الخشب ثم يربتون ظاهر الإناء قبل أن يجف صلصاله ، ويوجد مثل هذا النوع من الفخار فى وسط سيبيريا ، ويمتد انتشاره حتى روسيا الأوربية . ومن ثم فإن هذا الطراز من الفن قد لا يكون أمريكياً أصيلا وربما دخل أمريكا وافداً من آسيا .

فإذا كان الفخار المزخرف قد وصل عن هذا الطريق فلم لا تصل الروابى ؟ وهكذا يمضى الجدل . وتحنق الفكرة بعض الأثريين ويصرون على أن

بناء الروابى إنما هو فن ابتدعه الأمريكيون أنفسهم .

وأياً كانت الجهة التى نشأ فيها بناء الروابى ، فقد عرفه وادى المسيسبى الأعلى فى حوالى سنة ١٠٠٠ ق.م . وظهرت معه الزراعة وصناعة الفخار. ومما يدعو إلى الدهشة أن بعض أقدم الروابى هى أكثرها إحكاماً ، وأن بعض الجماعات الأولى التى قامت بتشييدها هى أعلى الجماعات تنظيماً ، وكانت طقوسهم الدينية أكثر الطقوس تلويناً . وينتمى إلى هذه الفترة الأولى شعب الهوبول الذى شيد الأشغال الترابية المحكمة فى وادى أوهايو ، وينتمى إليها بناة روابى التماثيل فى وسكونسن ، وكان الفجر الأول لعصر بناء الروابى هو الوقت الذى بلغت فيه العلاقات التجارية أبعد حدودها .

وكشف التنقيب العلمى فى روابى الدفن التى ترجع إلى هذه الحقبة الزاهرة من عصر ماقبل التاريخ فى أمريكا، عن وجود ملوك وأمراء قدامى ؛ وقد عرف بعض هذا عندما نقب هـ . س . شترون من رجال متحف أوهايو رابية سيب بالقرب من تشيليكوت ، وقد سميت الرابية بهذا الاسم نسبة إلى إخوان سيب الذين يمتلكون الأرض ، وهى رابية دفن ضخمة تكون جزءاً من سور هندسى بناه شعب الهوبول وتحتوى على تسعة وتسعين مدفناً ، وكان كثير ممن دفنوا هنا قد أحرقت جثثهم ، وكانوا جميعاً فيما يبدو من علية الناس ، فقد كانت المدافن مليئة بالدروع والخوذات النحاسية ، وبمرايا من الميكا، وبكئوس شراب من الأصداف ، وغير ذلك من الممتلكات الشخصية التى لا يمكن أن تكون إلا لأمير خطير من شعب الهوبول ، وكان أحد المدافن يضم جثث أربعة أشخاص لم تكن قد أحرقت كما كان متبعاً ، بل كانت الواحدة منها مضطجعة بجانب الأخرى ، ويبدو أن الأشخاص الأربعة قد أدركتهم المنية فى وقت واحد ، وكان الكهنة قد وضعوا معهم كقرابين نحو ٢٠ جالوناً من لآلىء المياه العذبة ، وهى كمية تربو قيمتها على المليونى دولار بمقاييس العصر الذى نعيش فيه ، وكان

لا يزال لها بريقها رغم القرون الطويلة التى مضت عليها وهى مطمورة فى التراب ، فمن يكون هؤلاء الأربعة الذين لهم كل هذا الثراء والجاه ؟ إن رابية سيب يحيط بها جسر دائرى ومربع مما تتميز به مبانى الهوبول الجنائزية وربما كان بين الهياكل هيكل المهندس الذى شيد هذا المعبد الجنائزى ، وربما كان منهـــا هيكل ملك قرب له رعاياه عند دفنه تلك الكمية الضخمة من اللآلىء .

ولما كان الأثريون قد نقبوا كل روابى الدفن ، فقد بدأت أجزاء التاريخ الأمريكى القديم تتجمع ، وكما فى مصر القديمة تماماً حيث كان الفراعنة وأمراء البيت المالك يوجهون الثروة والأيدى العاملة لبناء مقابرهم ، فعل حكام بناة المتاريس الأمريكيين . ولكن للأسف لم يكن لهؤلاء فى زمانهم لغة مكتوبة ، وليس لدينا نقوش تدل على أسماء الأمراء والزعماء أوتروى قصة أعمالهم .

وسرعان ماصدر الحكم على أساس تاريخ كربون ١٤ وغيره من الوسائل الأثرية الأخرى بأن الروابى أو المعابد ذات السطوح المستوية إنما ترجع إلى عصر أحدث من عصر روابى الدفن . لقد شيدت روابى الأهرامات فى القرون التى تلت ميلاد المسيح ، ويرجع معظمها إلى حوالى سنة ١٠٠٠م وكانت الروابى المستوية السطوح أو روابى الأهرامات منتشرة كذلك فى الواديين الأوسط والأدنى لنهر المسيسى .

ومع أنه لايوجد شىء مؤكد عن نشأة روابى الدفن ، فإن أصل روابى الأهرامات قد أمكن تتبعه . لقد بنيت بعض هذه الروابى ولها أحادير مائلة أو سلالم تؤدى إلى قمتها ، وشيد كثير منها فى شكل مصاطب يتناقص حجمها حتى تبلغ القمة المبتورة . وكان معظم الروابى المستوية السطوح يعلوها معبد خشبى . وتتفق روابى المعابد فى جنوبى المسيسى فى شكلها وفى الغاية المقصودة منها ، مع الأهرامات المدرجة التى شيدت فى المكسيك فى

غابر العصور . هناك روابى من هذا النوع فى شمالى المكسيك ، ولكن سلسلة الاتصال تنقطع فيما بين شمالى المكسيك وتكساس الشرقية حيث تعود هذه الروابى إلى الظهور . ويذهب بعض الأثريين إلى أن فن بناء روابى المعابد ربما نقله مكسيكيون قدماء كانوا يتنقلون فى زوارقهم على طول ساحل الخليج . ومن المؤكد أن الزراعة دخلت وادى المسيسى من المكسيك وأمريكا الوسطى . ومن المحتمل أن يكون فن صناعة الفخار مصدره الجنوب كذلك . فلما لا تكون روابى المعابد والفكرة الجنائزية قد وفدت معهما ؟

والذى دعا إلى الاعتقاد بأن روابى المعابد مكسيكية الأصل ، هو ما اكتشف مع الروابى المستوية السطوح فى المنطقة الجنوبية من أمريكا الشمالية من أدوات واضح أنها مستمدة من الحضارة المكسيكية . فحول روابى المعابد جبانات كان بناة تلك الروابى يدفنون فيها موتاهم ، وكان هؤلاء القوم شأنهم شأن أصحاب روابى الدفن فى الشمال يستعملون النحاس والأصداف والحجر ، ولكن أشغالهم منها تختلف كثيراً عن أشغال شعب الهوبول مثلا . وكان بناة روابى المعابد ينقشون النحاس والأصداف فى تصميمات طولية معقدة ، وكانت هذه التصميمات تبين كهنة يرقصون وعلى رءوسهم قلانس من الريش متقنة ، وكان الصليب المعقوف من الوحدات الزخرفية الشائعة ، وكان من المميزات الأخرى النسر والبلشون وثقاب الخشب وغيرها من الطيور . وكانت جميعاً تنقش فى خطوط تنتظمها تصميمات متناسقة متقنة . ويبدو أن كل مجموعة من الوحدات الزخرفية هى إشارة إلى طقوس لها علاقة بالموت . وكانوا ينقشون على الأصداف والأحجار والنحاس والفخار وحدات زخرفية من الرءوس البشرية القاسية الملامح ، أو الأذرع البارزة العظام . ونحن نعرف أن المكسيكيين كانوا يمارسون عادة تقديم القرابين البشرية على قمم أهراماتهم

ولدينا دليل طيب على أن بناة روابى المعابد كانوا يفعلون ذلك أيضاً ، فالأيدى والأصابع والأذرع التى تظهر فى تصميمهم تشير فيما يحتمل إلى « عبادة الموت » .

وفى بعض أماكن محدودة بجنوب شرق الولايات المتحدة كان بناة روابى المعابد لا يزالون يعملون فيها حينما نزل الرواد الأسبان الأول بالساحل ، ولكن عصر روابى المعابد كان قد انتهى فعلا حينما قام دى سوتو ودى لونا برحلاتهم الاستطلاعية فى الجنوب الشرقى فى القرن السادس عشر ، وكان معظم المعابد قد بلى وانهار فى الوقت الذى أخذ فيه المستوطنون الأوربيون يصلون إلى هذه المناطق ، ونسيت الطقوس المخيفة المفروضة فى المعابد ، ونسى معها الناس الذين كانوا يقومون بها .

وكان فى استطاعة الأثريين أن ينقذوا بالتنقيب كثيراً من هذا التاريخ من أن يطويه النسيان . لقد نقب الأثرى ورن مورهيد مجموعة الروابى المستوية السطوح فى إتواه بولاية جورجيا فى سنة ١٩٢٥ وفيها كشف الدليل عن قبيلة من بناة روابى المعابد دقيقة التنظيم تعيش فى يسر ، وقد بنوا رابية ضخمة يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً وتغطى مساحة من الأرض تربو على الثلاثة أفدنة ، وعلى قمة هذا الهرم الترابى الضخم وقمم غيره من أهرامات إيتواه المستوية السطح شيدوا معابد خشبية لآلهتهم ، ووجد مورهيد فى القبور المحيطة بالروابى أطباقاً نحاسية تدوولت ملكيتها ، عليها رسوم للأيدى البشرية والطيور ، وأصدافاً منقوشة ، وأشياء حجرية نحتت نحتاً معقداً . ويظهر فن أهل إيتواه أنهم أيضا كان لديهم نوع من عبادة الموت وكان إنتاجهم الفنى ينافس فى روعته إنتاج فنانى الهوبول بناة روابى الدفن ومن المؤكد أن كان لزعمائهم نفس الأهمية وكان لتاريخهم نفس المعانى .

ومع ذلك فحينما وصف جارسيلاسو دى فيجا مدون تاريخ حملة سوتو فى سنة ١٧٢٣ طريق الرواد الاسبان على طول نهر إيتواه ، كان بناة روابى

المعابد فى المنطقة قد اختفوا بالفعل ، وكانت معابدهم الخشبية قد بليت تماماً ولم يبق هناك سوى الروابى الترابية الضخمة التى كانت أساس هذه المعابد لتبين أين كان يعيش شعب عظيم .

وكانت موندفيل بولاية الباما مركزاً آخر لبناة روابى المعابد ، فهنا أقام الصناع القدامى ١٩ رابية مستوية السطح فى مجموعة ضخمة ، وهنا أيضاً تركوا أدلة على قدرتهم الفنية الفائقة وكانت فنونهم تشتمل على التصميمات المقبرية[1] لعبادة الموت . وفى موندفيل كما فى غيرها من الأماكن انتزع الأثريون بعد جهد مضنى أجزاء من التاريخ القديم من المفاتيح التى خلفها بناة روابى المعابد من ورائهم .

لقد توغل بناة الروابى المستوية السطوح فى وادى المسيسبى حتى الجهات الجنوبية من وسكونسن . وفى كثير من الحالات غزوا بناة روابى الدفن السابقين لهم .

وأكبر الروابى بكل أنواعها رابية مستوية السطح فى سنت لويس الشرقية تلك هى رابية كاهوكيا Cahokia أو « رابية الرهبان » كما تسمى أحيانا ، إذ أقامت جماعة من الرهبان اللاترابيين[2] على قمتها فى وقت ما ديرا لهم . وهى هرم ضخم يتدرج فى أربع مصاطب حتى يتجاوز ارتفاعه المائة قدم ، وتغطى قاعدته نحو ١٦ فداناً ، وكان فى بطن الوادى من حوله فى الأصل ، مجموعة من الأهرامات الأصغر يزيد عددها على المائة ، وعلى بعد نحو سبعة أميال منه مجموعات من الروابى المستوية السطوح تضم فيما بينها أكثر من

---

(١) إشارة إلى رقصة الموت حيث يمثل فيها الموت بهيكل عظمى يقود الهياكل الأخرى إلى المقبرة (المعرب) .

(٢) فئة دينية تألفت سنة ١٦٦٤ وتنسب إلى مؤسسها الفرنسى لاترّاب (المعرب) .

٣٠٠ رابية . ولروابى المعابد فى كاهوكيا ما لأهرامات وادى المكسيك نفسه من روعة ، وربما كان سكان كاهوكيا من بناة روابى المعابد فى أيام عزهم لا يقلون شأناً عن سكان سنت لويس الشرقية وما حولها من المدن فى الوقت الحاضر .

وبالتنقيب الذى قام به الأثريون فى هذه الجهات الكثيرة التى عاش فيها بناة المتاريس ، انتزعت من الثرى أجزاء من التاريخ الأمريكى القديم جمعت معاً لتغطى هيكلا هاما ، وظفرنا بالإجابة عن الأسئلة الرئيسية التى تتناول لغز المتاريس . لقد بدأت الشعوب العتيقة ، ربما منذ عشرة آلاف سنة ، تعيش فيما يعرف الآن بشرق الولايات المتحدة . ووصلت إليها أسرار الزراعة من الجنوب حيث بدأت . وظهر بينهم فى القرون التى سبقت ميلاد المسيح ملوك وأمراء . وأصبح لهم مجتمع متكامل ، . أنشأوا علاقات تجارية ، ثم بدأوا فى نحو ١٠٠٠ ق . م يشيدون الروابى الضخمة ويقيمون الجسور الترابية تمجيداً لموتاهم .

وتلا عهد روابى الدفن ، عهد روابى المعابد الذى امتد حتى العصور التاريخية . ونكاد نقطع بأن بناتها استوحوا فكرتها من المكسيك ، وربما كان أول ماشيد منها رابية بناها فى جنوب المسيسبى مبعوثون مكسيكيون ؛ ولكن لم يأت الوقت الذى بلغت فيه الإمبراطورية المكسيكية فى وادى مكسيكو أوج عظمتها تحت حكم مونتزوما فى القرن السادس عشر ، حتى كانت روابى المسيسبى المستوية السطوح قد بطل استعمالها بالفعل ، وطوى النسيان عصر بناء روابى المعابد بموت أهله وضياع طقوسهم ، وكانت معظم قبائل الهنود المحدثين الذين التقى بهم الأوربيون قد أقلعوا عن بناء الروابى وممارسة الطقوس المرتبطة بها .

لماذا انقضت عادة بناء الروابى ؟ ولماذا انحلت مجتمعات بناة المتاريس واختفت ، مع ما بلغته من التنظيم ؟ لقد قامت المدنيات الراقية وسقطت من قبل ، وسوف تقوم وتسقط بلا ريب . وكم فى التاريخ من شعوب متبربرة اجتاحت مجتمعات متحضرة فقضت عليها ، ومع المزيد من التنقيب سنحصل على الإجابة عن بعض الأسئلة . ومع كل شذرة من المعلومات يزداد جزء من الصورة وضوحاً . فكل درس من الماضى إنما هو عون للمستقبل .



الفصل التاسع

سدود وحفارون

جرار هائل يتحرك على ضفة النهر ويسحب من ورائه جاروفاً ضخماً كأنه عربة قطار، فيهشم سلاحه شظايا من الفخار والأدوات العظمية وهو يشق التربة الهشة. ويظهر في الأخدود الذي تخلفه هذه الآلة الجبارة خط من الفحم النباتي بحيث من موقد قديم، وهناك جاذير[1] سنادات كانت تكون حوائط من قبل، ويعرى المسحاج المتحرك هيكلا بشريا تزحزح من قبره الذي ضمه مئات من السنين.

واندفع أثرى كالسهم ليلتقط الهيكل، وأشار إلى سائق الجرار يأمره أن يتجه بآلته إلى مكان آخر. واستدعى اثنين من معاونيه، وأكب الجميع يفحصون السنادات وحفرة النار. فقد كانت هذه بقايا منزل مربع أو شبيه بالمربع. وكان الفخار والأدوات المبعثرة على الأرضية الترابية الصلدة قد خلفها القوم الذين أهل بهم يوماً ما هذا المكان.

ولم يحدث أبداً أن أثرياً في كامل عقله قد استخدم جراراً جباراً في أعمال التنقيب الحديثة، ولكن هذا الأثرى فعل ذلك. إن أعمال التنقيب

---

(١) جمع جذمور وهو بقية الشيء.

الحديثة تتجه جميعها إلى بذل المزيد من الحيطة في البحث عن الآثار لا إلى النقيض. وربما يكون بعض الذين نبشوا المواضع القديمة قد استخدموا المساحيج الآلية في تنقيبهم الذى يسميه علماء الآثار متهكمين، بالتنقيب عن البطاطس، ولكن العالم المعاصر لا يمكن أن يستخدم مثل هذه الوسائل المخربة الجشعة. بل يدرب الأثرى الحديث على استخدام المسطرين والمكنسة الخفيفة بيد ماهرة حانية، واستعمال الآلات السنية ليكون عمله جد دقيق.

وعندما أنشىء سد اليفانت بوت على نهر ريوجراندى في سنة ١٩١٥ غمرت مياهه اثنتى عشرة قرية من قرى الهنود القديمة، وعدداً غير معروف من كهوف الشعوب الأقدم، وسرعان ما طمرت الرواسب التى حملها النهر هذه الأماكن تحت عشرات الأقدام من الطين، ولن تقع عين إنسان مرة أخرى على هذه الكنوز الأثرية حتى لو جففت البحيرة التى كونها سد اليفانت بوت. وقال بعض المهتمين بالآثار وقتها إنه عمل سيء أن يخرب مشروع السد جزءاً طيباً من السجل الأثرى للمنطقة، ولكن لم يفعل أحد منهم شيئاً أكثر من الكلام.

وفى الثلاثينات من هذا القرن أقيم كثير من السدود فى جهات متعددة من الولايات المتحدة، وغمرت مياهها المواضع القديمة، وفى نفس الوقت مدت أول شبكة ضخمة من أنابيب الغاز الطبيعى والزيت فى منطقة واسعة، خلقت هذه العملية حفارين مهروا فى استخدام الآلات. وكانت آلاتهم تدب فى الريف وهى تدير دلاء حديدية تحفر خنادق عميقة لكى توضع فيها الأنابيب، وكان الحفارون وهم يشقون خنادقهم يؤذبون كثيراً من المناطق القديمة، وبين الحين والحين يتيسر لعمال الأنابيب أن يخلصوا جمجمة إنسان، أو قطعة من الحجر منحوتة، أو وعاء من الفخار. ورويت قصص عن خطوط أنابيب قطعت مدناً قديمة بأكلها، ورواق ومنازل

محترقة ، وجبانات مليئة بالهياكل ، ولكن القليل منها هو الذى سلم ؛ ولم يلق شىء منها العناية العلمية اللازمة ، ولنقارن هذا بما كان يقوم به الأثريون خلال الفترة نفسها من حفر ثقوب صغيرة فى أماكن متعددة على أمل اكتشاف قصة أمريكا العتيقة ، لقد كان حفارو خطوط الأنابيب وعمال الطرق وبناة السدود يحفرون فى مساحات أوسع آلاف المرات من المساحات التى تيسر للأثريين العمل فيها .

وبعد الحرب العالمية الثانية فكر فى مشروعات جديدة أكثر ضخامة فوافق الكونجرس على إقامة سلسلة متكاملة من السدود على نهر الميسورى وروافده . وكان إنشاء هذه المشروعات الضخمة يعنى رفع كميات هائلة من التراب وغمر مساحات واسعة من أراضى الوادى ، وفزع الأثريون وبخاصة الذين يعملون فى المتحف الوطنى بواشنطن للخسارة التى توشك أن تلحق بعلم الآثار فى هذه الجهات الهامة ، وتمكنوا من إقناع الكونجرس بأن الناس فى أمريكا يهمهم تاريخهم القديم ، ومن ثم أضيفت إلى الميزانية التى سبق أن أقرها الكونجرس الأموال اللازمة لدراسة آثار المناطق التى ستتأثر بالمشروعات ، وكان أهمها وأخطرها مشاكل وادى الميسورى ؛ واستتبع هذا مسح أثرى للمنطقة فكان بلا ريب أكبر عمل عرفته أمريكا للتنقيب عن الآثار .

وفى الجهات الأخرى ، فى نيومكسيكو وكلورادو ويوتاه وأيداهو وأوريجون وأريزونا وكاليفورنيا ، تضمنت مشروعات السدود وغيرها من الأشغال العامة خططاً لإنقاذ المواضع الأثرية التى لولا هذا لأصابها التخريب . واستخدمت مصلحة الطرق وهى أكثر المصالح تشدداً فى مسائل التمويل ، فرقاً من الأثريين لإنقاذ الأشياء ذات القيمة الأثرية التى يكشف عنها شق طريق جديد أو توسيع طريق قديم . بل وحتى شركات الغاز الشحيحة اليد وشركات الزيت ، أخذت تبعث الأثريين لينقذوا المعلومات

الأثرية قبل أن ترسل آلات الحفر لمد خط أنابيب جديد . ثم ليفحصوا جوانب الخنادق بعد حفرها ، ليروا ما إذا كان بها شىء من أدلة التاريخ القديم ، ونتج عن هذا النشاط عدد كبير من الكتب والمطبوعات الحديثة . وبالضرورة تمت بعض عمليات إنقاذ الآثار فى عجلة ، وإلا لما تيسر الكثير منها أن يتم أبداً . وكان من العقبات عدم وجود العدد الكافى من الأثريين المدربين ليوجهوا عمليات الحفر ، وكانت الحاجة ماسة إلى مئات من الحفارين الممتازين ، ولا شك أن هذا العدد سيتضاعف فى المستقبل مع التوسع فى برامج الإنقاذ .

وكانت أعظم الإستكشافات إبانة ، تلك التى تمت فى السهول العظمى بوسط أمريكا الشمالية التى كثيراً ما أهملها الأثريون لسبب وجيه هو أن الأدلة السطحية على قيام أى مدنية كبيرة فيها قليلة للغاية ، فليس فيها أهرام عبادة ، ولا قرى من الحجر ، بل وليس بها روابى التراب . لقد امتد نشاط بناة المتاريس إلى الحافة الشرقية للسهول ثم توقف . ولم يجد العلماء فى البرارى العليا إلا القليل من الأدلة السطحية على قيام حياة قديمة فيها ؛ وعندما عملت المحاريث فى تقليب تربة البرارى الخصبة كشفت عن بعض أجزاء من الفخار البدائى الصنع ، ورؤوس الحراب والفحم النباتى ، ولكن لم يكشف أى دليل محسوس على المعمار ، ولم يكن هناك فى الواقع ما يشير إلى مدنية راقية ، ومن ثم اعتبر الأثريون البرارى منطقة غير ذات أهمية .

ولم يبذل جهد جاد للكشف عما كانت عليه الحياة القديمة فى السهول العظمى إلا فى سنة ١٩٣٣ . وكان قد عرف آنذاك أن أهل سانديا وفلسم كانوا يطاردون حيوانات العصر الجليدى فى المنطقة منذ آلاف السنين ، ولكن لم يستكشف شىء ذو قيمة عن العصور التى تلت ذلك . وقرر الدكتور وليم دنكان سترنج W. D. Strong أن يقوم بعملية مسح أثرى لولاية نبراسكا ، ولما كانت نبراسكا هى قلب السهول العظمى فقد رأى

سترنج أن المخلفات الأثرية التى قد يكتشفها فيها سيكون فيها حل المشكلة ، وهذا ما حدث فعلا .

واستكشف دكتور سترنج ما عرفه كثير من فلاحى نبراسكا المحدثين من قبل . وجد فى أودية الأنهار وعلى ضفاف المجارى المائية الأدلة الكثيرة على قرى الشعوب القديمة ومدنهم . لقد كانت هذه الشعوب تصنع الفخار ، وكانت تنشىء المساكن الطينية وجزء منها محفور فى الأرض ، ولاشك فى أنهم مارسوا الزراعة . وقد فتقت محاريث فلاحى اليوم حفر التخزين هذه التى اصطنعها القوم فى الأرض الصلبة ، وكان فى هذه الحفر مطر ذرة متفحمة تركها الزراع الأقدمون .

ووجد دكتور سترنج أن قوما من الفلاحين القدماء قد عاشوا فى السهول العظمى عهداً طويلا . لقد كانت هناك قرى زراعية ترجع فيما يبدو إلى مئات وربما آلاف من السنين ، وبلغت الحياة الزراعية التى بدأت بسيطة أوج الإزدهار ، وقامت مئات من المدن على طول ضفاف أنهار السهول العظمى ، وقد زرع فلاحو العهد القديم الذرة والقطانى والقرع فى نفس التربة التى يفلحها الآن فلاحو نبراسكا المحدثون وغيرهم من فلاحى ولايات السهول . واستطاع دكتور سترنج من دراسته للفخار وأنواع المساكن التى عاشوا فيها والأدوات التى صنعوها ، أن يميز بين صنفين رئيسيين من فلاحى السهول الأقدمين ، أطلق على أولها اسم « شعب نبراسكا » وعلى الآخر الشعب الريبيليكى الأعلى إذ وجد أن كثيراً من مدنه كانت تقوم على طول نهر ريبيليكان الأعلى .

وعندما شرع الأثريون يفحصون جهات الوديان التى ستغرقها مياه السدود ، اكتشفوا قرى الزراع القديمة فى كل مكان ، لقد كانت المئات من المدن الزراعية تقوم على طول شرفات الأنهار وبخاصة نهر الميسورى

وروافده العديدة ، وكانت هذه المدن من الكثرة بحيث لم يستطع الأثريون تنقيبها جميعاً ، وفى كثير من الأماكن لم يكن فى قدرتهم إلا أن يحفروا اثنين أو ثلاثا من المدن كعينة للمجموعة كلها ، وفى بقع أخرى كشفت الجرافات الآلية التى يستعملها بناءو السدود أنفسهم عن قرى ومدن زراعية أخرى وهم يكسحون التراب لإعداد منافذ الخزان ، ووجد الحفارون وهم يزاولون نشاطهم هذا أدلة على صيادى العصر الجليدى الأقدمين . وبين الحين والحين كانوا يكتشفون موقداً من مواقد جماعى الغذاء الذين عاشوا فى نهاية عصر الجليد . وفى كل مكان كانت تنتشر حلقات الخيام المخروطية التى يسكنها الهنود المحدثون من صيادى الجاموس ، ولكن معظم ما اكتشفه حفارو السدود كان مظاهر الحضارة القروية لعصر الزراعة .

وكان واضحاً منذ البداية وجود أصناف من الفلاحين القدماء أكثر من الصنفين اللذين قال بهما دكتور سترنج . وميز الأثريون أنواعا متعددة من المساكن والتحصينات والفخار والآلات وهم ينقبون القرية تلو القرية ، وكانت كل مساكن الفلاحين محفورة فى التربة لقدم أو قدمين ، وكان هذا يجعل المساكن بلا شك أكثر راحة عندما تجتاح البرارى العواصف الثلجية ، وكانت المساكن تقوم على هيكل من الأعمدة والأعشاب والطين ، ولكن كان هناك تنوع فى هذا التنظيم العام ، كان بعض المساكن الطينية مستديراً والبعض مربعاً ، وكانت القرية تتكون عادة من عشرة مساكن أو أكثر ، وفى بعض المدن كانت المساكن تنتظم فى صف مفرد أو مزدوج ، وفى البعض الآخر لم يحسن التخطيط فكانت المساكن تتبعثر حسبما اتفق .

ومع دخول الزراعة إلى السهول العظمى ظهرت الحروب التى تصحب قيام المدنية فى العادة . وحصنت بعض القرى على طول الميسورى ، وكانت ضفاف النهر نفسها تكون جزءاً من التحصينات فى بعض المواقع وكانت

تعزز غالبا بحوائط من التراب تعلوها أوتاد يلقى عليها الحسك ، وكشف الحفر فى بعض القرى الأخرى عن أنها لم تتخذ أى إجراءات دفاعية ، ويعطى التحصين أو عدمه معلومات تاريخية عن كر القبائل المتعادية وفرها.

وكان الفخار أكثر ما عنى به الأثريون أنفسهم ، فما مارس شعب قديم الزراعة إلا وكان دائما يصنع الفخار ، والفخار غير عملى لدى شعوب الصيد ولكنه عظيم الفائدة فى إعداد المنتجات الغذائية الزراعية وتخزينها ، وليست آنية من الطين قديمة فى نظر الشخص العادى سوى وعاء للحفظ ، وهى لم تكن أكثر من ذلك بلا ريب عند الذين كانوا يسكنون وادى الميسورى منذ ٥٠٠ سنة ، ولكن هذه الآنية من الفخار عند الأثرى مصدر للمعلومات ، فشكل الوعاء ونوع الطين الذى صنع منه ، وهشيم الصخر الذى « قسى » به حتى لا ينشقق ، كل هذه دلائل أثرية قيمة ، وأكثر إبانة الزخارف التى على سطح الوعاء ، فنادراً ما كانت تصنع الأوانى القديمة وهى خلو من زخرفة . وكان التقليد الشائع فى الزخرفة فى السهول العظمى فى العصور القديمة هو البصم بالحبال الذى سبق أن ناقشناه ، وكان كثير من الخزافين فى القرى القديمة يبصمون فخارهم ولكن بطرق مختلفة ، وسرعان ما اكتشف الأثريون هذه الإختلافات .

وكانت الأدوات التى يستخدمها فلاحو السهول تختلف من قرية إلى قرية ، فكان لبعضهم سكاكين للهرس مصنوعة من لوح كتف الملك ، وكان للآخرين فئوس يفلحون بها أراضيهم وهى عادة من العظام ، تتباين فى شكلها وفى طريقة تثبيتها فى أيديها . وكانت هناك أنواع متميزة من السكاكين الحجرية والعظمية ، وكان من أكثر الأدوات دلالة غلايين التدخين ، فقد كان فلاحو السهول القدامى شأنهم شأن كل الزراع الأمريكيين تقريباً يزرعون التبغ ويستعملونه ، وكان شكل الغلايين يدل على أنواع متباينة من الحضارات . كان بعضها أنبوبياً ، وكان البعض منثنياً وهو

نوع يتميز به الفلاح « الريبليكى » ، وكان البعض الآخر يصنع من الصلصال ويزخرف برسوم وجوه بشرية أو رءوس حيوانات وهذا هو النوع الذى كان يستعمله الشعب « النبراسكى » .

وكان الأثريون عندما ينتهى موسم التنقيب فى الخريف ، يحملون فخارهم وآلاتهم والمعلومات التى حصلوا عليها إلى معمل مركزى بجامعة نبراسكا فى لنكولن ، ويقضون شهور الشتاء يتقاسمون معلوماتهم ويعملون على المادة التى جمعوها . وكانت النتائج مذهلة ، فبدلا من أن يكتشفوا عدداً قليلا من القبائل الهندية التى زاولت الزراعة على نطاق محدود ، وجدوا فى السهول العظمى حضارات قروية يزاول فيها الزراعة الكثيفة تركيب قبلى شامل . وبعد سنوات من التنقيب والتمحيص فى مناطق السدود ، بدأ الأثريون يتحدثون عن « نمط السهول الوسطى » و « نمط الميسورى الأعلى » . وفى كل من هذه الأنماط شرعوا يميزون بين المدن الزراعية لكل مجموعة من القبائل على حدة ، وكان فى مقدورهم بفحصهم الأثرى الحذر ، أن يتتبعوا حركات بعض هذه القبائل ، وعرفوا أيها كان فى عداء مع الآخر ، وأى المناطق كان يعتبرها أملاكا له ، وكيف كانوا يحمون هذه الأملاك .

وربما كان أهم ما وصلوا إليه أن أصبح فى استطاعتهم أن يؤرخوا مدن السهول الزراعية فى شىء غير قليل من الدقة ، لقد أهلت هذه الأماكن بشعوب زراعية منذ عهد لا يتجاوز بضع مئات من السنين ، وكان معظم القبائل الزراعية يسكن السهول العظمى ويزرعون حقولهم بالذرة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وبقى عدد من القرى الزراعية حتى العصر التاريخى . لقد وصلتهم فكرة الزراعة من المكسيك أو جنوب غرب الولايات المتحدة ولكن وصولها كان أحدث كثيراً من وصول المؤثرات التى بدأ معها عصر بناء الروابى فى الشرق .

وعندما دخل الجزويت الفرنسيون فى القرن السادس عشر المنطقة التى هى داكوتا الآن وجدوا قرى هنود الهدتسا Hidatsa على نهر نايف فيما يعرف الآن بداكوتا الشمالية ، وكان الهدتسا لا يزالون يعيشون فى مساكن طينية ويصنعون الفخار ويزرعون الذرة فى الحقول المحيطة بقراهم . وكانت البونى Pawnees وهى قبيلة فى شرق نبراسكا لا تزال تحيا فى قرى وتزرع الغلات المختلفة عندما زارهم التجار الفرنسيون لأول مرة ، وكانت هناك قرى زراعية أخرى وبخاصة على الحافة الشرقية للسهول العظمى لا يزال سكانها يحيون هذا النمط من الحياة ، فى نفس الوقت الذى كان المستعمرون الأوربيون يوطدون فيه أقدامهم على الساحل الشرقى ، وكان فيه الإحتلال الأوربى يشق طريقه فى أمريكا .

وبرغم ما قد يتبادر إلى الذهن من أن الأوربيين هم الذين قضوا على الحضارات الزراعية فى السهول العظمى ، فإن الوصف الذى تركه الرواد الأوائل لمنطقة البرارى ينفى هذه الفكرة . لقد وجد التجار القدامى قبائل الهنود يصطادون الجاموس ويعيشون فى حروب متواصلة . فما الذى قد حدث ؟

لقد أدت الزراعة إلى مدنية حقيقية فى جهات أخرى من أمريكا القديمة ، فكان لبناة المتاريس وحياتهم تعتمد على الزراعة ثقافة دينية لها طقوسها الخاصة ، وتعلموا كيف يصنعون الأحجار وغيرها من المواد ، وكانوا يجوبون أنحاء شاسعة من أمريكا الشمالية وراء التجارة فى الحرير الصخرى والميكا والأصداف والنحاس ، فلم لم ينشىء سكان قرى السهول العظمى من الزراع هم أيضاً لأنفسهم حضارة راقية ؟

لا نستطيع إلا أن نقول أنهم لم يكن لديهم الوقت ليفعلوا ذلك . ولو أن الزمن امتد بشعوب السهول لبضعة قرون أخرى لكان من المحتمل أن

يقيموا مدنية كما فعلت كل الشعوب الزراعية الأخرى ، ولا نستطيع إلا أن نحدس بأن فلاحى البرارى هؤلاء كان لا بد لهم فى آخر الأمر أن يشيدوا الأهرامات الحجرية لآلهتهم ، وأن يبتكروا كذلك طريقة للكتابة وتقويماً لتسجيل أحداثهم ، ولكنهم لم يفعلوه . حقيقة إن الزراعة ربما تأخر ظهورها فى السهول العظمى عنها فى منطقة بناة المتاريس فى الجنوب الغربى ، ولكنها لم تتأخر إلى الدرجة التى حالت دون الوصول إلى العظمة .

ونجد مفتاح السر فى إختفاء زراع قرى السهول العظمى فى وصف بعثة هورناندو دى سوتو الذى قام برحلة فى الجزء الجنوبى الشرقى مما يعرف الآن بالولايات المتحدة فى نفس الوقت الذى قام فيه كورونادو برحلته فى الجنوب الغربى . قامت بعثة دى سوتو فى سنة ١٥٤٠ من خليج تامبا فى فلوريدا متجهة شمالا إلى غرب كارولينا الشمالية ثم سارت غرباً إلى ما وراء نهر المسيسبى ، وفى غرب المسيسبى وعلى حافة السهول العظمى حدث الهنود دى سوتو بأن الأراضى التى فى الشمال قليلة السكان للغاية ، وأن الماشية من الكثرة بحيث لا يمكن حماية حقول الذرة منها ، وأن السكان يعيشون على اللحوم . ولا ريب فى أن الجاموس أو البيسون الأمريكى هو « الماشية » التى تحدث عنها الهنود .

وكان كاستانيدا الذى كتب وصف بعثة كورونادو رفيقاً له فى رحلته المشهورة التى قام بها مصعداً فى وادى ريو جراندى ثم متجهاً شمالا بشرق فى الأطراف الغربية للسهول العظمى ، ويحدث كاستانيدا كذلك عن بعض مدن للهنود تحيط بها الحدائق ، ويروى أن « البقر الوحشى » كان وافر العدد .

هذه الشهادة العيان لحياة الهنود فى السهول العظمى فى أواسط القرن السادس عشر تكشف عن حقيقتين هامتين : إحداهما أن بعض المدن الزراعية كانت لا تزال مأهولة حتى ذلك الوقت ، والأخرى أن البيسون الأمريكى كان قد أصبح وافر العدد .

فى نهاية عصر الجليد كان البيسون الضخم الجسم، المستقيم القرون، الذى كان يصطاده إنسان ساندیا وإنسان فلسم قد انقرض ، وحل محله فى عصر ما بعد الجليد صنف أصغر حجماً نطلق عليه الآن اسم « بيسون البيسون » ، وحينما رأى الأوربيون هذا الحيوان لأول مرة أسموه «بالجاموس»، وليس فى أمريكا الشمالية جاموس حقيقى ينتمى إليها بالأصل .

ولا ريب فى أن بيسون أمريكا الشمالية كان موجوداً فى بداية العصر الحديث ، وهناك أدلة على أن بضع سلالات قد تفرعت منه فعلاً ، وقد توغلت إحداها فى غابات شرق المسيسبى حيث ظلت تعيش فى أعداد قليلة حتى عصر الإستعمار الأوربى ، ولكن لم تكن هناك أى سلالة من البيسون الأمريكى موفورة العدد فى القرون الأولى بعد الميلاد. وربما كانت حشائش البرارى لم تبلغ بعد حد الإزدهار ، وأياً كان السبب فقد كان البيسون منتشراً ولكن بأعداد قليلة خلال تلك القرون . وكان فلاحو السهول الأقدمون صيادين أيضا إلى حد ما . وتظهر أكوام العظام التى خلفوها أنهم كانوا يصطادون العلك والغزال وبعض البيسون . ولو أن البيسون وجد بأعداد كبيرة لكانت الزراعة فى آخر الأمر مستحيلة ، فلم يكن لدى الهنود أى نمط من أنماط التسييج لحماية حقولهم ، وكان من المتعذر على أى حال أن تصد قطعان البيسون المهاجرة . ومن الواضح أنه لم تكن هناك قطعان كبيرة من البيسون فى العصر الذى بلغت فيه الزراعة فى السهول أوجها .

وأخذ البيسون تتزايد أعداده وينتشر فى مساحات فسيحة خلال القرن السادس عشر ، وكثيراً ما تخلق الظروف البيئية زيادة مفاجئة فى عدد نوع من الأحياء ، ويمكن لمركب من الظروف المواتية أن يحدث انفجاراً فى عدد نوع من الحيوان . ويقال إن أحوال المناخ والمطر فى السهول العظمى قد خلقت أنسب الظروف لنمو حشائش البرارى الخشنة ، ووجد الهنود أن من العسير عليهم أن يجتثوا تلك المروج ليفلحوا أراضيهم بفئوسهم البدائية

وفى نفس الوقت كانت حشائش البرارى الكثيفة بيئـة مثلى لازدياد قطعان البيسون .

ولم تأت سنة ١٧٠٠ حتى كانت معظم المجتمعات الفلاحية قد انتهت ، وربما لم يكن السبب فى هذا هو إتلاف جحافل البيسون لحقول الذرة فحسب . بل ولأنها أصبحت مصدراً ميسوراً للحوم كذلك ، وثمة سبب آخر هو أن صيد البيسون لابد وأن كان عملا مبهجاً فى حين أن فلح الأرض عملية كئيبة . وفى خلال بضعة عقود ترك معظم الفلاحين فئوسهم وحملوا القسى والسهام ليصبحوا صيادين للبيسون ، وكان فلاحو السهول العظمى هم وحدهم دون شعوب أمريكا القديمة الذين تخلوا عن الزراعة بعد أن تعلموا فنونها .

واستلزم التحول من الزراعة إلى صيد البيسون أكثر من تغيير الطعام فكلما تزايدت أعداد البيسون ، تحركت قطعانها شمالا إلى مراعى الصيف فى الربيع ، ثم تعود إلى الجنوب فى الشتاء التالى ، وكانت تنتقل كذلك إلى الشرق بحثاً عن موارد طعام جديدة وإلى الغرب هرباً من العواصف . وقد تكون القرية الزراعية على الميسورى قريبة من صيادى البيسون فى شهر وبعيدة عنهم فى آخر ، ولابد إذن أن يكون صيادو البيسون من الرحل ، ومن ثم فلا يتيسر لهم بناء مساكن من الطين ، ولا تستطيع نساؤهم أن يصنعن الفخار إذ يتعذر حمل الأوعية والتنقل بها ، وهكذا نشأ عن صيد البيسون نمط للحياة جديد تماماً ، وتم تحول بعض القبائل فيما يبدو خلال عشر أو عشرين سنة ، فهجروا قراهم على ضفاف الأنهار وبدأوا يعيشون فى خيام من الجلد ، وانتقلوا إلى السهول يقتفون قطعان البيسون أينما ذهبت .

وتختلف آلهة الزراعة عن آلهة الصيد . لقد هجرت آلهة الذرة ونسيت ،

ولم تعد آلهة الأنهار والأمطار بذات أهمية، وتحول عنها هنود السهول إلى عبادة «الروح العظمى» التى تهدى الجاموس، وتبأرت حياتهم كلها حول هذا الحيوان.

وظلت قطعان البيسون تتضاعف أعدادها فى صدر القرن الثامن عشر، ولكن لم يكن مفر من أن تصطدم قبائل الصيد المتعددة الواحدة منها بالأخرى، حتى مع هذه الوفرة فى موارد اللحم. لقد عينت حدود أراضى الصيد وتمسك بها القوم فى صلابة، والويل لدخيل يتخطاها؛ وأصبحت الحروب ظاهرة كبرى فى حياة السهول، ومن المؤكد كذلك أن بعض قبائل السهول كانت تحارب للذة العراك، وأدى توفر اللحم بكثرة إلى أن ينفقوا الزائد من طاقتهم فى الحروب.

وبينما كان الفلاحون القدماء يحارب الواحد منهم الآخر أحيانا فى سبيل قطعة من أرض الوادى يزرعها بالذرة، أصبح صيادو البيسون فى الغالب يتحاربون ليحوزوا شرف الإنتصار. وكان المحارب يبلغ نهاية الشرف حينما يصيب خصمه فى المعركة «بعصا الضرب» وهى عصا منقوشة ليست بالسلاح الحقيقى. فإذا تمكن الرجل من أن يضرب بها خصما فى كامل عدته ثم هرب ليروى القصة، استبدت به النشوة وهو يعان الخبر الذى أكسبه أعظم الشرف. وهكذا أصبح لقبائل السهول مع صيد البيسون مجموعة جديدة من النظم والقيم.

وأسرع دخول الحصان فى حوالى سنة ١٧٠٠ من الجهات التى توطنها الأسبان فى نيومكسيكو بعملية التحول فى السهول العظمى. لقد كان الحصان حيواناً منتشراً فى أمريكا خلال عصر الجليد ثم انقرض فى الأمريكتين ونهاية البليستوسين، بيد أن الخيل البرية واصلت حياتها فى أجزاء معينة من آسيا حيث تم استئناسها فى النهاية، وظهر الحصان أولا فى الشرق الأدنى ثم فى أوربا من بعد. وعندما بدأ الأسبان فى غزو العالم الجديد جلبوا

الخيل معهم، وكان الغزاة دائماً يعتلون صهوات الجياد فى المعارك، وفى مؤخرة صفوفهم عديد من الأفراس. وكم هربت جياد وأفراس فى هذه الحملات الأولى، فلم يمض قرن من الزمان على أول غزوة أسبانية كبيرة حتى كانت الخيول البرية قد انتشرت فى السهول العظمى لأمريكا الشمالية. ولم تكن معظم القبائل قد رأت اسبانيّاً قط، ولم يكن لهم إلا قليل صلة بالأوربيين الآخر، ولكنهم شرعوا يمسكون بالخيل ويستخدمونها، ركبوا الجياد وحملوا عليها لحومهم ومتاعهم فلم يأت عام ١٧٠٠ حتى كانت كثير من قبائل السهول تمتلك مئات الخيول وزادت بها قدرتهم على الحركة، وأصبح فى مقدورهم أن يعودوا إلى مضاربهم بلحم أوفر، ووسعت الخيل ميدان معاركهم، وأصبح نهبها جزءاً من أعمال التوسع بالوسائل الحربية.

وعندما وصل المستوطنون الأمريكيون إلى السهول العظمى فى القرن التاسع عشر، كان هذا التحول قد تم بالفعل ولم يبق سوى القليل من حضارات قرى الفلاحين، وكانت الحياة على صيد البيسون فى أوج ازدهارها، ومن المشكوك فيه أن يكون لصيادى البيسون حضارة؛ وحتى ولو مارست قبائلهم فى السهول العظمى هذا النمط من الحياة عدة قرون فالصيد لا يخلف تراثاً إنسانياً عظيما، وهيهات أن يترك قوم يحترفون الحرب أى تراث. وما قامت على حضارة صيد أى مدنية. لقد كان نمط الحياة فى السهول غنياً بألوانه، ولكن لم تكن له فى الواقع نتائج مادية، وندر أن ترك أثراً يمكن اقتفاؤه.

وجاءت نهاية هذا النمط من الحياة مع نهاية البيسون، وكما قضت زيادة البيسون على قرى الفلاحين وضع نقصه نهاية عصر الصيد، ففى عقود معدودة أهلكت بنادق الصيادين الباحثين عن الجلود قطعان البيسون التى هى نتائج النمو فى آلاف السنين، وكانت الحروب الدامية التى خاضها

هنود السهول ضد المستوطنين الأمريكيين وضد الجيش الأمريكى هى فى المقام الأول بسبب إتلاف موارد طعام الهنود ، وتضفى فنون الحرب البديعة التى زاولها الهندى كثيراً من الروعة على هذه الصورة من تنازع البقاء . وعندما نفد البيسون اختفى على عجل نمط الحياة المعتمد على هذا النوع من الحيوان .

وما كان لنا ان نقف على هذه القصة لو لم ينقب الأثريون المناطق التى هددتها السدود بالإغراق ، ونعرف اليوم الخطوط العريضة للحياة الزاهرة التى عاشها فلاحو السهول ، وستزداد معرفتنا بعصر الفلاحة ما واصل الأثريون تنقيب القرى قبل أن تغمرها مياه الخزانات . وقد أوقفت الأحداث المتغيرة تطور زراع القرى وما زالوا فى منتصف الطريق ، فأنهى ظهور البيسون مدنيتهم قبل أن تبدأ فعلا ، وها نحن نرى اليوم أحفاد صيادى البيسون وقد عادوا ثانية إلى الاستقرار . وتحول الهنود المحدثون مرة أخرى إلى الزراعة فى معازلهم بأراضى السهول ، واختلط كثير منهم بالشعب الأمريكى ليصبحوا مهندسين ومعلمين وبنائين . ومن يدرى قد يشيد هؤلاء الأمريكيون القدامى فى السهول مدنية عظيمة بعد أن قطعت سنوات الصيد المثيرة خط تطورهم .



الفصل العاشر

الجنوب الغربى القديم

لحظ ريتشارد ويذريل R. Wetherill اليد البشرية المتحللة بارزة فى شق الصخر وهو يمر لأول مرة بباب الكهف ، وكان المكان موحشاً ، ولابد أن حوائط الحجر الرملى القائمة على جانبى الخانق قد حالت بين الإنسان وبلوغ هذا المكان النائى ، ولكن صورة الشاة الجبلية المنقورة فى حائط الصخر المصبوغ تنم على أن الإنسان قد عاش ذات يوم فى هذا الموضع الوعر بالفعل . وإذا كان هناك أى شك فى هذا ، فى اليد البشرية المتغضنة البارزة من الشق الدليل الكافى .

مشى ريتشارد ويذريل إلى الكهف فى حائط الخانق فوجد المزيد من الصور المنقورة ، ورسوم أكف بشرية صورت بصبغة حمراء وتنقصها بعض الأصابع ، وفى الكهف ألواح حجرية تقوم على حافاتها مكونة دوائر على الأرضية المتربة ، وهنا وهناك فى الفضلات جزء من سلة به زخارف حمراء وسوداء ، وصنادل بالية ، وقطع من حبل من اليوكا مجدول ، ومزاريق أياديها من الخشب . وتقدم ويذريل فانتزع اليد الضامرة التى كانت أول ما استرعى انتباهه ، فسقط من الشق جسم كامل ، فلما أزال عنه التراب وجده مومياء كانت قد حفظت أصلاً فى سلال مزخرفة بنفس الوحدات الحمراء والسوداء .

بهذه الطريقة بدأ ريتشارد ويذريل دراسة آثار الجنوب الغربى سنة ١٨٩٩ فى مكان يدعى جراند جالتش Grand Gulch فى أراضى يوتاه ، وكان ويذريل مغامراً من أسرة مغامرة ، ولم يكن يبحث عن الذهب فى الوهدة ، ولا عن أرض جديدة أو أى شىء له قيمة بل كان يبحث عن المعلومات . كان يود أن يعرف من الذى نقر الرسوم على حوائط الحجر الرملى المتجنيزى فى تلك الجهات الصحراوية ، وكانت تجذبه مجرد الرغبة فى الكشف عن شعب مجهول عاش ذات يوم فى ذلك القفر الموحش ، ووجد فى الكهوف الأجسام المتيبسة لشعب عفى عليه النسيان ، فسمى هذا الشعب القديم « صناع السلال » بسبب ما خلفوا من سلال جميلة .

وقبل أن يعثر ويذريل على أول مومياء لصناع السلال فى مغارة بالجراند جالتش فى ولاية يوتاه بزمن طويل ، حمل الغزاة الأسبان بنودهم متوغلين فى المكسيك الشمالية ومصعدين فى وادى الريوجراندى ، ووجد كورونادو وخلفاؤه فى سنتى ١٥٤٠ و ١٥٤١ نحواً من خمس وسبعين قرية من قرى الهنود لا تزال مأهولة ، ومن حولها أطلال قرى أخرى لم تهجر إلا منذ عهد قريب .

ووضح أن نمط الحياة فى قرى كان واسع الإنتشار فى وقت ما ، وكانت مئات القرى الهندية تمتد من بروز تكساس ومن جنوب غرب كنساس عبر جنوبى كلورادو إلى يوتاه وشمالى أريزونا فى الغرب . وقد عثر الأسبان على مجموعات من أطلال القرى فى تشهواهوا الشمالية فى المكسيك القديمة وكان سكان معظم هذه القرى قد تركوها عندما رأى الأسبان لأول مرة حوائطها المنهارة وأسواقها الخربة ، وكان واضحاً حتى من مسح سريع لأطلال الجنوب الغربى أن عشرات الآلاف من قرى الهنود قد ظهرت هناك فى عصر سابق ، وأن عددها قد تضاءل للغاية عند وصول الأسبان وكانت القرى الخمس والسبعون التى ظلت تنبض بالحياة ، هى البقية الباقية

من مدنية قديمة كانت فى طريقها إلى الزوال . وقد وجه كثير من الأثريين الأمريكيين اللوم إلى الغزاة الأسبان على تقويضهم نمط الحياة القروية ، والواقع أن الأسبان قد حفظوا ذلك الجزء الذى بقى من المدنية والذى كان على حافة النسيان عندما ظهروا على المسرح .

لقد سجلت الحوليات الأسبانية كثيراً من تاريخ الأيام الأخيرة لهذه « الأركيولوجية الحية » ، ودون القسس الأسبان وموظفو الحكومة الأحداث التاريخية المختلفة لسكان القرى التى وقعت فى أيامهم ، وبنى القسس الكنائس والبيع فى القرى التى بقى من سكانها ما يبرر إنفاق المال وبذل الجهود . وتبعاً للتقاليد المسيحية كان الأسبان يبنون بيعهم عادة فوق أكبر معابد القرية المعنية ، ولكن لم تكن هناك كتب تقنن للقرويين طقوسهم . كان لهم بعض الأصنام التى استطاع القسس المسيحيون تحطيمها ، وحوّل الأسبان هنود القرى إسمياً إلى المسيحية ، ولكن الهنود لم يتخلوا أبداً عن عقيدتهم ، وظل معظم هنود القرى المحدثين وثنيين كما هم مسيحيون فى نفس الوقت ، وكان القدماء منهم يغشون معابدهم حتى فى الوقت الذى كان يقام فيه القداس فى الكنائس المسيحية .

أخذ القرويون يتناقصون ويموتون حتى مع وجود الكنائس المسيحية بينهم ، وفى ثورة القرى لسنة ١٨٦٠ هب الهنود وقضوا على السيادة الأسبانية ولكن الأسبان استردوا سلطتهم وأعادوا الهنود إلى القرى التى فرّوا منها ، ولكن على أى حال أخذت القرية تلو القرية تخلو من سكانها وتحول خرائب كسائر القرى ، فلم يبق منها وبداية هذا القرن سوى خمسة وعشرين قرية تضم سكاناً يعيشون حياتهم القديمة .

وحتى فى يومنا هذا لا تزال تقام حفلات رقص المطر والحصاد فى القرى الخمسة والعشرين التى ظلت مأهولة بالسكان ، ويبعث الماضى حياً أمام الزائر الذى يستعرض هذه الاحتفالات ، فجماعات الطب التى تعرض

الاحتفالات ، والكهان ، والملابس والطقوس ، كل أولئك إنما انحدر من الماضى عبر القرون ، وكان لابد لهذه الحياة أن تترك أثراً ضئيلا فى الأطلال المتداعية لبعض القرى المهجورة ، وأنه لمن المدهش حقاً أن تكون لدينا الصورة الأخيرة للحضارة الأمريكية العتيقة . فلا تزال الأصنام المطلية كامنة وراء المذبح ، وعلى عكس ما حدث فى الجهات الأخرى التى فتحها الرهبان الأسبان أثبتت ديانة هنود القرى قدرتها على الصمود . وهى لاتزال كذلك . وربما كان الأسبان أكثر واقعية من أن يتعمقوا فى ماضى حياة سكان القرى . فمن أين أتت شعوب القرى فى المقام الأول ؟ وهل عاش أى شعب قديم فى الجنوب الغربى قبل أن يبنى القرويون مدنهم المتعددة الطبقات ؟

بعض هذه الأسئلة سألها فعلا المستكشفون الذين جاءوا إلى الجنوب الغربى فى القرن التاسع عشر . وقد وصف الكسندر همبولت ، البارون الألمانى صديق جيته ، كثيراً من العمائر القديمة التى رآها أثناء رحلاته فى مكسيكو الشمالية ، وكانت له افتراضات عما قد تعنيه هذه الآثار . وثمة رائد آخر عاش وتجول فى الجنوب الغربى فيما بين عامى ١٨٦٠و١٨٨٩ هو الرحالة السويسرى البحاثة أدولف باندلير A. Bandelier ، وقد لاحظ باندلير وجود أنواع مختلفة من الخرائب ، وبهره ماهو واضح من أن كثيراً من هذه الأماكن الصحراوية المقفرة قد أعالت عدداً ضخماً من السكان فى العصور القديمة . فما هو تاريخ هؤلاء الناس ؟

وترددت هذه الأسئلة التى لم تفت معظم الرواد الأول ولكنها لم تجد الجواب . وكانت الخرائب المشابهة التى فى الجنوب ، فى وادى المكسيك وفى أمريكا الوسطى تجتذب معظم الباحثين الأوربيين . ولم تكن للهنود سكان القرى كتابة على الإطلاق ، ولم يشيدوا أهرامات ضخمة من الحجر أو أى شىء آخر شبيهاً بأهرامات المعابد فى أمريكا الوسطى ، ولو

أن أحداً ذكر الموضوع فى سنة ١٩٠٠ لكان الرد الذى يسمعه هو أن آثار الجنوب الغربى كانت هامشية وغير ذات أهمية .

لقد ولد ريتشارد ويذريل فى هذه الجهات ، وكان مهتماً بالجنوب الغربى لهذا السبب ، ورغم أنه لم يتلق سوى القليل من التعليم الرسمى ، إلا أنه كان مولعاً للغاية بالتاريخ القديم ؛ وقد لاحظ ويذريل وجود خرائب القرى على رءوس الهضاب .

وعندما عثر ريتشارد ويذريل على كهف صناع السلال فى الجراند جالتش أدرك لفوره أنها شىء غير مألوف ، وكان من الواضح أن الشعوب التى صنعت مثل هذه السلال الجميلة وعاشت فى كهوف الحجر الرملى بالمنطقة شعوب قديمة ، وكانت الأشياء التى صنعوها تختلف عما صنعت شعوب القرى الهندية ، واعتقد ويذريل أن صناع السلال أقدم عهداً من سكان القرى ، وكان رأيه أصح مما عرف .

واكتشف ريتشارد ويذريل وإخوته هضبة فى جنوب غرب كلورادو تدعى « ميزافردى » ، يقطعها عدد من الخوانق العميقة وقد كونت عوامل التعرية فى جوانب الخوانق منذ عهد بعيد عدداً من الكهوف والنتوءات ، وفى هذه الكهوف عثر الإخوة ويذريل على مساكن مبنية فى طبقات متعددة ، وعلى أبراج ومعابد مقدسة وعلى مدرجات صناعية . وقد أطلقوا على أول ما عثروا عليه منها اسم « قصر الجرف ، Cliff Palace نظراً لجمال بنائه .

وكان أهل الجروف الذين سكنوا فى مساكن خوانق ميزافردى فى رأى الأخوة ويذريل شعباً غامضاً عفى عليه النسيان منذ عهد بعيد ، ولم يكن الغموض يكتنف نشأتهم فحسب بل واختفاءهم أيضاً ، فلم ترك أهل الجروف هؤلاء مساكنهم فى تلك الجروف الخفية ؟ وفى بعض الأماكن عثر أبناء ويذريل على أوانى فخارية وفئوس حجرية ملقاة على أرض الغرف

الخاوية كأنما وضعها أصحابها هناك ثم ذهبوا ولم يعودوا ، وفى حماس نقب الأخوة ويذريل مساكن الجروف هذه وعرضوا ماعثروا عليه من الآثار فى دنفر ثم فى معرض شيكاجو لعام ١٨٩٣ — ١٨٩٤ ، وأثارت المعروضات الكثير من الفضول ، وحتى الاوروبيين سحرهم غموض صناع السلال وأهل الجروف ، وأنفق البارون نوردنشولد موسم سنة ١٨٩١ كله فى الحفر مع الأخوة ويذريل فى مدن الكهوف بهضبة فردى وأثار عرض مخلفات أهل الجروف إهتمام الأثريين الأمريكيين .

وفى مطلع هذا القرن كان معظم الأثريين الأمريكيين على علم بالآثار المايوية والمكسيكية وكان بعضهم قد بدأ ينقب فى منطقة الروابى ، ولكن الأخبار عن مدنيات قديمة فى الجنوب الغربى من أمريكا كانت مفاجأة حتى لهؤلاء العلماء . وإنها لمفاجأة فعلاً أن يكون للهنود الجهلة قدرة على بناء مساكن حجرية متعددة الطبقات تتجمع فتكون مدناً رائعة .

وشرع بضعة من العلماء يعملون فى الجنوب الغربى فى أواخر العقد الأول من هذا القرن . وتوافد الباحثون من معهد سمثونيان على القرى المأهولة وفى ظنهم أنها قد تحتوى على مفتاح تاريخ الشعوب الغابرة ، وعمل الدكتور ج. ولترفيوكس J. W. Fewkes فى قرى الهوبى بشمالى أريزونا، وفى هضبة فردى ، ورسم الخرائط لبلاد الهوبى ، ونقب فى بعض قراها المهجورة وقال بأن هذه المدن الخاوية على عروشها قد سكنها هنود الهوبى الآنفو الذكر .

ولكن فضل السبق إلى دراسة آثار الجنوب الغربى كان للأخوة ويذريل أكثر منه للعلماء ، فهم الذين اكتشفوا صناع السلال فى جراند جالتش ، وأهل الجروف فى هضبة فردى ، ثم عثروا فيها بعد عندما سكنوا خانق شاكو فى نيومكسيكو على مركز كبير للحياة القديمة هناك . وقد لقى ريتشارد

ويذريل الأثرى الرائد مصرعه على يد هندى نافاچوى فى خانق شاكو سنة ١٩١٠ .

ومن أكبر الذين أصبحوا مهتمين بآثار الجنوبى الغربى ، بعد الأخوة ويذريل الدكتور ا . ف . كدر A. V. Kidder ، وكان الدكتور كدر وهو من خريجى جامعة هارفارد قد عنى أول مرة بروابى ولايته ماساشوستس ، وكان أيضاً على دراية تامة بتاريخ المايويين والمكسيكيين ، وشعر كدر بأن كثيراً من مشاكل التاريخ القديم إنما يوجد فى الجنوب الغربى لأمريكا ، وهكذا رحل هو وصديقه س. ج. جيرنسى S. J. Guernsey إلى المنطقة.

وفى سنة ١٩١٠ فى أعقاب مصرع ريتشارد ويذريل مباشرة ، سار كدر وجيرنسى على النهج الذى اختطه الأخوة ويذريل منقباً فى عدد من كهوف صناع السلال مثل كهف صنفلور Sunflower وكهف هوايت دُج ، فى المنطقة التى تتلاقى فيها حدود الولايات الاربع ، يوتاه ، وأريزونا ، وكاورادو ، ونيومكسيكو ، وعثرا على أدلة عن حياة قديمة ، تماماً كما فعل ويذريل من قبل ، ووجدا أن فى استطاعتهما أن يستعيدا صورة حياة شعب قديم من الموميات والسلال والأسلحة والأدوات . كان هذا الشعب من الصيادين وكان قد بدأ لتوه يمارس الزراعة ، وفى بعض مناطق صناع السلال المتأخرين زمناً وجد الفخار كذلك ؛ ومن ثم فقد كان صناع السلال هؤلاء شعباً قديماً على شفا المدنية ، وكان الأخوة ويذريل قد سموهم « بصناع السلال » وهو اسم مناسب استمر يستعمله الدكتور كدر ومعاونوه .

ولكن أهل الجروف وبناة القرى يمثلون مشكلة أكثر تعقيداً ، وقد اتخذ دكتور كدر من قرية بيكوس القديمة التى تقع قريباً من مدينة حديثة تحمل نفس الإسم فى ولاية نيومكسيكو ، محلاً مختاراً لحفائره الرئيسية ، وكان من الممكن أن يختار أى واحدة من آلاف قرى الهنود فى نيومكسيكو أو أريزونا ليبدأ فيها تنقيبه . ولم تكن لقرية بيكوس فى الواقع حجم

بعض الأطلال الأخرى وروعتها ، وإنما اختارها كدر لأنها من القرى التى كانت لا تزال مأهولة عند مجىء الأسبان . وبالفعل بنى الرهبان الأسبان كنيسة فى قرية بيكوس ليحولوا ما بقى من الهنود إلى المسيحية ، ولكن لم يحل وجود الكنيسة ولا القرب من المراكز الأسبانية دون اندثارها ؛ ففى سنة ١٨٣٨ خرج آخر سكانها وذهبوا ليعيشوا مع أقاربهم فى قرية خيميز ، وقد دوّن الأسبان تاريخ بناء كنيسة بيكوس وخروج آخر سكانها ، وعرف الدكتور كدر أن هناك نقطة ذات تاريخ معلوم ، يمكن أن يبدأ منها الحفر ويصبح من الميسور تحديد تاريخ الطبقات التى تقع تحتها .

ونقب دكتور كدر وعماله الغرف والميادين والمعابد فى بيكوس الدارسة خلال العقد الثالث من هذا القرن ، فوجدوا أنها مدينة قديمة يرجع إنشاؤها إلى حوالى سنة ١٣٠٠ م ، واستطاع المنقبون أن يفرقوا بين عدد من المستويات تميز طرز العمارة المختلفة فيها وأنواع الفخار فترات مختلفة .

ولكن لم يكتشف كل ماقبل تاريخ الجنوب الغربى فى بيكوس ، ومن ثم دعا دكتور كدر فى سنة ١٩٢٧ كل الأثريين الذين يعملون فى الميدان إلى اجتماع فى بيكوس . كان بعض المنقبين كالدكتور نلز نلسن Nels Nelson من رجال المتحف الأمريكى قد شرعوا ينقبون فى عدة قرى قديمة فى حوض جالستيو بالقرب من سانتافى ، وكان آخرون مثل صمويل ابير ، ونيل جود قد بدأوا يحفرون فى قرى خانق شاكو الضخمة حيث عاش الأخوة ويذريل ، وكان فرانك روبرتس من رجال المتحف القومى ، قد أخذ ينقب فى أماكن صناع السلال كما ينقب فى قرى الهنود ، وكان من رأى دكتور كدر أنه لو تلاقت جهود هؤلاء الأثريين جميعاً وتبادلوا المعلومات فيما بينهم فسيتمكنون من حل ألغاز الماضى الغابر .

وما لم يجده كدر فى بيكوس اكتشفه الآخرون فى غيرها ، وكان مؤتمر بيكوس إعلاناً باستقلال أركيولوجية الجنوب الغربى ، ووضح من نتائج

الاجتماع أن صناع السلال وأصحاب القرى لا تربطهم قرابة بالمكسيكيين ، وظهر خطأ الفكرة القديمة القائلة بأن قرى الهنود هى من بناء الأزتك ، وأن السكان القدماء فى الجنوب الغربى كانت لهم عظمتهم الشخصية ، فقد خلقوا سلسلة من المدنيات بلغت أوج عظمتها فى فترة ما من الماضى السحيق ، وكانت هذه المدنيات تعتمد على الزراعة شأنها فى ذلك شأن المدنيات التى قامت فى منطقة الروابى وفى المكسيك القديمة ، وكانت أهم خصائص مدنيات الجنوب الغربى هى مبانيها التى كان بعضها بالطوب والبعض الآخر من الأحجار ، ولم تشيد هذه الشعوب روابى ، ولم تنشأ تلك الأهرامات المستوية السطوح ، بل بنى القدماء من أهل الجنوب الغربى وهم فى أوج عظمتهم ، مبانى ضخمة متعددة الطبقات كان بعضها يحتوى على نحو ستة آلاف غرفة ، وكانت لهم كذلك احتفالاتهم الفنية المتنوعة .

وكان التقويم الشجرى الذى ابتكره دكتور ا . دجلاس عظيم الفائدة كعامل مساعد للأثريين الذين كانوا يدرسون الجنوب الغربى ، فقد حسب المنقبون الأوائل العصور بالقرون وبطبقات التربة المتعددة ، ولكن بتقويم دجلاس يمكن أن تحسب بالضبط السنة التى شيد فيها بناء ما ، ويمكن تاريخ قطاعات الكتل الخشبية المنتزعة من مساكن الجروف أو مبانى القرى بحلقاتها الشجرية ، حتى لنستطيع أن نذكر بالضبط السنة التى اجتثت فيها فأس حجرية الشجرة التى منها الكتلة .

وكان مؤتمر بيكوس للآثار أول اجتماع من نوعه ، ومن بعده أخذ علماء الآثار يجتمعون سنوياً ليتبادلوا المعلومات وليعلنوا عن مكتشفاتهم ، ولا يزال مؤتمر بيكوس ينعقد سنوياً فى أماكن مختلفة من الجنوب الغربى حيث لا تزال أعمال التنقيب جارية .

وقد أسفرت الاجتماعات الأولى لمؤتمر بيكوس عن ابتكار جدول

للتسلسل الزمنى للحياة القديمة ، وكانت العصور التى أقرها المؤتمر والتاريخ التقريبى لكل منها كما يلى :

القرى	٥	حديثه
القرى	٤	— ١٤٠٠ م
القرى	٣	— ١١٠٠ م
القرى	٢	— قرى فى دور الترقى
القرى	١	— ٩٥٠ م
صناع السلال	٣	— ٧٠٠ م
صناع السلال	٢	— ٤٠٠ م
صناع السلال	١	— ١٠٠ ق.م (؟)

وصححت بعض الأخطاء السابقة . لقد كان صناع السلال فعلاً أسبق من سكان القرى كما قال ويدزيل فى أول الأمر ، ولكنهم لم يكونوا شعبين مختلفين ؛ لم يكن صناع السلال « الطوال الرءوس » شعباً منفصلاً يختلف عن بناة القرى « العريضى الرءوس » ؛ بل كل ما هناك أن النساء من سكان القرى قد بدأوا يربطون أطفالهم إلى مهاد من الخشب الصلب مما أدى إلى فلطحة القذال الطرى للأطفال ، وأنتجت هذه العادة « الرءوس العريضة » التى تميز بها سكان القرى فيما بعد ، وأظهر المزيد من التنقيب فى هضبة فردى وفى غيرها من أماكن أهل الجروف أن هؤلاء القوم كانوا أيضاً جزءاً من نظام كبير يشمل الجنوب الغربى ، ولم يكن أهل الجروف إلا مجرد قوم من أهل القرى بنوا مساكنهم فى الجروف احتماء من تقلبات الطقس ، وتدل مبانيهم ومعابدهم وفخارهم وكل ما تركوا من مخلفات على أنهم لا يختلفون فى شىء عن جيرانهم سكان القرى .

وانتهت مؤتمرات بيكوس إلى إطلاق إسم « أنسازى » Anasazi على الهيكل العام لنمط الحياة ، وهى كلمة نافاجوية كان رتشارد ويدزيل كثيراً ما يستعملها . وكان النافاجويون يلقبون ويدزيل نفسه بالأنسازى لفرط اهتمامه بالأوابد .

ومع أن الزراعة قد جاءت من الجنوب قبل الميلاد ببضعة قرون ، فإن معظم التقدم الأنسازى إنما حدث بعد الميلاد ، وكان أهمه ما تناول العمارة والاحتفالات ، ويظهر أن الأنسازيين لم يشعروا بالحاجة إلى تقويم أو إلى طريقة للكتابة ، ولكنهم بلغوا شأواً بعيداً فى الفن المعمارى ، وكان عصر القرى ٣ هو العصر الذهبى للتقدم الأنسازى ، فى هذا العصر بنى الهنود مدنهم من كلورادو وكنساس فى الشمال إلى ولاية تشيهواهو المكسيكية فى الجنوب ، وامتدت أراضيهم حتى نيفادا فى الغرب وحتى نتوء تكساس فى الشرق ، وكانت أعظم هذه المدن فى أماكن كخانق شاكو فى شمال غرب نيومكسيكو وعلى طول نهر كلورادو الصغير فى شمالى أريزونا. وقد أصبح خانق شاكو الآن وادياً جافاً تقوم على جانبيه حوائط من الحجر الرملى . وبنى أهل القرى اثنتى عشرة مدينة كبيرة وبضع مئات من القرى الأصغر على امتداد عشرات الأميال فى خانق شاكو. وكانت أشهر بنايات خانق شاكو هى مايسمى بمدينة بونيتو ، التى شيدت بأحجار مهذبة الشكل وكانت تغطى ثلاثة أفدنة من الأرض وتضم أكثر من ٨٠٠ غرفة وكانت بعض أجزائها من أربعة طوابق ، ولم يقتصر بناؤها على صفوف من الغرف لكل الأغراض فحسب بل واشتمل على غرف العبادة المستديرة كذلك . وظلت بناية بونيتو وبعض مبانى القرويين الأخرى أكبر ما عرفت أمريكا الشمالية والجنوبية من المبانى حتى بنيت فى نيويورك سنة ١٨٨٢ م عمارة أكبر منها ، وكانت مدينة بونيتو فى أيام مجدها فى حوالى سنة ١٠٠٠ م تتسع لنحو ١٫٥٠٠ ساكن ، وفى حوالى ١١٠٠ م هجر سكان مدينة بونيتو

وغيرها من المدن الأخرى فى خانق شاكو مساكنهم الجبلية بكل بساطة .

ولكن حينما كانت مدينة بونيتو فى أوج مجدها كانت بيعها تدوى بالطقوس والترانيم ، وقد عثر المنقبون على مذابح منحوته ، وألواح من الحجر مزخرفة ونقوش فى الصخر تبين الطقوس التى كانوا يمارسونها ، ويمكن أن نخرج بفكرة عن ملابسهم المزخرفة ، ورقصاتهم المتقنة من دراستنا لهنود القرى المعاصرين ، فطقوس حفلات المطر ومراسم الاحتفال بالشفاء التى يمارسها هؤلاء هى بلا شك نفس الطقوس والمراسم التى كان يمارسها سكان القرى فى شاكو منذ ألف عام .

وظل الأنسازيون بجدهم حتى فى عصر القرى ٤ . لقد حدثت اضطرابات وهجرات واسعة ، فدرست مدن شاكو ، وأقفرت مساكن الجروف فى هضبة فردى ، وخلت معظم القرى الكبيرة الأخرى من سكانها ، وتوجد فى بعض الأماكن أدلة عن أعمال حربية ، ولكن يبدو أن معظم المساكن الجماعية الكبرى قد تركها سكانها مصالحة ولأسباب أخرى . وشيدت مدن حديثة ربما كان بعضها أكبر من القديمة على طول نهر ريوجراندى . واستمر أهل القرى يعيشون حياتهم المألوفة فى الجنوب ، فى الجهات التى هى الآن ولاية تشهواهو المكسيكية . وبنى عدد من أكبر مدن الأنسازيين فى عصر القرى ٤ وكان من هذه المدن الضخمة مدينة سپاوى بالقرب من إلريتوفى نيومكسيكو ، ولم تجر أى عملية تنقيب فى سپاوى ولكن نستطيع أن نحكم من أطلالها الظاهرة أنها كانت تضم أكثر من ٦٠٠٠ غرفة ومعبد .

ولكن عوامل الإنحلال والفساد كانت قد تسربت فعلا إلى عصر القرى ٤ . ويتحدث التاريخ الشجرى عن فترة جدب امتدت من سنة ١٢٧٦ إلى سنة ١٢٩٩ ، وربما كان هذا هو السبب فى خراب هضبة فردى ؛ ولاشك

فى أن هذه الكوارث قد زعزعت من إيمان الأنسازيين بآلهتهم ، وأخذ أسلوب الحياة الانسازية ينهار فعلاً فى عصر القرى ٤ .

وفى نحو هذا الوقت انحدر من الشمال عدد من الهنود النهابين يدعون بالاتبسكيين ، وتحرك هؤلاء الأتبسكيون الذين أطلق عليهم فيما بعد إسم النافاجو والأباش نحو الجنوب ، من جهات ربما كانت تمتد شمالاً حتى شمال غرب كندا وألسكا . ولم يزرع النافاجو والأباش فى أول أمرهم الذرة والقطانى والقرع ، ولم يشيدوا مساكن جماعية كبيرة ، بل كانوا شعباً نصف رحالة ، مولعاً بالحرب ، ووقعت بعض مدن القرويين فريسة فى يد هؤلاء الغزاة ، ولكنهم بدورهم تعلموا طقوس أعدائهم القرويين ومارسوها . وكانت نساء القرويين منذ عهد بعيد ينسجون أردية جميلة من غزل القطن الذى تنتجه ديارهم ، وتعلم النافاجو نسج هذه الأردية يبيعونها للسياح بينما كاد القرويون ينسون هذا الفن تماماً ، وهكذا أيضاً فعل الأباش .

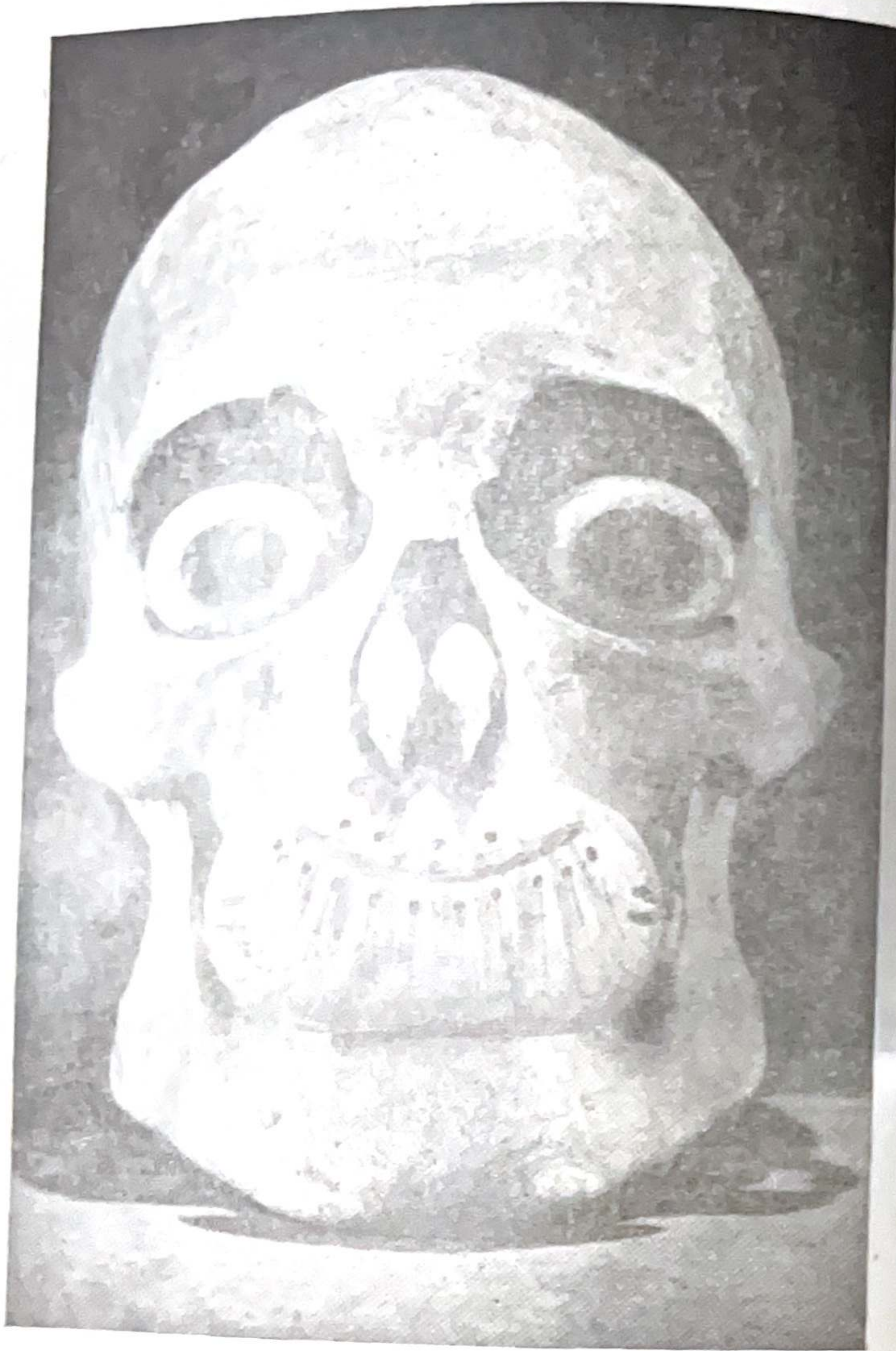
ولا نعرف بالضبط هل كان غزو الأتبسكيين أم الجفاف هو الذى قضى على أسلوب الأنسازيين فى الحياة . فأسباب انهيار المدنية الأنسازية مسألة معقدة وأغلب الظن أنها تشبه الأسباب التى أدت إلى انهيار غيرها من المدنيات الكبيرة .

وفى مؤتمرات بيكوس بدأ لفيف من علماء الآثار يروى الكثير من الأدلة عن وجود شعب فى وسط وجنوب أريزونا لم يكن من الأنسازيين على وجه اليقين . واقترحوا أن يطلقوا على هذا الشعب إسم « الهوهوكام » Hoho kam وهى كلمة تعنى فى لغة هنود اليما « هؤلاء الذين اندثروا » . وكان عهد الهوهوكام بممارسة الزراعة وتشييد المبانى هو عهد الأنسازيين بهذه الأعمال ، ولكنهم لم يبنوا المساكن الجماعية ، بل كانت لهم مساكنهم الفردية التى تتجمع حول ميدان .

وأطلق الأثريون على أكبر مدن الهوهوكام إسم « سنيكتون » Snaketown وكانت تقع على بعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب الغربى من شاندلر بولاية أريزونا ، وقد شق أهل سنيكتون الترع لرى الأراضى التى حول مدينتهم ، وهى أراضى تكاد تكون قاحلة تماماً ، واكتشف الأثريون عدة مراحل فى تطور الهوهوكام . فبينما كان الأنسازيون ينتقلون من عصر صناع السلال إلى عصر القرى الأول ثم إلى عصر القرى الأخير كان الهوهوكام يطورون مدنيتهم التى مرت بعدة مراحل ، وفى كل هذه المراحل كانت مساكن الهوهوكام منازل من الطين ، وتغير شكل هذه المساكن مع مضى القرون ، وكان لأهل جنوب أريزونا عصرهم الذهبى الذى يمكن مقارنته بالعصر الذهبى للأنسازيين فى الشمال والشرق .

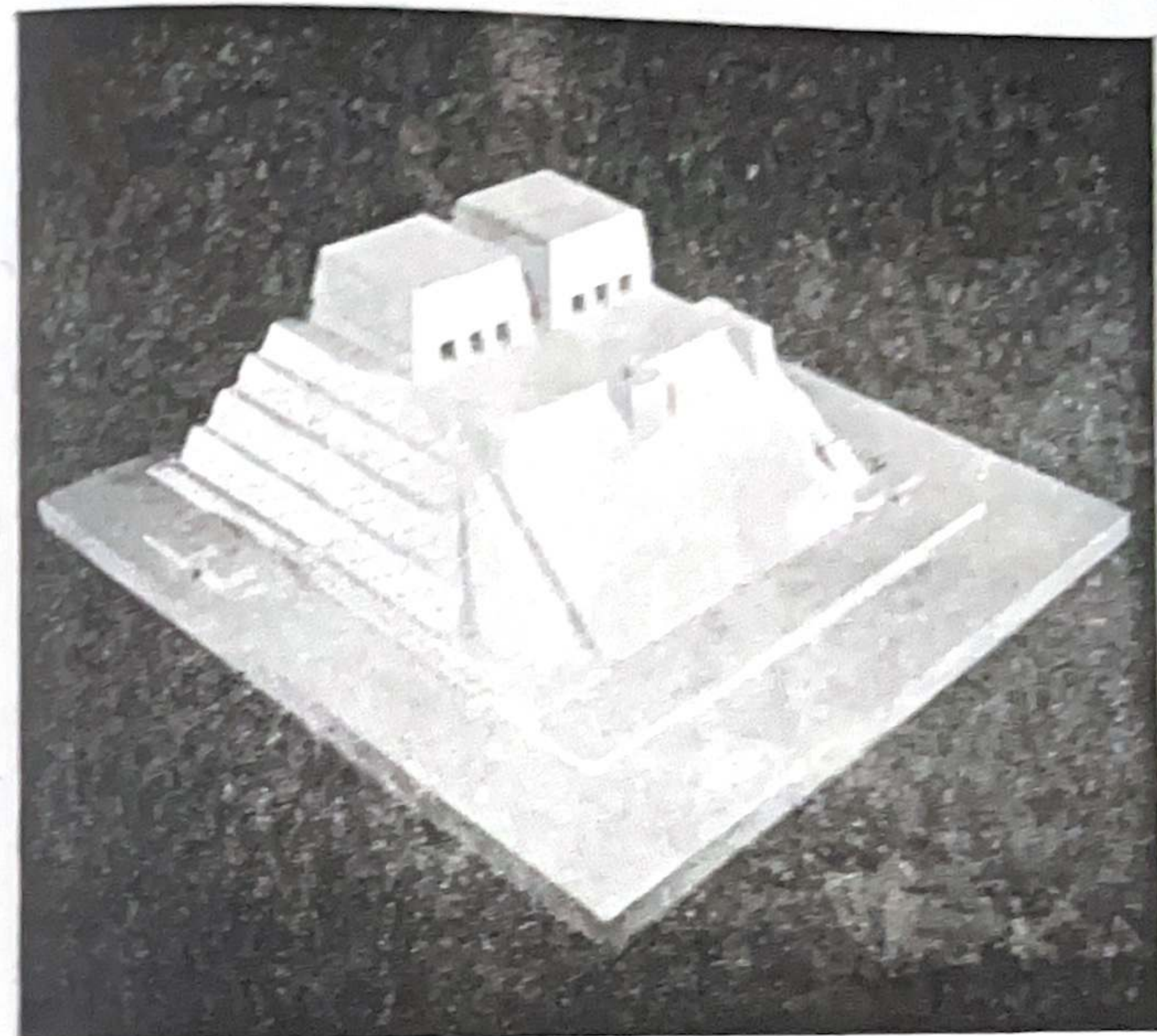
وفى الحق لم تبلغ مدنية الهوهوكام أوج عظمتها بأعمالهم وحدهم ، وإنما طورها فى الواقع غزو الأنسازيين ووصول المؤثرات الأنسازية إليهم . وكان هؤلاء القادمون الجدد الوافدون من المراكز الأنسازية فى نيومكسيكو ويعرفون باسم شعب سلادو Salado هم الذين شرعوا يبنون بالطوب فى ديار الهوهوكام مساكن جماعية سميكة الحيطان ، متعددة الطوابق . وكانت هذه المساكن أنسازية أكثرمنها هوهوكامية ، واستمرت تقاليد الهوهوكام فى صناعة الفخار ومراسمهم الدينية خلال فترة الانصهار هذه . ومن الطريف أن نذكر أن اندماج الهوهوكام والأنسازى كان فيما يظهر اندماجاً سلمياً .

وكان شعب الهوهوكام أوثق صلة بالمكسيك القديمة من شعب الأنسازى . يدل على ذلك كثرة ما عثر عليه فى حفائر الهوهوكام من الأجراس النحاسية وغيرها من الأدوات التى كانت تجلب فى الواقع من المكسيك . وأكثر ما يلفت النظر ملاعب الكرة التى ظهرت وفجر المدنية الهوهوكامية ، والتى توجد فى كل مراكز الهوهوكام الكبيرة ، ومن المؤكد



شكل رقم (٢٩)

جمجمة ، العينان فيها من العاج وانسان العين من الكهرمان الأسود ، وفى المنخارين سدادتان نحت كل منهما على شكل رأس طائر ، وللفم غطاء من العاج . من مدينة أيوتاك المطمورة ، فى شمال غرب الاسكا



شكل رقم (٣٠)

نموذج لمعبد ازتيكى ، المكسيك



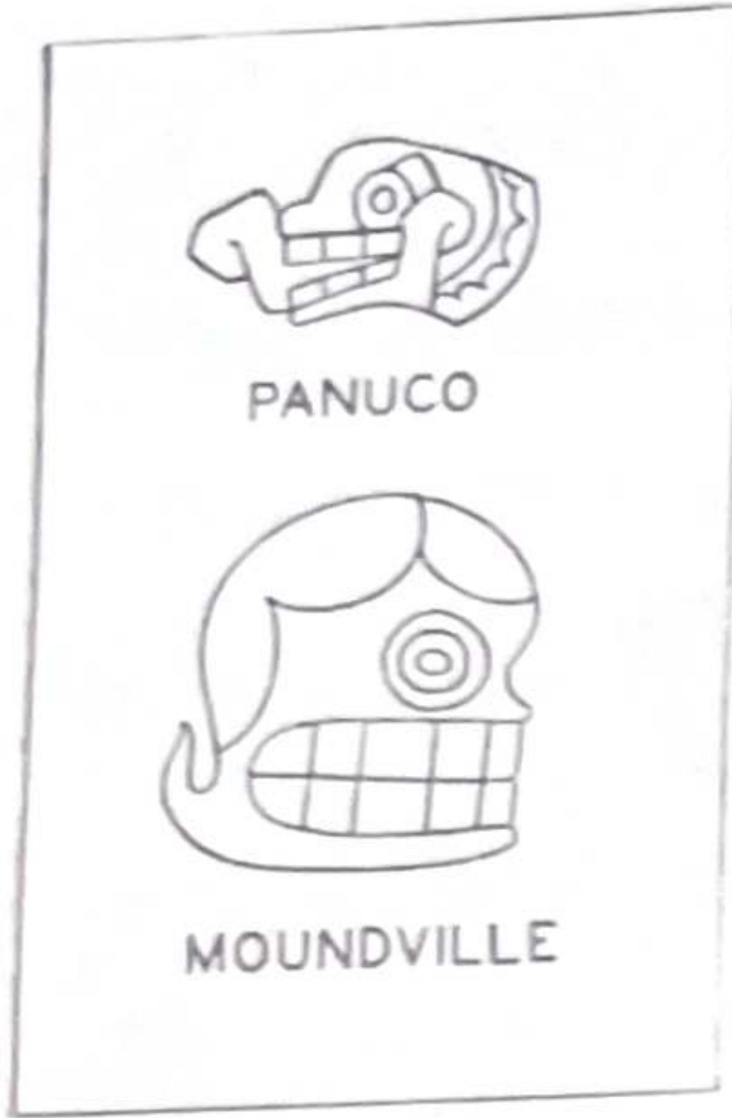
شكل رقم (٣١)

منظر من الجو لهرم الشمس فى تيوتهواكان ، المكسيك



شكل رقم (٣٢)

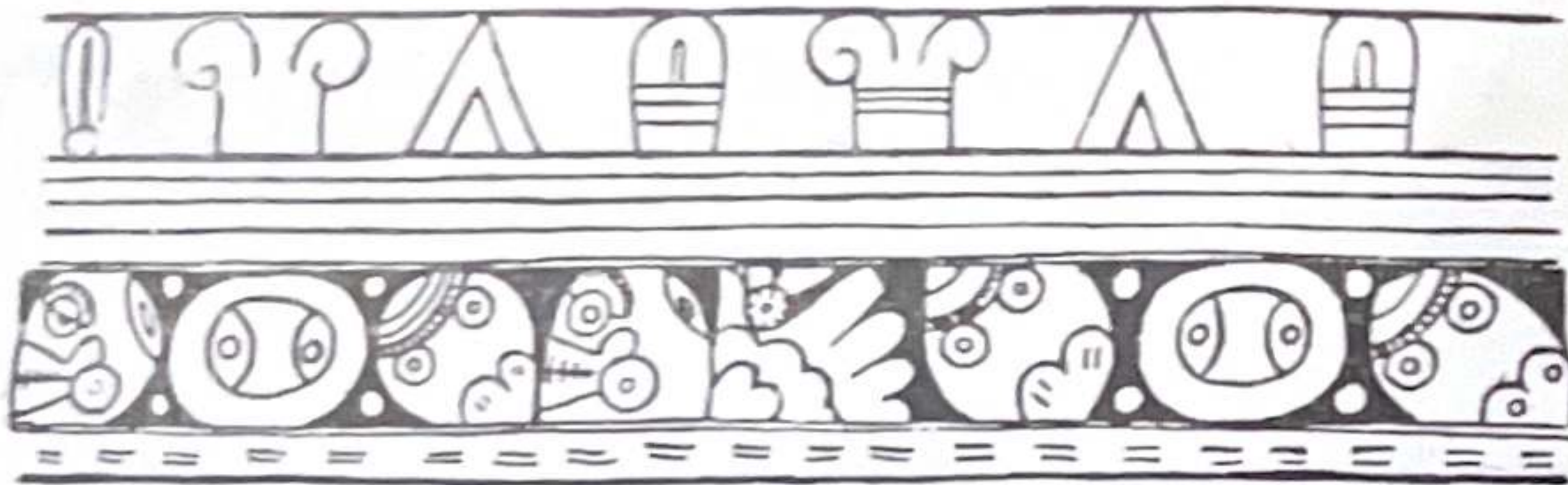
نسخة من حجر للتقويم الأزتيكى . أرضية غرفة الشمس فى بلانيتريوم هايدن مدينة نيويورك



شكل رقم (٣٣)

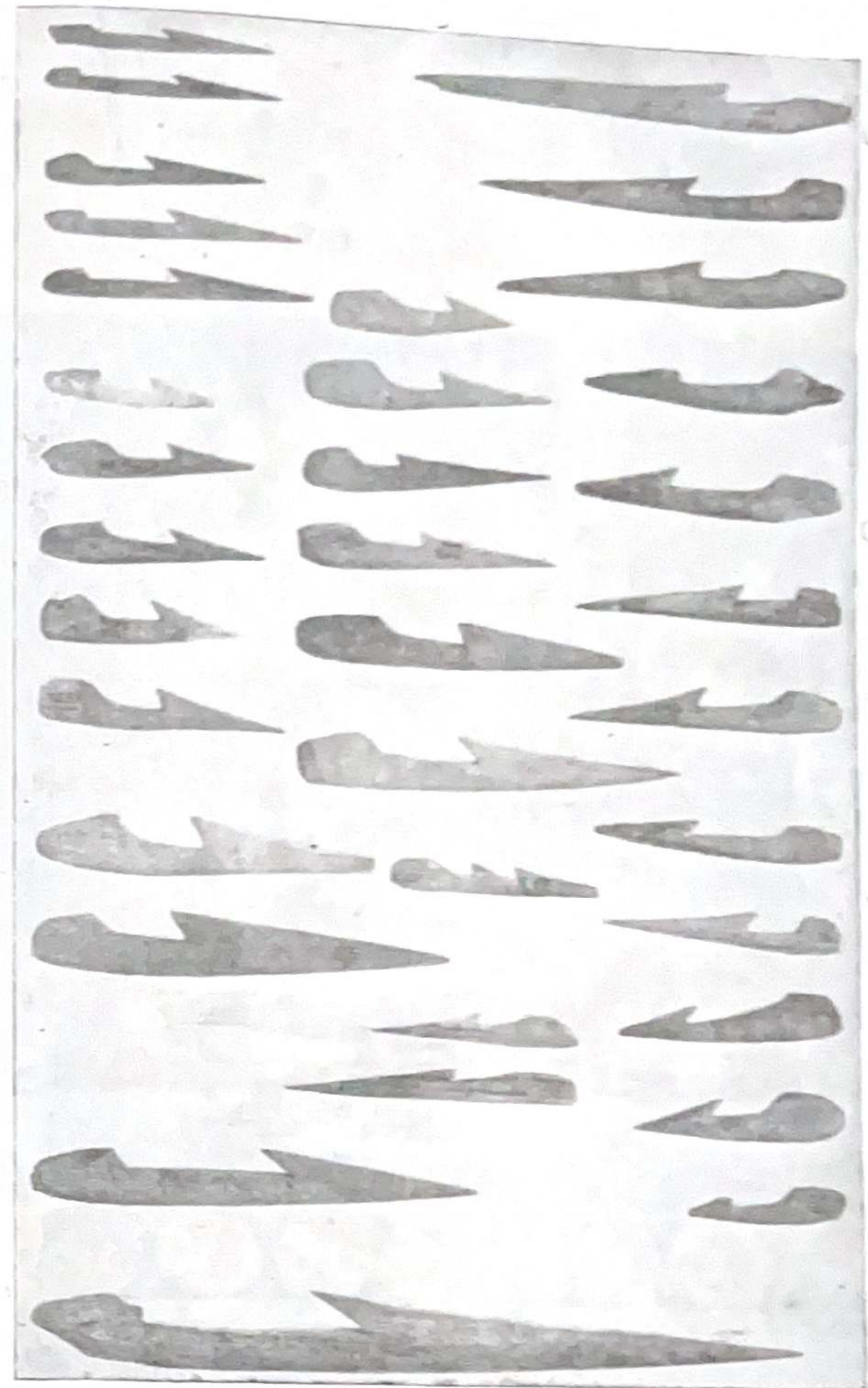
رسوم جماجم من جنوب غرب الولايات المتحدة ومن المكسيك





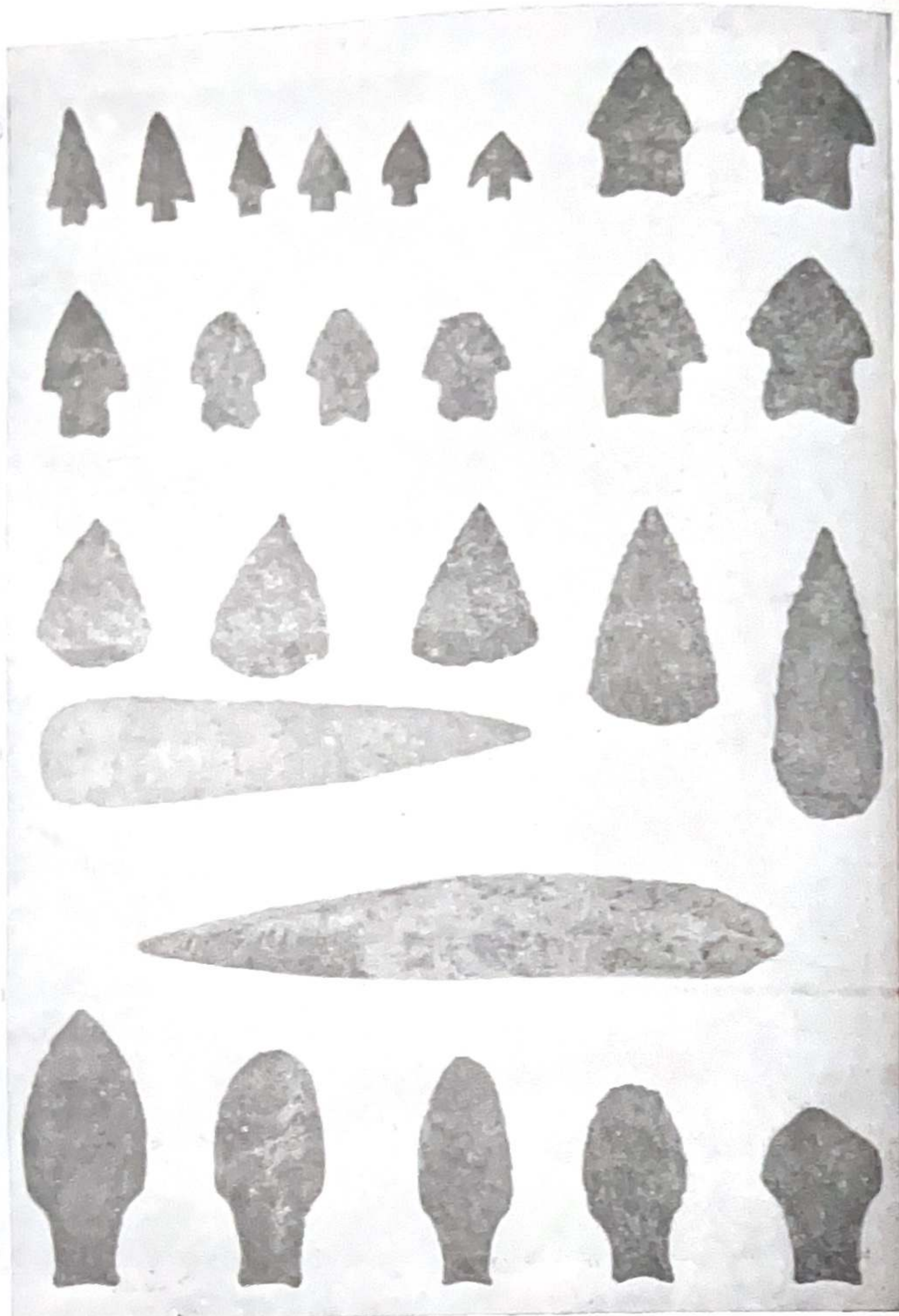
شكل رقم (٣٤)

رسوم تصور تمجيد المحاربين ، من المكسيك وجنوب غرب الولايات المتحدة



شكل رقم (٣٥)

رءوس حراب بحرية من عصور مختلفة ، من إيجل تشاتال فى شيلى



شكل رقم (٣٦)

رؤس قذائف وسكاكين من خمس فترات حضارية مختلفة ، مضايق مجلان



شكل رقم (٣٧)

نسخة مصبوبة لطبق من الفخار على هيئة إنسان ، طراز تياهواناكو ، وادى نازكا ، بيرو





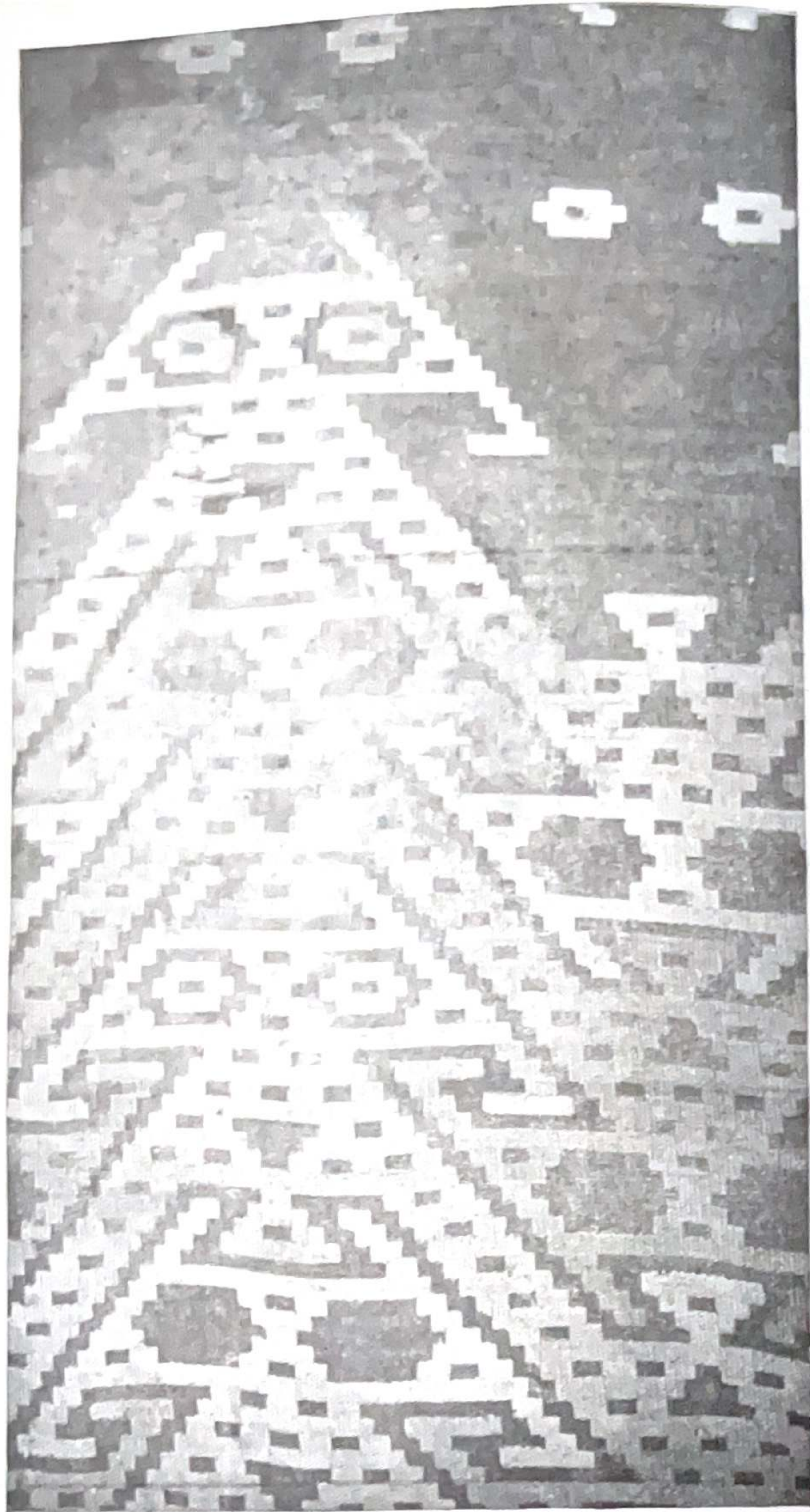
شكل رقم (٣٨)

نسخ مصبوبة للجرار النازكوية . بيرو



شكل رقم (٣٩)

وعاء يستخدم فى الطقوس الدينية . من تياهواناكو ، وادى نازكا ، بيرو



شكل رقم (٤٠)

قماش من عصر ما قبل التاريخ . وادى نازكا ، بيرو .



شكل رقم (٤١)

واحد من الأشكال الثلاثين الموجودة على كل جانب من جوانب الشكل الرئيسي في بوابة الشمس ، تياهواناكو ، بيرو



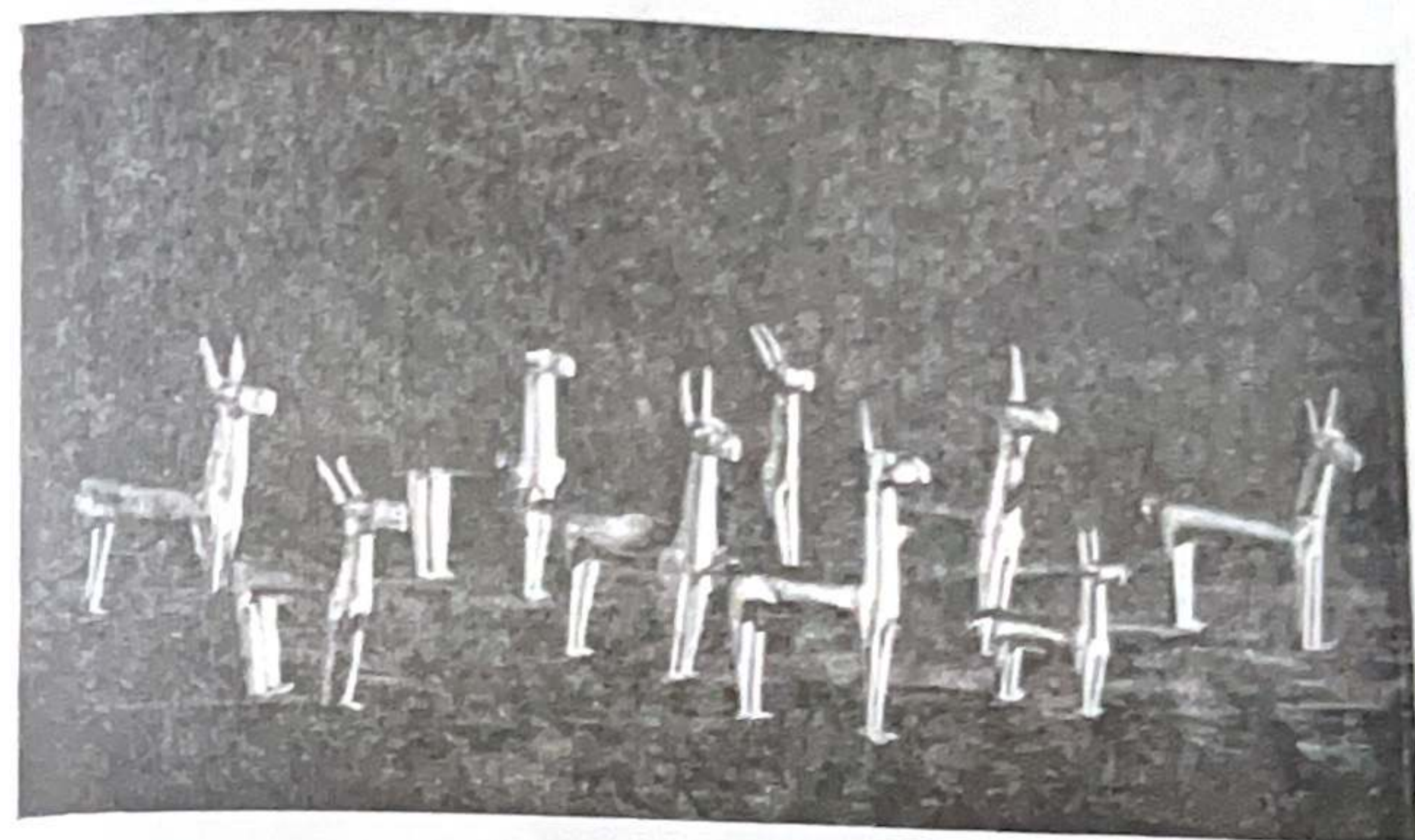
شكل رقم (٤٢)

قلل ماء بيروفيه ، طراز تياهواناكو الساحلي أو طراز الهواسي



شكل رقم (٤٣)

أكواب ذات زخارف متعددة الألوان . تياهواناكو ، بيرو



شكل رقم (٤٤)

قطيع لاما من الذهب . ببحيرة تيتيكاكا ، بيرو



شكل رقم (٤٥)

تمثال حجرى من قطعة واحدة . تياهواناكو ، بيرو

أن ملاعب الكرة واللعبة نفسها إنما جاءت من المكسيك ، فقد كانت معروفة للمكسيكيين والمايويين ، وكان لعبها عبادة أكثر منه رياضة خالصة. وقد عثر المنقبون فى سنيكتون على ملعب واسع للغاية ، وفى كل من طرفى الملعب الذى يبلغ طوله نحو المائتى قدم ، أحجار ثبتت فى الأرض لتكون بمثابة الأهداف . وقد عثر فى إحدى مراكز الهوهوكام على كرة من المطاط مدفونة بداخل جرة ، ولا بد أن تكون هذه الكرة من المطاط قد انتقلت على يد القبائل التى تسكن المناطق فيما بين ديار الهوهوكام وجنوب المكسيك حيث ينمو المطاط البرى .

إن سنيكتون العتيقة بملاعبها الكبيرة ومساكنها الطينية لمثل آخر للرقى الحضارى الذى بلغه أهل الجنوب الغربى لأمريكا ، فهنا فى هذه المناطق شبه القاحلة ، كان لكثير من الناس أسلوب مهذب فى المعيشة ، وشيدت الألوف من الهوهوكام والأنسازى العمائر وابتدعوا الديانات ، وتركوا آثاراً لأعمالهم فى عدة أماكن من هذه المناطق الخلابة ، ولم تعمل رفوش الأثريين إلا فى جزء بسيط من أطلال الهوهوكام والأنسازى الباقية حتى اليوم ، وستكشف الحفائر فى المستقبل عن مزيد من المعلومات عن هذه الأنماط القديمة للمعيشة ، ولم نقف بعد إلا على النزر اليسير من قصة ما قبل التاريخ فى الجنوب الغربى حتى مع الأدلة التى نستخلصها من حياة هنود القرى المعاصرين .

شكل رقم (٤٦)

منظر من الجو لمدينة شان شان ، عاصمه امبراطورية الشيمو ، بالقرب من تريخيللو ، بيرو

الفصل الحادى عشر

تاريخ الاسكيمو القديم

يختلف الهنود الأمريكيون إختلافاً جوهرياً من قبيلة إلى أخرى . حقيقة إنهم بعامة من السلالة المغولية ، ولكن قبائلهم تتباين تبايناً واسعاً فى داخل الإطار العام للخصائص العرقية المميزة لتلك السلالة ، وعندما اكتشف الأوربيون قارتى العالم الجديد وجدوا هذه الأنواع المختلفة من الهنود الأمريكيين يعيشون فى كل مكان من أمريكا وفى كل ظروف المناخ السائد فيها . وعلق العلماء الأوربيون على ذلك بأن الهنود الأمريكيين يحتلون جهات أمريكا الصالح منها وغير الصالح .

وليس بين قبائل الهنود غير المتجانسة والتى تختلف أنماط الحياة فيما بينها من هو أكثر إثارة للدهشة من الإسكيمو ، وأول ما يبدو هنا أنهم يعيشون فى جهات يكاد يتعذر العيش فيها . وقد يظن الذين يعيشون فى المناطق المعتدلة أن القفار القطبية لا يمكن أن تعول أى إنسان ، ومع هذا فهى ديار الإسكيمو . بل ويبدو أنهم مغرمون بها . وعندما أوجدت لهم الحكومة الأمريكية أخيراً أعمالاً فى جنوب ألسكا رفض معظمها . ولم تلبث القلة التى قبلت العمل فى جانو أن سئمت الجو الدافىء والحياة السهلة ، فعادت إلى الشمال المتجمد .

وقد وضع الإسكيمو لنفسه خط حياة متميز تحت ظروف تكاد تستحيل فيها الحياة ، فحرابه وأدواته بل وفنونه تقوم بذاتها دون أن يكون لها أى نظير فى القارة الأمريكية ، وهو من الناحية البدنية كذلك يمكن التعرف عليه بسهولة . فجمجمته ، وأسنانه ، وفكه ، تختلف عن نظائرها لدى الهنود الأمريكيين الآخر ، ومع هذا فالإسكيمو من الهنود . ويضعه وجهه وغيره من السمات البدنية ضمن المغول ، ولكن له صفات أخرى لا يمكن أن تخطئها تخرج به عن دائرتهم .

والإسكيمو متميز فى لغته كذلك . ومع أن الإسكيمو ينتشرون من ألسكا إلى جرينلند أى لأكثر من ٥ آلاف ميل على طول الساحل فهناك وحدة لغوية تؤلف بين شعوبهم جميعاً ، ولا تظهر أغنية جديدة أو نكتة مستملحة فى ألسكا إلا وتصل جرينلند بالطرف الآخر من ديار الإسكيمو قبل أن يمضى عام على ظهورها ، وبالطبع قد لا يكون هذا داعياً للدهشة ، فلكثير من الهنود الأمريكيين لغاتهم المتميزة ، ولكن لغة الإسكيمو أكثر تميزاً ؛ إذ هى منفصلة تماماً عن كل لسان يتكلم به الهنود الأمريكيون.

وعندما بدأ علماء السلالات البشرية يدرسون الإسكيمو لأول مرة ، راعهم ذلك التميز الواضح ، فالإسكيمو نمط قائم بنفسه لغوياً وأتنولوجياً وحضارياً ، وفى الحال تبرز أمامنا هذه الأسئلة : « ما عمر هذا النمط من أنماط الحياة ؟ ومنذ متى يعيش الإسكيمو فى القفار القطبية ؟ » .

وعندما اكتشف الأوربيون لأول مرة أن شعوباً معينة عاشت فى أوربا خلال العصر الجليدى الأخير ، تساءلوا بالطبع عما حدث لهذه الشعوب ولإسلوبها فى الحياة بعد أن انتهى عصر الجليد ، وذهب الأثريون الأمريكيون أيضاً إلى أن الجبلة الأمريكية الأولى التى عاشت هنا على صيد حيوانات العصر الجليدى ، ربما رغبت فى مواصلة نهجها فى الحياة ، فلم

لا يكون بعض هؤلاء الأولين قد تحركوا شمالاً مع انحسار الجليد ، وواصلوا حياة الصيد فى المنطقة القطبية ؟ وربما كان الإسكيمو سلالة من أقدم عناصر الصيد فى أمريكا .

وعندما شرع العلماء يدرسون الإسكيمو وأسلوب حياتهم ، ظهر أن هذه النظرية مستحيلة . فحياة الإسكيمو تكاد تعتمد تماماً على صيد الثدييات البحرية . ويتم معظم الصيد على الجليد أو بالزوارق فى مياه المحيط ، ومن ثم فصيد الإسكيمو صيد متخصص يتطلب معدات خاصة ، ولكن الصيادين الأمريكيين الأولين كانوا يطاردون الثدييات البرية كالبيسون والماموث ، وشتان بين النوعين من الصيد .

وظن بعض الأثريين أول الأمر أن الإسكيمو ليسوا سوى صنف آخر من الهنود الأمريكيين انتقل إلى السواحل القطبية ، واتبع أسلوباً إسكيموياً فى الحياة . ولكن هذا التفسير البسيط لا يتفق مع الحقائق كما نعرفها . وأعظم ما يحول دون ذلك هو أنه ليس فى استطاعة أحد من الهنود الأمريكيين الآخرين أن يصنع المعدات التى تستحيل بدونها الحياة على الساحل القطبى ، فإذا لم يكن لدى هؤلاء الهنود البسلاء الأول مثل هذه الأدوات الحيوية فكيف تيسر لهم أن يعيشوا شتاءهم الأول ؟ .

وتتعذر حياة الإسكيمو بدون أداتين رئيسيتين ، هما الحربة البحرية المكوعة الرأس ، والمصباح . والحربة البحرية أداة شكلت بصفة خاصة لصيد حيوانات البحر والحصول عليها ، فعجل البحر ، وبقر البحر ، والحوت قد تقتلها الحربة أو البندقية الحديثة ، ولكن جسم الحيوان القتيل لا يمكن الحصول عليه إذ يغوص فى الماء ، ويعود الصياد ولم يشبع جوعاً . والحربة البحرية نوع خاص من الحراب له رأس يمكن فصله ، ويعمل أيضاً كخطاف ، وسن الحربة المدبب مزود بمهماز ، فإذا ما نفذت الطعنة عميقة فى جسم عجل البحر أو بقرة البحر ، فإن المهماز يدير رأس الحربة إلى الجنب ، وتطفو

القصبة التى رميت بها الحربة منفصلة ، فيستردها الصياد ، ويوجد حبل متين مربوط فى ثقب برأس الحربة المكوع فإذا ما انغرز الخطاف فى لحم الحيوان المصاب ربط الحبل بعوامة ضخمة ، ومن ثم فعندما يموت الحيوان يسترد الصياد العوامة ، ويجذب الحبل وقد تعلق عجل البحر أو غيره بطرفه الآخر ، وقلما يفقد الإسكيمو الماهر صيده بحربته ذات الخطاف .

ومصباح الإسكيمو وعاء شبيه بالطبق يقد عادة من الحجر ، وتنحت معظم مصابيح الإسكيمو على هيئة نصف دائرة ولها رف صغير إلى جانب الطبق ، ويملأ فراغ الوعاء بزيت الحيوانات البحرية . وفى الرف الصغير زبالة من طحلب مجدول ، ويصاعد الزيت فى شعلة راقصة تبعث النور والدفء . وللنور أهميته البالغة فى شهور الشتاء القطبى الطويلة ، والحرارة ضرورة لا يعيش بدونها الإنسان ، ويجب ألا يغيب عن بالنا أن زيت حيوانات البحر وحده هو الذى يصلح لمصباح الإسكيمو ولا يمكن أن يعمل بشحم حيوانات البر كالكاريبو مثلاً .

وحربة الإسكيمو الخطافية ومصباحه كلاهما من الأدوات المعقدة التى لا تنفع إلا فى الجهات القطبية وحدها . ولا يمكن أن يكونا قد اخترعا فى أى مكان آخر ، ومع ذلك فما كان لجماعة من الرواد أن تعيش بدونهما فى تلك الأصقاع القاسية ولو لفصل واحد .

ولقد يوجد الإسكيمو على السواحل القطبية لسيبيريا ولكن أغلبيتهم إنما تعيش على الساحل القطبى لأمريكا الشمالية وفى جرينلند ، ويتركز نشاطهم فى الجهات القريبة من خليج هدسن . ولكن لم يستطع الرواد الأول أن يقفوا على أى دليل على عراقة التاريخ فى كل هذه الأنحاء . حقيقة كانت هناك مئات من القرى المندرسة على طول الساحل القطبى ، وقد أشار المستكشفون الأول الذين كانوا يبحثون عن « الممر الشمالى الغربى »

إلى العدد الكبير من مساكن الإسكيمو المهجورة على السواحل الشمالية القرة ، ولكن يفسر هذا ما نعرفه من أن الإسكيمو الذين تعتمد حياتهم على صيد عجول البحر بحرابهم ذوات الخطاطيف ، قد انتقلوا بقراهم إلى جهات أوفر صيداً مع هجرة عجول البحر وراء تحركات الأسماك . ومن ثم فليست القرى المندرسة بالضرورة آثاراً لتاريخ عتيق . وفى الواقع كان علماء الآثار فى العشرينات من هذا القرن على يقين من أن أسلوب حياة الإسكيمو ليس قديماً ولا يرجع تاريخه لأكثر من بضع مئات من السنين على أحسن الفروض .

وفى العشرينات كان أليس هردليشكا يعمل فى الجزر الالوشية ، ولما كان من علماء الانثربولوجية الطبيعية فى الأصل فقد اهتم أيضاً بالجزر الالوشية كطريق يمكن أن تكون العناصر الأسيوية قد سلكته فى دخولها إلى أمريكا الشمالية . وكانت قد خدعته كذلك الإختلافات البدنية بين الإسكيمو وأبناء عمومهم من الألوش وغيرهم من الهنود الأمريكيين .

وفى ذات يوم من أيام الصيف الألسكى القصير ، كان هرد ليشكا ولفيف من الطلبة يعملون بعيداً فى سلسلة الجزر الألوشية ، وجدفت جماعة من الإسكيمو إلى الشاطىء حيث يعمل هردليشكا وطلابه ، وتقدم إثنان منهم إلى هردليشكا كانا قد سمعا بأن عالماً أمريكياً كبيراً يعمل هنا ، فحملا إليه بعض الأشياء وكسراً من العاج الأسود اللون . وكان العاج ناباً حفرياً لبقرة بحر أغبر اللون وواضح أنه قديم للغاية ، ولكن الأشياء الأخرى كانت أكثر طرافة من مادة العاج ولونه . كان من بينها نصال حراب ذات رءوس مكوعة ومقابض سكاكين ، وأدوات شبيهة بالخطاطيف وكانت كلها من العاج الأحمر المائل إلى السمرة وكانت سطوحها جميعاً مزخرفة برسوم بيضية ومستديرة متناسقة الخطوط ، ولم يكن دكتور

هردليشكا قد رأى أبداً رءوس حراب أو أدوات أخرى من هذا النوع ولم تكن عينه قد وقعت على مثل هذه الرسوم فى الشمال . وكان من الواضح أن الأدوات التى حملها الإسكيمو قديمة ، فالعاج الذى صنعت منه عاج متحفر ، طمر فى الأرض المتجمدة من عهد سحيق ، فأين عثروا على هذه الأشياء ؟ وكان جواب الإسكيمو أنهم كانوا يصيدون بقر البحر فى جزيرة سنت لورنس بوسط بحر برنج ، فوجدوا قرية ترتفع كثيراً عن الشاطىء كان يسكنها القدماء ، ومن نقر مساكن القرية التقطوا رءوس الحراب وغيرها من الأشياء . وأضاف الإسكيمو أن هذه الأشياء لا تشبه مايصنعه الإسكيمو المحدثون ، وقد أدرك دكتور هردليشكا هذا الأمر من النظرة الأولى ، وعند ما عاد فى الخريف إلى المتحف القومى بواشنطن روى لزملائه قصة المكشوف ، وحمل الأدوات العاجية إلى المتحف كعينات .

وأقلع إلى الشمال الأقصى فى سنة ١٩٣١ الدكتور هنرى كولنز الصغير وهو أيضاً من رجال المتحف القومى . ونزل بجزيرة سانت لورنس ومعه فريق من الحفارين ومعدات الحفر ، ودله صيادو الإسكيمو على القرية القديمة التى وجدها نقر مساكنها وعاجها الحفرى .

وفى بضعة أسابيع أنفقها كولنز وجماعته فى الارتياد عثروا على عشرات من القرى القديمة ، فقد كان ساحل جزيرة سنت لورنس كله ، ترقشه النقر الشبيهة بالأطباق حيث حفرت المساكن فى المرج المتجمد . وحول هذه القرى القديمة توجد أكوام الرديم التى تشتمل على عظام عجول البحر وبقر البحر وعظام الحيتان فى بعض الأحيان ، وعلى آلاف من الأشياء الأخرى تركها الإسكيمو القدماء الذين عاشوا هناك .

وأطلق الأثريون على الشعب الذى عاش على سواحل جزيرة سنت لورنس اسم « شعب بحر برنج القديم » وكان الحفر عسيراً فى التندرا المتجمدة

وأوحال موضع القرية ، فقد تسرب الماء نصف المتجمد إلى الحفائر ، وغطى الوحل والدبق كل شىء بما فى ذلك الحفارين أنفسهم ؛ وعمل الأثريون فى جو محموم خلال الصيف القطبى القصير ليستعيدوا قصة شعب بحر برنج القديم . وكانت قصة رائعة .

كان صيادو بحر برنج القديم من الإسكيمو بل ومن الإسكيمو الراقين . صنعوا رءوس حراب جميلة التشكيل ، واستعملوا المصابيح الإسكيموية ليدفئوا مساكنهم . وحفروا أجزاء من بيوتهم فى الأرض المتجمدة ليضمنوا لها الحماية ، وكانت هذه البيوت من الخشب وأضلاع الحوت وأفكاكه ، وكانت أرضياتها مرصوفة بالحجر . وكانت مداخلها كوات صغيرة لا يدخل منها المرء إلا زاحفا ، وقد كد شعب بحر برنج القديم لجمع الأخشاب المبعثرة التى دفعتها تيارات المحيط على غير هدى فوصلت حتى هذه الأصقاع الشمالية ، وكانت البيوت نفسها مبنية بمهارة حتى تستطيع مجابهة قر الشتاء القطبى الشديد . وأهم من هذا كله كان لشعب بحر برنج القديم الأداتان الإسكيمويتان الرئيسيتان : الحربة والمصباح .

وكان لصيادى بحر برنج القديم آلاف الآلات والأدوات المنزلية التى جعلت الحياة القطبية يسيرة بل وبهيجة ، وكانوا يصطادون عجل البحر وبقر البحر ، وكانوا يصطادون الحوت فى بعض الأحيان. وكانوا يصطادون الطيور بالقسى والسهام ، أو الحراب الصغيرة يرمونها بالنشاب . ويصطادون السمك وبخاصة سمك القد بصنانير من الخشب والعظام . وقد صنعوا السكاكين والأسنة التى يرمون بها من شظايا الصوان والإردواز ، وصنعوا الإبر والمغارف العظمية من عاج بقر البحر. ولكى يتقوا وهج شمس الصيف الذى يعكسه الصقيع والجليد صنعوا من العاج نظارات ملونة بها شقوق ضيقة تقى العين الوهج . وصنعوا من العظام أو العاج زحافات ثلجية يثبتونها بنعالهم فتساعدهم فى التنقل العسر على الجليد ، وكانت لهم قوارب مغطاة بالجلود

شبيهة بالكياك الحديث يستخدمونها فى الصيد والتنقل فوق مياه بحر برنج الغادرة ، وكانت لهم قوارب مكشوفة مزدوجة الأطراف تسمى الاومياك ، ومع وجود الكلاب عندهم فلم يستخدموها فى جر زلاقاتهم الصغيرة ، بل كان إسكيمو بحر برنج القديم يجرون زلاقاتهم بأيديهم ، وربما كان أعجب شىء فى هذه الآلات والأدوات جميعاً أن معظمها كان مزخرفاً بأسلوب فنى جميل، وحتى وهم يصارعون فى سبيل البقاء كان لدى هؤلاء الإسكيمو الوقت لكى يصنعوا حرابهم وزلاقاتهم ويزخرفوها . بل لقد زخرفوا كل شىء صنعوه بطريقتهم المميزة .

وخلص الأثريون بعد دراسة دقيقة إلى أن حضارة إسكيمو بحر برنج القديم كانت قد توطدت أركانها فى جزيرة سنت لورنس وظهور المسيحية ، ولم تكن حضارة فى أول السلم بل كانت أرقى تركيباً من حضارة الإسكيمو المعاصرين وكان نتاجها من الآلات والأدوات أكثر تنوعاً من نتاج هؤلاء، ودلت قرى جزيرة سنت لورنس فى بحر برنج القديم بكل وضوح على أن الإسكيمو يعيشون هذا النمط من الحياة منذ عهد سحيق .

فمن أين جاء شعب بحر برنج القديم ؟ ومن أين أتت حضارتهم الراقية ؟ خيل للعلماء الذين عالجوا الموضوع أن المصدر إنما يقع عبر بضعة الأميال من المياه المفتوحة التى تفصل جزيرة سنت لورانس عن الشاطىء السيبيرى وذهبوا إلى أن الإسكيمو جاءوا أولاً من سيبريا إلى سنت لورنس ثم منها إلى ألسكا نفسها .

والواقع أن قرى بحر برنج القديم تنتشر على الساحل السيبيرى انتشارها على الساحل الألسكى ، وعندما عاد الأثريون إلى جزيرة سنت لورنس ليقوموا بمزيد من أعمال التنقيب فى فصول الصيف القصير ، اهتدوا إلى مزيد من القرى القطبية وأصبح من الجلى أن إسكيمو بحر برنج القديم

كان لهم الحكم فى كل هذه السواحل الشمالية فى القرون الأولى للمسيحية ، وكانوا ينتقلون من قرية إلى قرية يستخدمون الكياك والبومياك ، ويشتغلون بالصيد فى البحار المفتوحة . وكان سكان السواحل والجزر القطبية فى الوقت الذى بلغت فيه هذه المدنيات أوج ازدهارها أكثر عدداً منهم اليوم بلا جدال .

وواصل الأثريون البحث عن نمط من حياة الإسكيمو عتيق ، يمكن أن يكون الأساس الذى تطور فأصبح حضارة بحر برنج القديم . وكان فى قرية أوكفيك القديمة على السواحل الشمالية لألسكا ما قد يحقق هذا الغرض . فمساكنها مستديرة وبعض أجزائها تحت الأرض اتقاء للبرد ، وعند ما حفر الأثريون مساكن أوكفيك الواحد بعد الآخر استخرجوا آلافا من الأدوات كما حدث عند حفرهم فى قرى بحر برنج القديم . ولما كانت مزابل أوكفيك تقع تحت أطلال قرى بحر برنج القديم فقد أصبح من الواضح أن شعب أوكفيك قد عاش فى ألسكا وفى شمال شرق سيبيريا قبل أن يعيش فيها إسكيمو بحر برنج القديم . وقد عثر الأثريون على قرى أوكفيكية فى إيست كيب بسيبيريا سنة ١٩٥١ ، ولكن الحضارة الأوكفيكية ليست حضارة بدئية هى الأخرى ، فقد كانت مخلفاتها من رؤوس الحراب البحرية وسهام صيد الطيور وصنانير صيد السمك المتعددة الأسنة والسكاكين المصقولة ، كانت كلها جيلة الصنع . وكان لأهل أوكفيك كل مالدى شعب بحر برنج القديم من أسلحة وأدوات منزلية ، وقد نحت صناع أوكفيك العظام والعاج بمهارة فائقة فى صور تجريدية . وفى الواقع كلما تعمق الأثريون فى دراسة الأشياء التى خلفها أهل أوكفيك كلما بدا واضحاً أن حضارة بحر برنج القديم قد تطورت تطوراً مباشراً من حضارة أوكفيك التى نشأت عن حضارة أقدم ؛ ولكن الأثريين لم يهتدوا بعد إلى معرفة الإسكيمو الأصليين الذين ابتكروا الحربة البحرية ذات الرأس الخطافية والذين كانوا أول من فكر فى اختراع مصباح الإسكيمو .

وما بحث الأثريون عن نشأة الإسكيمو إلا وبرزت أمامهم العلامات والدلائل التى تشير إلى السواحل السيبيرية ، ويكاد يكون من المقطوع به أن أهل أوكفيك قد جاءوا من آسيا ، وربما كانت سيبيريا هى الجهة التى تطوى صدرها على سر نشأة الإسكيمو .

وقد اهتدى الأثريون والمستكشفون إلى كثير من القرى الأخرى وهم يحاولون الوقوف على أصل الإسكيمو وحضارتهم ، ففى إبيوتاك على ساحل المحيط القطبى بالقرب من بوينت هوب نقب الأثرى الإسكنديناوى دكتور هلجى لارسن Helge Larsen فى سنة ١٩٤٨ مكاناً واسعاً يضم ٨٠٠ مبنى تنتظم فى خمسة شوارع طويلة ، وكانت المساكن إسكيموية الطراز ، شيدت من كتل الخشب التى يجرفها التيار . وقويت بالأحجار وكان جزء منها يقع تحت سطح الأرض ، وكان أهل أبيوتاك يصيدون السمك وعجول البحر ، وبقر البحر ، وكانوا يتوغلون فى اليابس لصيد الكاريبو عند ما تهاجر قطعانه ، وكان العجيب حقاً فى أمر الأبيوتاك أن هذه الآلاف من سكان تلك المدينة الواسعة كان فى استطاعتها أن تصل إلى كفايتها من المواد الغذائية من الأراضى التى تحيط بها .

وكما رأينا فى الحضارات الأخرى لم تكن حضارة الإبيوتاك بدئية أو بدائية ، بل على العكس كان الفن الإبيوتاكى أكثر الفنون الإسكيموية دقة وتميزاً ؛ لقد زين الصناع الإبيوتاكيون كل شىء صنعوه فى تركيب أنيق من الدوائر والمنحنيات والوحدات المتوازية ، ونحتوا من سن بقر البحر تماثيل رائعة للحيوانات ، وخطاطيف حلزونية لانعرف فيما كانت تستخدم ، ووجدت جثث بعض ذوى الحيثية من الأبيوتاك وقد كفنت محاجر العيون بكرات من العاج ، ووجدت هياكل البعض وفى المنخارين قطع من العاج المنحوت ، أو فى الفم طقم أسنان عاجى محكم الزخرفة .

ويرتبط الأسلوب المحكم للفن الإبيوتاكى بفن إسكيمو بحر برنج

القديم ، وتتشابه أسلحة الشعبين وأدواتهم كذلك ، ومن المؤكد أن بعض قرى بحر برنج القديم فى جزيرة سنت لورنس كانت آهلة بالسكان فى نفس الوقت الذى عاش فيه سكان مدينة الإيبوتاك الكبيرة بالقرب من بوينت هوب .

ولم تأت سنة ١٩٢٥ حتى كان قد تم اكتشاف يبشر بحل لغز نشأة الإسكيمو ، ولم يكن هذا الاكتشاف فى منطقة نائية منعزلة على الساحل القطبى ، بل تم فى بدروم المتحف الكندى القومى حيث كان الدكتور دياموند جينس Diamond Jenness يدرس بعض المجموعات القديمة التى أرسلت من المناطق القطبية منذ سنوات . وكان المتحف شأنه شأن كثير من المتاحف لا يبادر لفوره إلى فض الرسائل التى تصله وتصنيف محتوياتها ، ومن ثم كان كثير من تلك المجموعات لا يزال فى أقفاصه الأصلية ، وقد لاحظ دكتور جينس وجود رءوس حراب بحرية إسكيموية أصغر حجماً وأقل دقة من كل ماعرف من قبل ، وكانت هذه الأدوات قد أرسلت إلى المتحف منذ سنوات وكان مصدرها رأس دورست على الساحل القطبى بالقرب من خليج هدسن .

وذهب دكتور جينس إلى المنطقة ليدرسها بنفسه ، وتفقد أثريون آخرون تلك السواحل المنعزلة بحثاً عن القرى القديمة التى سكنتها الجبلة الأولى من الإسكيمو ، واهتدى إلى كثير من القرى مبعثرة على طول هذه السواحل القرة ، وكانت حضارة دورست ، وهكذا سموها ، حضارة إسكيموية تختلف تماماً عن حضارات ألسكا التى تقع بعيداً إلى الغرب . لقد تركز إسكيمو دورست حول خليج هدسن ، ولكنهم عاشوا كذلك فى القرى المبعثرة فى بفنلاند ، وجزيرة اليسمير ، وشمال جرينلند ، ولبرادور ، بل وتوغلوا جنوباً حتى نيوفوندلاند . وسرعان ما اهتدى الأثريون إلى كثير من الدلائل على أن إسكيمو دورست أصحاب هذه

القرى المبعثره ، إنما يرجع عهدهم بسكنى الجانب الشرقى من الأراضى القطبية إلى أول عصر المسيحية .

وهنا قد نجد حل المشكلة ، إذ ربما كان الإسكيمو قد استمدوا أسلوب معيشتهم من الشرق ، وربما كانت الحربة البحرية ذات الخطاف ، ومصباح الإسكيمو من اختراع شعب قديم يسكن فى شرق كندا أو ربما فى نيو إنجلند .

وتبين من الحفائر التى أجريت فى قرى إسكيمو دورست أن حضارتهم هى أكثر ما عرف من حضارات الإسكيمو بدائية ؛ لقد عاش أهل دورست فى مساكن مستديرة ، تقع أجزاء منها تحت سطح الأرض ، وكانوا يبنونها بما يتيسر لهم فى المنطقة من مواد ، كالأخشاب التى يجرفها التيار ، أو الحجر أو كتل الأعشاب ، وكانت هذه المساكن رخوة الصنع وإن أدت الغرض المقصود منها ، وكان إسكيمو دورست يصيدون الثدييات البحرية والأسماك والطيور ، وكانوا يقتاتون كذلك ببعض الطيور والتوت البرى وغيرها من أنواع الطعام الذى يتيسر لهم جمعه خلال فصل الصيف القصير .

وقد عرف إسكيمو دورست الحربة ذات الرأس المكوعة ولكن حرابهم كانت صورة غشيمة منها . كانت رءوس حرابهم مزودة بحلية مستطيلة رديئة الصنع ، وكانت ثقوب خيط الحربة مقورة بدلاً من أن تكون مثقوبة ، وربما كان أهل دورست هم وحدهم بين الإسكيمو الأقدمين الذين لم يعرفوا المثقاب أو يستخدموه . ومن المؤكد أنهم لم يعرفوا القوس والسهام ، على الأقل فى أول أمرهم . وربما لم تكن لديهم الأنواع المألوفة من زوارق الإسكيمو وزلاقتهم التى تجرها الكلاب ، وقد استخدموا المصباح الإسكيموى ولكن مصابيحهم لم تكن سوى قطعة من الصخر مجوفة أقرب ما تكون إلى الطبيعية منها إلى المصنوعة .

وكان إسكيمو دورست أضعف أهل الشمال جميعاً فى معارفهم الفنية ، فلم يزخرفوا رءوس حرابهم ، أوغيرها من أدواتهم إلا بقليل من الخطوط المتوازية والمائلة . وكان الكثير من أدواتهم يخلو من كل زخرف . وإن المرء ليحس بأن كفاح إسكيمو دورست للحصول على قوتهم من القفار القطبية قد شغل كل وقتهم ، فلم يترك لهم فرصة للتفكير فى أمر تافه كالفن .

وجاب الأثريون سواحل لبرادور وخليج هدسن بحثاً عن قرية من قرى الجبلة الإسكيموية الأولى تقوم الأدلة على أنها الوطن الأول لحضارة أهل دورست ، ولكن جهودهم ضاعت سدى ، ولم يبلغوا غايتهم ، بل على النقيض ظهر أن مدن إسكيمو دورست التى اهتدوا إليها كانت معاصرة لقرى بحر برنج القديم أومتأخرة عنها ، ولم يعثر على شىء فى إقليم دورست يمكن أن يكون له قدم الأوكفيك على سواحل بحر برنج ، بل كان من الواضح أن قرى أهل دورست حديثة العهد نسبياً . وقد بقيت حضارة أهل دورست فى بعض الجهات حتى القرن العاشر الميلادى . وأصبح من الجلى أنها فرع ضال من الحضارة الأصلية ، بدلاً من أن تكون الحضارة الإسكيموية الأصيلة ، التى تفرعت عنها كل حضاراتهم الأخرى ، وربما كان اتساع خليج هدسن قد وقف حائلاً أمام انتشار مدنية الإسكيمو ، وكان أهل دورست أبناء عمومة لسكان أوكفيك ، وبحر برنج القديم ، وأبيوتاك نزلوا بأقصى الشرق. وكان أقصى غرب الساحل القطبى هو الوطن الأصلى لحضارة الإسكيمو ، وفيه تطورت ثم انتشرت إلى أبعد الجهات ، وهى حضارة وفدت من سيبيريا ولا بد أن ظهورها يرجع على الأقل إلى ألف سنة قبل الميلاد .

ولا بد أن حربة الإسكيمو ومصباحه قد اخترعا فى قرية إسكيموية بدائية تقوم بجهة ما على الساحل السيبيرى . ثم جاء الإسكيمو وأسلوبهم

فى الحياة من سيبيريا بعد مجىء إنسان سانديا وإنسان فلصم بنفس الطريق بزمن طويل .

بيد ان الإنسان أكثر الثدييات كلها حذقا . فهو يستطيع أن يعيش حيث يموت كل ثديي آخر ، وقد عاش فعلاً . والغريب حقاً أن أسلوب حياة الإسكيمو ليس ميسوراً فحسب بل وهو أيضاً محبب لديهم ، حتى لقد وجدوا الوقت ليطوروا فنونهم وحياتهم الإجتماعية وألعابهم المسلية وليكون لهم ديانة محكمة ، وليعيشوا أسعد الخلق دون أن تعتريهم كآبة . وينتقل الإسكيموى خلال فصل الشتاء الطويل المظلم على زلاقته التى تجرها الكلاب ليزور صديقاً ، ولعل من العجيب أن يكون فى حياة تعتمد على حربة ومصباح أقصى ما ينشده الإنسان من سعادة .



الفصل الثانى عشر

المايا الرياضيون

عند ما حصل الفاتح الأسبانى كورتيز على المجد والثروة فى وادى المكسيك أثار حسد كل المغامرين من فرسان العصر ، ووصلت مستعمرة كوبا الأسبانية قصص عن وجود مدن أخرى كبيرة تغزى ، وكميات ضخمة من الذهب تغتنم . ووصل أول رجال بيض إلى أرض المايا فى سنة ١٥١١ . فنى تلك السنة ألقى اليم على بعض ضحاضح ساحل يوكتان جماعة يقودهم موظف أسبانى يدعى فالديفيا Valdivia وهم فى شدة الإعياء ومات سبعة منهم من الظمأ . وبلغ أرض يوكتان الأصلية إثنا عشر رجلاً ليقعوا فى أسر المايوبين . ومات هؤلاء أو ذبحهم الهنود وأكلوهم كقرابين بشرية . فلم يسلم منهم إلا إثنان أحدهما هو فالديفيا نفسه ، والتحق الإثنان بالمايوين وتعلما لغتهم . وفى سنتى ١٥١٧ و ١٥١٨ طوفت سفن الأسبان بشواطىء بلاد المايا تغريهم القصص الخالدة عن الذهب والكنوز ، وقاد كورتيز نفسه فى سنة ١٥١٩ حملة إلى يوكتان حيث خلص من الأسر أحد الإثنين اللذين بقيا من حملة فالديفيا ، أما الرجل الآخر ويدعى جيريرو فكان قد تزوج بإحدى نساء المايوبين ورفض أن يترك أسرته ، وعن هؤلاء الذين طرحهم الموج رويت قصص مدن كبيرة فى آجام يوكتان ،

وكانت المدن مبنية بالحجر ، وكانت هناك أهرامات مدرجة تعلو قممها معابد مزينة ؛ وقيل أيضاً أن هناك ذهب وأحجار كريمة وأكداس من الثروة تفوق كثيراً ما عثر عليه كورتيز وأتباعه فى وادى المكسيك .

وأصبح من المحتم إذن أن تجهز حملة تشق طريقها إلى هذه المدن لتستولى على كنوزها ولتحول الهنود الوثنيين إلى الكاثوليكية ، ورأس الحملة فرنسيس دى منتيخو الذى سبق أن صحب كورتيز فى حملته الثانية عام ١٥١٩ . وكان هناك إثنان يحملان نفس الإسم ، مونتيخو الأب ومونتيخو الإبن ، ولاشك فى أن هذين الأسبانيين قد اعتبرا نفسيهما من المحظوظين أن تكون لهما قيادة حملة إلى خزائن كنوز المايوبين فى يوكتان . وراح كل جندى فى جيشهما الصغير يحلم بالغنى الذى سيحصل عليه وشيكا، فلم يكن فى وادى المكسيك سوى مدينة واحدة غنية هى تينوشتيتلان بينما يوجد فى آجام المايا ما يربو على العشر من هذه المدن الرائعة التى تمتلىء بالذهب والجواهر الغالية ، هذا فضلا عن آلاف الوثنيين الذين ستنصرهم الكنيسة ، ومن ثم فستكون هذه الحملة حقاً أروع ما عرفه العالم حتى ذلك التاريخ .

ونزل مونتيخو وجيشه الحالم بالثراء العريض على شواطىء يوكتان سنة ١٥٢٧ وصادفوا الكثير من المايوين وهم يتوغلون فى شبه جزيرة يوكتان ، وحارب الهنود بأسلحتهم البدائية فى ضراوة ، ولعل من الغريب أن يحارب فى صفوفهم جيريرو الأسبانى الذى بقى من حملة فالديفيا وأن يربط مصيره بمصيرهم ، ودارت الدائرة على الأسبان رغم أسلحتهم ومعداتهم وربما كان مرد هذا إلى المعلومات التى أمدهم بها الأسبانى المارق حلفاءه من الهنود . وسقط كثير من الأسبان صرعى حراب مقاتلى المايا ذات الأسنة السبجية [1] وهراواتهم ذات الرءوس الحجرية . ولكن الأسبان

(١) السبج Obsidian ضرب من الزجاج البركانى

الذين يقاتلون فى سبيل الذهب والدين عادوا فاستأنفوا زحفهم .

وحصل مونتيخو وجيشه على بعض الإنتصارات ، واستولوا على بعض المدن ، ولم يجدوا ضرورة للإستيلاء على البعض الآخر الذى لقيهم لقاء سلمياً ، ولاحظ الغزاة الأسبان وهم يزحفون أن معظم مراكز المايويين مهجورة ، وأنها قد تحولت فى الواقع إلى خرائب وأنقاض ، وكانت هناك أهرامات ومعابد هرمية مزينة ، ولكن الآجام كانت قد بدأت تنمو فى هذه الآثار ، وحتى فى المدن والمراكز التى لا تزال مأهولة بجنود المايا كانت رائحة الإنحلال تشيع فى الجو ، وجاءت الجيوش المايوية التى اصطدمت بالغزاة من أكواخ عشبية صغيرة لا من المدن الخربة ، وكان أسوأ ما فى الأمر عدم وجود الكنوز ؛ فلم يعثر إلا على بضعة تفهات من الذهب واليشب ، وظن مونتيخو أن المايا الماكرين قد أخفوا ذهبهم وكنوزهم قبل أن يتمكن الأسبان من الإستيلاء عليها . ومن ثم واصل زحفه إلى قلب آجام يوكتان .

لقد كان سقوط تينوشتيتلان مدينة منتزوما سريعاً ، وكانت غنائم الأسبان ضخمة ، فلتواصل حملة منتيخو زحفها عسى تبلغ الغاية . ولكن صحا كثير من جنود الأسبان من وهمهم فعادوا إلى كوبا وأسبانيا ، وقضى معظم رجال الجيش الأول بسهام المايويين ، وجهز مونتيخو وإبنه جيشاً جديداً ، وحاولا أن يدخلا يوكتان من جهة أخرى ، من الغرب . وربما تكون الإمبراطورية المايوية قد بدأت تشيخ وتنهار ، ولكن هذا لم يقلل من ضراوة محاربيها . وفشلت الحملة تلو الحملة ، وكان أسوأ ما فى الأمر أن يكتشف الأسبان وقد تم لهم إخضاع المايويين بعد نحو عشرين عاما من الغزو أن مونتيخو كان على حق فيما تصوره من قبل ، فلم يغز الأسبان إمبراطورية فى أوج إزدهارها وذروة غناها ، بل تغلبت جيوشهم على مجرد شبح لشعب مجهد لم يعد لديه إلا القليل من الذهب ، وأعطى هؤلاء

الأسبان المضيعون الذين خرجوا من معارك يوكتان ومعظمهم جريح وكلهم بلا ثروة ، وصفاً كئيباً لبلاد المايا ، وعجزوا ، وقد خابت أحلامهم ، عن أن يدركوا عظمة المدن المنهارة ، فلم يعنوا حتى بتدوين أخبار كثير من المراكز المايوية الرائعة التى لابد وأنهم مروا بها فى زحفهم .

ووجد رجال الكنيسة الذين ساروا من وراء الجيوش الأسبانية إلى يوكتان آلافا من الوثنيين يحولونهم إلى المسيحية . وهذا وحده يمكن أن يعد كسباً كبيراً .

وشرع المسيحيون فى حميتهم المعهودة يخربون مخلفات الوثنية التى لا تتفق والمسيحية ، ولما كان المايويين قد هجروا بالفعل معظم مراكزهم الدينية الكبيرة فلم تمثل هذه أى مشكلة ، ولكن العقبة الحقيقية أمام المسيحية كانت فى رجال الدين الذين ظلوا يمارسون طقوسهم ، وكانت بصفة خاصة فى الكتب التى ظل الكهنة يستخدمونها فى تحديد أيامهم الدينية وأعيادهم الخاصة وفى التكهن بالمستقبل . وأقام الأساقفة الذين عهد إليهم بتنصير المايويين المحارق الضخمة للمخلفات الوثنية وبخاصة لتلك المخطوطات اللعينة ، ويمكن أن ندرك مدى حماس رجال الدين الأول . ولكنهم بإحراق هذه الكتب قضوا على التراث الذى أنتجته المدنية المايوية فى آلاف من السنين . لقد كانت هذه الكتب حقاً تتصل بأرباب وثنيين ، ولكنها كانت تحتوى كذلك على خلاصة الفكر المايوى ، بل وربما التاريخ المايوى أيضاً . فلقد ابتكر المايويون طريقة للكتابة . وكانت لهم معرفة بالرياضة لا تقل عن معرفة أى شعب آخر فى العالم الجديد ، ولكن عمى رجال الدين المسيحيون عن أهمية مثل هذه الأعمال . لقد كانت الكتب خبيثة فى ظنهم ومن ثم قضوا عليها .

ويحمل الأسقف لاندا ثانى من تولى أسقفية مديرا التى كانت مركز النشاط المسيحى فى يوكتان وزر توجيه معظم أعمال التخريب ، وإن تكن

حملة الإحراق وإبادة الحضارة المايوية قد بدأت فعلا قبل عصره بزمن طويل، ولم يكن أسقف لاندا يهمه إلا أن يعرف ماذا تعني النقوش المايوية. ويقال إن الأبجدية التي أمده بها بعض علماء المايا كانت زائفة عن عمد لكراهيتهم للأسقف ورغبتهم في تضليله. ومن المؤكد أن هذه الأبجدية لم تنتج إلا هذرا. وأتمت المسيحية ما كان الزمن وجنود الأسبان قد شرعوا فيه.

ولم يكن التدمير شاملا فسلمت من النار والتعصب مخطوطات مايوية ثلاث حملت إلى أوربا، وربما كان الجنود الأسبان قد حملوها كتذكار، فمن المحتمل أن كان امتلاك مثل هذه الكتب مما تحرمه الكنيسة. ولما كان معظم المراكز الدينية الكبرى في الداخل قد خرب قبل حملة مونتيخو، فقد ضاعت كل معرفة بوجود هذه الأماكن. ودمر الأسبان مدنا مايوية أخرى بالساحل وكان ذلك عادة بهدم العمائر القديمة وانتزاع أحجارها لاستخدامها في بناء الكنائس وتشييد المباني الحديثة. وحول الأساقفة والرهبان المتحمسون في يوكتان فلول المايا المشتتين إلى المسيحية، واعتصم قليل من الهنود البـلاء بالآجام، واحتفظوا بما يشبه طقوسهم القديمة. ولكن كهنتهم كانوا قد انقضوا، فنسوا كيف يكتبون وكيف يقرءون نقوشهم القديمة ولم يعودوا يفهمون أصول حساباتهم الرياضية. وهجرت المدن المايوية العتيقة وأصبحت نسياً منسياً، وكان غزو الأسبان لامبراطورية المايا خيبة أمل كبيرة لهم. ونسى التاريخ الحادث، وغرقت أرض المايا والشعب المايوي في بحر النسيان، ومضت ثلاثة قرون قبل أن يعود العالم فيستكشفهم ثانية.

كان جون ستيفنس J. L. Stephens دبلوماسيا أمريكيا وأثريا هاويا، وكان يجوب وفناناً انجليزياً يدعى روبرت كاثروود أمريكا الوسطى وجنوبي المكسيك، وكان ستيفنس قد جاب من قبل كثيراً من جهات العالم وكتب عن رحلاته، وكانت كتب الرحلات تثير الاهتمام وتلقى الكثير

من الرواج في أوائل القرن التاسع عشر حينما كانت السياحة أمراً عسيرا. وكان ستيفنس ولوعا بمعرفة الناس والبلاد، وكانت أمريكا الوسطى عالما تجهله أوربا في العقد الرابع من القرن. ومن ثم ارتادها ستيفنس وألف كتابا عن اكتشافاته. نزل ستيفنس بهندوراس عام ١٨٣١ ورغبته مشاهدة الناس والمدن في المناطق المحيطة بها، وعند ما سمع بوجود أطلال قديمة في الجهات المجاورة ذهب لمشاهدتها، واصطحب معه كاثروود ليرسم الأماكن والآثار التي قد يجدونها، وبهذه الطريقة أعاد ستيفنس اكتشاف امبراطورية كانت أوربا قد نسيتها.

وفي آجام هندوراس دل الهنود المحليون ستيفنس وكاثروود على بعض العاديات الحجرية المنحوتة، وانتزع الرجلان بأيديهما الفطر والطين من النحت القديم، ونسخ كاثروود في صبر الأوجه المقنعة المضحكة والنقوش المنحوتة نحتاً بارزاً على الأعمدة الحجرية، ولم يكن من الميسور قراءة النقوش إذ لم تعد لدى الهنود الذين دلوا عليها ستيفنس وكاثروود أي معرفة بمعانيها.

وعثر ستيفنس وكاثروود على حجارة منحوتة أخرى، وعلى أدلة حياة قديمة كلما توغلوا في الآجام. كان في بعض الأماكن حوائط حجرية ضخمة، وهياكل أهرامات نصف بالية، وكان بأعالي الأهرامات وفيما حولها مبانٍ من الحجر وملاط الجبس، وكانت هذه أيضا مزينة بأقنعة مضحكة ورموز غريبة. وهكذا عثر ستيفنس وكاثروود مرة أخرى بمحض الصدفة على المراكز الدينية الكبرى للمايويين الأقدمين. لقد كانت الأعمدة الحجرية المنحوتة التي نسخها كاثروود أولا، هي النصب التي أقامها المايويون لمناسبة تشييدهم هرماً أو معبداً جديداً، ولم يستطع ستيفنس أبداً أن يقرأ النقوش التي على وجه النصب وبقى سرها ينتظر باحثين أخر ليكشفوا عنه القناع.

وكان الذى كشف عنه ستيفنس هو قصة مدينة مفقودة ، وأدى وصفه ورسم كاثروود للآثار المايوية إلى تركيز الإهتمام بهذه الأجزاء من التاريخ الأمريكى الضائع . وكانت أعمال ستيفنس وكاثروود هى البداية الحقيقية لعلم الآثار المايوية .

وتوافد على أرض المايا الأثريون من أمريكا والمكسيك وكثير من الدول الأوربية ، وشرعوا بالتنقيب فى بعض المواضع التى وصفها ستيفنس ، وفى مواضع أخرى لم تقع عليها عيناه . وتوغل الرواد فى آجام هندوراس وجواتيمالا ويوكتان مهتدين بما عاد به جامعو اللبان من الأدغال من أخبار مدن الأهرامات المندرسة ، وفى نفس الوقت الذى كان يسجل فيه على الخرائط المزيد من أماكن العبادة المايوية كان العلماء يبحثون عن أخبار حملات منتيخو فى الأضابير المهملة بدار المحفوظات الأسبانية ، وأعيد النظر فى الأوصاف والأخبار التى رواها أسقف لاندا ، ولم يعثر الأثريون على « حجر رشيد » جديد يحل لغز الكتابة المايوية ، ولكن العلماء توصلوا إليه بقليل من المعلومات وكثير من البحث ودقة التعليل .

كان من الواضح منذ البداية أن لكثير من النقوش الموجودة على النصب المايوية علاقة بحساب أساسه « نظام الشرطة والنقطة » ، وكانت الشرطة تعادل ٥ والنقطة تعادل ١ . ولكن كان من النادر أن تمثل الشرطة والنقطة أكثر من ٢٠ ، وكان مع الشرط والنقط فى كل الأحوال تقريباً كتابات على شكل وجه مضحك أو قناع . وكان العدد فى كل حالة يعنى فيما يبدو عدداً معيناً من الرموز القناعية ، وبالطبع كان السر فى معنى هذه الرموز نفسها .

ولو لم يكن للمايا مثل هذه العقلية الرياضية لما أمكن أبداً حل رموز طريقتهم ، وقيل فى التو أن حساب الشرط والنقط ورموز الأقنعة إنما هى

جزء من تقويم محكم ، ولم يكن استكشاف هذا التقويم وتعقيده الرياضى من عمل عالم واحد ، بل كان حل معانى النقوش المتعددة على يد جمهرة من العلماء فى أوائل القرن التاسع عشر .

وبدأ معظم هؤلاء العلماء بما كتبه أسقف لاندا وبخاصة بما ورد فى كتابه Relaciôn de las Cosas de Yucatàn الذى كتبه ولا يزال بين الأحياء عـــدد قليل من كهنة المايا يستطيعون قراءة النقوش الهيروغليفية ، وكان التقويم لايزال مستعملا عندما كتب لاندا المعلومات السطحية التى تركها لنا . بل إن لاندا يذكر أن مصدر معلوماته الأساسى شخص يدعى « ناشى كوكون » وكان فى شبابه أميراً وكاهناً له دراية بكتابة قومه الهيروغليفية ، وطريقتهم فى حساب السنين . أضر لاندا بالوضع حينما اعتبر التقويم كله من عمل الشيطان ، ولكنه على الرغم منه أعطى من المعلومات ما استطاع به العلماء من بعد أن يبدأوا عملهم المعقد ، ويحز الألم فى نفوسنا حينما نتصور أن معلومات قيمة كان فى استطاعة الأسقف الجليل أن ينقلها إلينا عن الشيطان وعن ناشى كوكون لو أنه سأل بضعة أسئلة رشيدة ودوّن الإجابات عنها . وحتى فى يومنا هذا ومع آلاف الساعات التى أنفقت فى البحث لم يحل سوى نحو ثلث الهيروغليفية المايوية حلا دقيقاً ، ويتناول معظم هذا الثلث الدورة التقويمية ، ولما كان همّ الأثريين هو الزمن فقد يكون هذا الجزء أهم ما يعنيهم .

ولا ريب فى أن كثيراً من النقوش المايوية التى ظلت بلا حل حتى الآن ، يتحدث عن الشئون الدينية وربما عن التاريخ ، فلم يشيد المايا إلا القليل من الآثار تمجيداً للأفراد كما فعل ملوك مصر وبلاد ما بين النهرين ، هذا إذا كان قد شيد منها شىء على الإطلاق . وإنما كان أهم ما يعنى به حكام المايا هو إقامة الأهرامات والمعابد لآلهتهم . وفى معظم الآثار المايوية يوجد الترقين التقويمى مقترناً برموز أخرى . ومن الواضح أن معظمه يبين

التاريخ الذى شيدت فيه المبانى والآثار . وكان حساب الكهنة المايويين من الضبط حتى لا يمكن للتواريخ التى دونوها على هذه الآثار أن تختلط مع أى تقويم آخر خلال الـ ٣٧٤،٤٤٠ سنة القادمة . فبأى أنواع الحساب بلغ كهنة المايا الأقدمين مثل هذه الدرجة من الدقة ؟

لابد أن المايا الأقدمين كانوا فلكيين أولا وقبل كل شىء . لاحظوا حركات الشمس والقمر والنجوم ، ولاحظوا بخاصة حركات الكواكب وسرعان ما قرروا أن السنة الشمسية تتكون من ٣٦٥ يوما وكسر من اليوم ، وقسموا هذه السنة إلى ١٨ شهراً فى كل منها عشرون يوما . ويبقى فى النهاية خمسة أيام أصبحت تعد أكثر الأيام نحساً ، وكان يسيطر على كل فترة من هذه الفترات التسعة عشر إله خاص له صفات معينة .

وبالإضافة إلى السنة الشمسية ذات الـ ٣٦٠ يوما مضافاً إليها خمسة أيام ابتكر المايويون سنة مقدسة من ٢٦٠ يوما أطلقوا عليها اسم تزولكين tzolkin أو « حساب الأيام » ، وكانت هذه السنة الدينية فى الواقع أكثر أهمية عندهم من السنة الشمسية .

وأعطى لكل يوم من الشهر العشرينى اسم ، وقد استطاع العلماء معتمدين على مادونه الأسقف لاندا أن يحددوا أسماء الأيام العشرين وأسماء الشهور الثمانية عشر وأيام النحس الخمسة التى تقع فى نهاية العام . كان الطفل المايوى يطلق عليه عند ولادته عادة اسم اليوم الذى ولد فيه ، ويكون راعيه المقدس رب هذا اليوم .

ولإستخراج هذا التقويم المحكم قرر كهنة المايا الأقدمون أولا أنهم لن يدونوا إلا الزمن الماضى لا الزمن الجارى كما هى الحال فى طريقتنا ، ومن ثم فحينما يشير الحساب فى التقويم المايوى إلى اليوم الأول من شهر پوب فهم يعنون به فى الواقع اليوم الثانى ، وسرعان ماتبين هؤلاء الرياضيون

الأصلاء أنهم فى حاجة إلى عدية وضعية للصفر . ومع نقش يدل على الصفر استخرج الكهنة المايويون حساباً تقويمياً يعتمد على مكان العلامة الرقمية كما يعتمد على معنى كل رمز ، وكانت علامة الصفر المعروفة عند المايويين هى الصدفة ، ولم يكتشف مفهوم الصفر فى كل تاريخ العالم إلا فى جهتين أو ثلاث . اكتشف هنادك الهند مبدأ الصفر واكتشفه المايا اكتشافا مستقلا ، بل إن اكتشافهم كان أسبق من اكتشاف الهنادك ، واخترع البابليون القدماء كذلك مفهوما للصفر قبل المايا وقبل الهنادك . وكان البابليون يستخدمون الطريقة الستينية فى عدهم أى أن وحدتهم هى الرقم ٦٠ .

وكان التقويم المايوى بسيطاً إلى حد ما بسنته الشمسية ذات الـ ٣٦٥ يوماً ، وسنته المقدسة ذات الـ ٢٦٠ يوماً ، وشهوره ذات الـ ٢٠ يوما . وادخلوا فى هذا الإطار من البساطة ولأسباب نجهلها الرقم ١٣ الذى كان يقرن على الترتيب باسم كل شهر عشرينى الأيام إذ أن ١٣ × ٢٠ = ٢٦٠ ، وواضح أن السنة المقدسة ذات الـ ٢٦٠ يوما إنما اشتقت من هذا الحساب.

وبجمع السنة الشمسية والسنة المقدسة ، كفترتين من الزمن يسيران فى توافق ، خرج الرياضيون المايويون بحساب ١٨،٩٨٠ يوماً أو ٥٢ سنة. أو بعبارة أخرى يعود هذان التقويمان كل ٥٢ سنة إلى نفس اليوم الذى بدآ منه ، وأخذ الازتك والزاپوتك ، والمكستك وغيرهم من شعوب أمريكا الوسطى والمكسيك تقاويمهم عن المايا ، واعتبروا فترة ٥٢ سنة أهم حساب للسنين ، ولكن الأمر بالنسبة للمايا كان مجرد بداية .

والتقويم المايوى كله تقويم عشرينى فى الحقيقة أى يعتمد على الرقم ٢٠. والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو الشهور الـ ١٨ مضافاً إليها الأيام الخمسة لتكوين أيام السنة الشمسية الـ ٣٦٥ ، وفيما عدا هذا فكل شىء فى الحساب المايوى يقبل القسمة على ٢٠ ، وكانوا من الدقة فى هذه الحسابات حتى أنهم كثيراً ما دونوا حساب ٢٣،٠٤٠،٠٠٠،٠٠٠ يوم وهى مدة خيالية

من الزمن حتى بمعاييرنا الحديثة . وكانت رغبتهم أن يتأكدوا كل التأكد من أن التاريخ الذى يسجلونه على آثارهم لا يمكن أن يحرف أبداً .

وكان التقويم المايوى يسجل عادة باليوم المنصرم أو كن Kin على أنه الوحدة القاعدية فى هذا النظام .

٢٠ كن = ١ يونال uinal أو شهر ذو ٢٠ يوما

١٨ يونال = ١ تن tun أو سنة ذات ٣٦٠ يوما

٢٠ تن = ١ كاتن katun ذو ٧٢٠٠ يوم

٢٠ كاتن = ١ باكتن baktun أو دورة ذات ١٤٤٬٠٠٠ يوم

٢٠ باكتن = ١ بيكتن pictun أو ٢٬٨٨٠٬٠٠٠ يوم

٢٠ بيكتن = ١ كالابتن calabtun أو ٥٧٬٦٠٠٬٠٠٠ يوم

٢٠ كالابتن = ١ كينشيلتن kinchiltun أو ١٬١٥٢٬٠٠٠٬٠٠٠ يوم

٢٠ كينشيلتن = ١ ألوتن alautun أو ٢٣٬٠٤٠٬٠٠٠٬٠٠٠ يوم

ولكن المؤرخين المايويين كانوا عند التطبيق العملى يكتبون التاريخ فى العادة بادئين بدورة أو باكتن ذات ١٤٤٬٠٠٠ يوم. ولما كانوا يكتبون كل تاريخ بالنقوش فى وضع معين فإن من السهل على الباحث الحديث أن يقرأ التوقيت المايوى . كانت تدون أولا فى العادة تواريخ « العد الطويل » لما يسمى « بالسلسلة الإبتدائية » ، فتكون كتابته هكذا ٩ — ١٧ — ٠ — ٠ — ٠ . ويعنى مثل هذا التاريخ أن ٩ دورات من ذات الـ ١٤٤٬٠٠٠ يوم و١٧ فترة من ذات الـ ٧٬٢٠٠ يوم ولا شىء من فترات الـ ٣٦٠ يوما والـ ٢٠ يوما واليوم الواحد قد انصرمت منذ النقطة التى بدأ منها التقويم كله .

والذى لا نعرفه هو النقطة التى بدأ يعد منها هؤلاء الحاسبون القدماء سنينهم ، فالتقويم الغربى مثلا يبدأ بميلاد المسيح ثم نعد من هذه النقطة

السنين بعد الميلاد أو قبله . وواضح أن كان للكهنة المايويين كذلك نقطة ثابتة اعتبروها بداية لعد السنين والحساب . وكانت نقطة الصفر فى التسلسل الزمنى المايوى رقماً معيناً هو « ٤ أهو Ahau ، ٨ كومهو Cumhu » . وقد كان هذا التاريخ الأسطورى حوالى ٣٤٠٠ سنة قبل أقدم أثر مايوى مؤرخ عثر عليه ، ولا يمكن أن نقول إلا تخميناً أن نقطة البداية هذه ، إنما اشتقت من أمر فى غاية الأهمية حدث قبل أن تحفر السجلات المايوية على الحجر بثلاثة آلاف سنة . وكانت أقدم التواريخ المايوية المدونة هى فعلا فى الباكتن السابع وكان معظمها فيما بعد ذلك التاريخ .

وبالإضافة إلى الحسابات الرياضية لهذا التقويم الخيالى وضع المايا نقشين لكل فترة زمنية ، وسجلوا على معظم آثارهم مايعرف « بالسلسلة الثانوية » ، وهى قانون يتم به التصحيح التقويمى للسنة الكبيسة ، وإذا أدخلنا فى حسابنا أن القوم لم يكن لديهم تليسكوبات أو آلات السدس أو غيرها من الأجهزة الدقيقة التى تقيس حركات الأجرام السماوية ، فإن مجرد إدراك هذا التصحيح لما يدعو إلى الدهشة .

وعلاوة على تصحيح السنة الكبيسة ، دون كهنة المايا « سلسلة إضافية » أو حساباً بالقمر . وكانت هذه العدية الوضعية من النقوش ورموز الشرط والنقط تتبع عادة « العد الطويل » للسلسلة الإبتدائية حتى يتأكدوا كل التأكد من عدم وجود أى خطأ فى مدى الزمن المنصرم الذى يسجل . وليس الرياضيون المحدثون المشتغلون بالطبيعة الفلكية فى الواقع بأكثر إتقاناً لحساباتهم من كهنة المايا الذين عاشوا منذ عشرة قرون .

وربما كان حساب التقويم المايوى والطرق الرياضية التى يحسب بها هو أعظم عمل قام به أى شعب فى أمريكا القديمة . ولا توجد أروع أمثلة هذه الحسابات على الآثار الحجرية بل فى المخطوطات المايوية الثلاث التى سلمت

من عبث المسيحيين المتحمسين ، وهى مخطوطة درسدنسيس ، ومخطوطة ترو — كورتزيانوس ، ومخطوطة بيريزيانوس .

ويتكون كل من هذه الكتب الثلاثة من قطع طويلة من الورق المصنوع من لب مدقوق من لحاء الشجر . وكانت مطوية كالحجاب . وقد دهنت الأوراق من الناحيتين بطلاء أبيض رقيق ، حتى تكون صالحة لكتابة النقوش والأرقام على صفحاتها، وكان الطلاء محكماً وبألوان متعددة من الأحمر والأزرق والأصفر والبنى والأخضر والأسود اللماع . وكان كل من هذه الكتب الثلاثة يعالج الشئون الدينية ، والطوالع والتقويم . ولا يتناول واحد منها لسوء الحظ التاريخ أو العلم أو العمارة . فقد أتلف كل ما يكون قد وجد من هذا النوع من الكتب .

ووصل أحد هذه الكتب وهى مخطوطة درسدنسيس إلى فيينا سنة ١٧٣٩ حيث حمله أو أرسله إليها أحد الجنود الأسبان . وربما كان مونتيخو نفسه هو الذى أرسله ، وقد حملت هذه المخطوطة اسم درسدن لأنها أهديت فيما بعد إلى المكتبة الملكية بدرسدن ، وتعتبر مخطوطة درسدن أعظم عمل فكرى تمخض عنه العالم الجديد ، ففيها الحسابات الدقيقة لشعب يفوق الشعوب جميعاً فى عقليته الرياضية . ولو بقيت لنا مخطوطة درسدن وحدها ولم نعرف شيئاً عن المدن المايوية نفسها ، لظل لنا إيماننا بعبقرية أولئك العلماء الأقدمين الذين لم نعد نعرف حتى أسماءهم .

ومن التواريخ المنقوشة على آثار المايا أصبح من الميسور أن نقف على كثير من تاريخهم . واهتدى الأثريون إلى أن المدنية المايوية إنما بدأت فيما يعرف الآن بجواتيمالا وبخاصة فى المنطقة حول بحيرة بيتان. فى منطقة البحيرة وفى هندوراس المجاورة عشرات من أماكن العبادة الكبرى تضم أقدم النصب والآثار المايوية المؤرخة . والواقع أن أقدم التواريخ المايوية التى عثر عليها منقوشة على أشياء صغيرة كالإناء اليشبى [1] المعروف باسم

(١) اليشب حجر كريم يشبه الزبرجد ولكنه أكثر منه صفاء

« طبق ليدن » ، ولا يمكن الآن أن نحدد بالضبط مكان اكتشافها . وتنتهى تواريخ « العد الطويل » لمدن بيتان عند ١٠ — ٣ — ٠ — . — . أما كيف حدث هذا فلم يقطع فيه برأى بعد ، وربما كشفت الحفائر التى تجرى فى مدينة تيكال بمنطقة بيتان عن سر هذه النهاية الفجائية . ويطلق على مجموعة مراكز العبادة المايوية فى المنطقة عادة اسم « الأمبراطورية القديمة » ، وربما تكون هذه الأمبراطورية قد انهارت فجأة بسبب الطاعون أو تلف الزراعة أو انحباس المطر أو الانحلال الخلقى .

ومهما يكن السبب فلا بد وأن كانت عظيمة الأهمية لدى الشعب الذى شيد تلك المدن الدينية الكبيرة ثم هجرها وهاجر إلى الشمال ، وتمتد من مرتفعات جواتيمالا فى خطين رئيسيين من خطوط الهجرة يطلق عليهما اسم « المهبط الأكبر » و « المهبط الأصغر » . وعندما انحدر القوم من التلال إلى سهول يوكتان توقفوا فى الأماكن الملائمة وبنوا مدناً دينية جديدة ، وبعض مدن هذه « الأمبراطورية الوسطى » كبير فى حد ذاته . وقد تغير طراز عمارة معابدها إلى حد ما ، فكان هناك أنواع جديدة من الأقنعة الجبسية وطرق مختلفة للنقش فى الحجر . ولكن الحياة كانت فى أساسها هى نفس الحياة . ظل كهنة المايا يحتفظون بحساباتهم التقويمية وينقشونها على الآثار التى يقيمونها فى المناسبات الدينية . وظلت الآلهة القديمة يتعبد لها . وكانت وجوهها وأسماؤها منحوتة فى النقوش .

ولكن الحركة إلى الشمال استمرت ، ولا تسجل معظم مدن « الأمبراطورية الوسطى » تاريخاً يرجع إلى أبعد من ١٠ — ٨ — ٠ — ٠ ، وتضخم عدد السكان فى المراكز المايوية التى فى أقصى شمال شبه جزيرة يوكتان والتى كان بعضها قليل السكان فعلا فى العصور السابقة فأصبحت مدناً كبيرة . ولم تكن بالطبع مدناً بالمعنى العادى ، فالذين بنوا الأهرامات الحجرية والمعابد القائمة برءوسها لم يسكنوا أبداً هذه المراكز الدينية ، وإنما كان عامة الشعب

يعيشون حولها فى أكواخ بسيطة تلاصق مزارعهم الصغيرة ، تماماً كما يفعل أحفادهم فى الوقت الحاضر ، وكانوا يشيدون عناقيد من الأهرامات يحافظون فيها على أصول خاصة تمجيداً لآلهتهم ، وهى أبنية لا تزال محل عجب كل دارسى الآثار فى أى مكان .

ويطلق على مراكز العبادة فى يوكتان الشمالية عادة اسم « الأمبراطورية الحديثة » والتواريخ التى تسجلها مدن هذه الأمبراطورية هى أحدث التواريخ جميعا ، وكان مما أتعب الأثريين بصفة خاصة أن المايا فى ذلك العصر كانوا يدونون تواريخهم بطريقة « العد القصير » . ونحن فى عصرنا هذا نستخدم نوعا من العد القصير أو اختصار السنة فنكتب سنة ٦٠ بدلا من ١٩٦٠ ، ولكن الأثريين بعد ٥٠٠ سنة قد لا يعرفون ماإذا كنا نعنى سنة ١٨٦٠ أم ١٩٦٠ أم ٢٠٦٠ وهكذا وبنفس الشكل التبس أمر الاختصارات المايوية على علماء الآثار .

ولكن حتى مع هذا الإلتباس الناشىء عن « العد القصير » فإن الخطوط العريضة للتاريخ المايوى واضحة إلى حد كبير ، ورغم اسم « الامبراطورية الحديثة » الذى نطلقه على هذه المراكز الدينية فهى لم تكن أبداً امبراطوريات بالمعنى السياسى الصحيح ، وإن تكن جماعات المايويين قد تكتلت فى عصب حاربت الواحدة منها الأخرى . وفى خلال تلك السنوات المتأخرة كان هناك أيضاً انحلال خلق ، وربما كان السبب فى نكبة المايا منذ البداية انهيار خلق أو دينى تفشى فى مجتمعهم ، وربما زاد الجفاف وانحباس المطر من متاعبهم ، وحتى قبل وصول الغزاة الأسبان كان كثير من مدن « الإمبراطورية » الجديدة قد اندرس ، وربما كانت قصة المايويين هى نفس قصة كثير من أصحاب الحضارات الكبرى الأخرى الذين لم تترك لهم الحروب الدائمة فرصة للتقدم المادى . ولعل فى استخدام « العد القصير » علامة على أن كل شىء قد انهار حتى أن الحسابات الرياضية نفسها لم تعد

تستعمل ، وعندما وصل الغزاة الأسبان كانت مدنية المايويين قد سبقت إلى الفناء .

لقد غزا مونتيخو وإبنه شعباً كان قد اختل نظامه وانهار بالفعل ، ثم قضى عليه نهائياً رجال الدين المسيحيون الذين محوا فى غمرة حماسهم الدينى آخر أثر من أمجاد هذه الحضارة الراقية ، ولكن الأسقف لاندا نفسه يتوسع فى إثبات هذه الأمجاد وقيمتها وهو يتحدث عن وجودها فى غل وموجدة ، وما انفك الأثريون ينقبون ويكتشفون أدلة جديدة تتحدث عن عظمة المايويين ، وربما استطاع العلماء فى المستقبل أن يتوصلوا إلى حل ما بقى غامضاً من الحروف المايوية ، وربما استطعنا من هذا أن نلم بتاريخهم أو بالأسباب التى أدت إلى خراب مراكز العبادة فى « الإمبراطوريه القديمة » ، وحتى وإن لم نقف على هذه الأجزاء من التاريخ المنسى ، فإن حسابات المايا الرياضية وحدها تضعهم بين أمجد الشعوب القديمة وأعظمها مواهب .



الفصل الثالث عشر

جماجم واهرامات

أربعة كهان طليت أجسامهم بطلاء أسود يمسكون بذراعى رجل منهوك ورجليه ، ثم يطرحون الضحية على ظهرها فوق مذبح حجرى مستدير . وكان الرجل فى زينته ؛ فعلى رأسه غطاء من الريش الأصفر والأخضر وعلى جسمه عباءة من ريش الزينة الملون ، وكان صدره عارياً . ووقف على رأسه كاهن خامس فى أبهى زينة : ريش على الرأس ، وعلى الجسم عباءة وسراويل ، وفى يده المرفوعة سكين من السبج ، وتمتم الكاهن بابتهالات ، ثم هبط فجأة بسكينه ، وبطعنة بارعة شق صدر الضحية وانتزع القلب وهو لايزال ينبض بالحياة ، وحمله على راحته الملطخة بالدماء ، وقدمه إلى الشمس التى كانت فى السمت . وفى تلك اللحظة ارتفع صياح الألوف من الناس الواقفين حول قاعدة الهرم الحجرى الذى يقوم مذبح القرابين على قمته . وعند إشارة خاصة ألقى الكهان الأربعة الذين كانوا قد حملوا الضحية بالجسد الهامد على السلم الصاعد فى الجانب الغربى من الهرم فتدحرج إلى الأرض ، وسرعان ما تخاطفته الجماهير المنتظرة ، وراحت تقطعه إرباً إرباً ، وفى أعلى الهرم كان الكهان الأربعة قد أخرجوا ضحية جديدة من قفص خشبى صغير ، وطرحوها على حجارة المذبح .

وهكذا كان الأزتك القدماء يسترضون آلهتهم بالقرابين البشرية ،

فحياة الإنسان هى أكبر هدية يقدمها الناس لأية آلهة ، ولم تكن سنة القرابين التى أداها المكسيكيون القدماء آلاف المرات على قمم أهراماتهم الحجرية من أعمال الوحشية البدائية المتبربرة . بل كانت من مظاهر مدنية مركبة ظلت تنمو وتتطور خلال قرون طويلة .

إن وادى المكسيك حوض بركانى بيضى الشكل يقع فى هضبة عالية ، وكانت هناك بحيرة ضحلة تتوسط الوادى فى العصور القديمة . وكان الوادى مراحاً ممرغاً لحيوانات عصر الجليد ، وكان أمريكيو ذلك العصر يصطادونها ليغتذوا بلحومها . وكانت تبكسبان فى وادى المكسيك هى الجهة التى عثر فيها على هيكل إنسان بجانب بقايا الماموث المطمورة ، وفى أجزاء أخرى من الوادى عثر على أسنة الحراب والآلات الحجرية التى تنتمى إلى أواخر عصر الجليد .

وفى وادى المكسيك كذلك ، وفى عصر مابعد الجليد اهتدت جماعات من الناس إلى سر الزراعة ، فزرعوا الذرة والقطانى والقرع . وكانت التربة البركانية صالحة . وكان المناخ مثاليا . وبلغ سن الرشد عدد من المجتمعات الزراعية كانت تعيش حول بحيرة تكسكوكو Texcoco التى سميت باسم إحدى القبائل النازلة بها ، وازدهرت هذه المجتمعات وقد ضمنت مورداً ثابتاً للغذاء ، وأفادت من مزايا الإستقرار فى حياة زراعية . ونكاد نجزم بأن سر الزراعة إنما جاء من الجنوب ، من أمريكا الوسطى أو من الأجزاء الشمالية من أمريكا الجنوبية ، وصادف انتشار حرفة الزراعة نحو الشمال نجاحاً وبخاصة فى وادى المكسيك .

وفى سنة ١٥١٩ ميلادية سار هرناندو كورتيز فى نفس الوادى على رأس قوة أسبانية تتألف من ٤٠٠ جندى فوجد أن المدنية هناك تضارع مدنية وطنه فى أوربا . كان الوادى مرقشاً بالمدن حتى ليمتد بصر الجندى

إلى ما يربو على العشرة منها فى النظرة الواحدة . ولاحت لكورتيز ورجاله مدينة رائعة فى وسط البحيرة ، وكان فى استطاعتهم أن يروا عبر الماء المرتعش عشرات من الأهرامات تقوم برؤوسها مبان ، وبدت معالم سطوح القصور والشرفات والمسارح ، وكان المنظر رهيباً حتى بالنسبة للمغامرين الأسبان القساة ، فظنوا وهم الذين اعتادوا على أبهة أوربا أن هذه العاصمة المكسيكية القائمة على جزيرة فى بحيرة تكسكوكو تفوق فى عظمتها أكثر المدن الأسبانية فى عصرهم .

وكشفت معاول الأثريين عن بعض عجائب المكسيك القديمة ، واكتشفوا كيف قامت مدينة الأزتك ، ولكن سيرة حياة المكسيكيين وهم فى أوج مجدهم إنما وصفها لنا شخص شهد عاداتهم ، وتحدث إليهم ، وعرف أسماءهم ، وكان بوسعه أن يصف العظمة ، وأن يروى الأحداث والظروف التى أحاطت بها .

كان برنال دياز دل كاستيللو أحد جنود كورتيز . وعندما اشترك فى المسيرة الكبرى إلى مدينة الكنوز الأزتكية كان من خيرة الجنود ، وبعد مضى سنوات وكان برنال دياز قد أصبح شيخاً ، ألف كتاباً ادعى أنه يقوم به سوء الفهم ويصحح الشائعات الجامحة التى راجت عن هذه المغامرة البطولية فى وادى المكسيك وسماه « التاريخ الصادق لغزو أسبانيا الجديدة » . وأصبح فى كتابه أشبه بالمراسل الحربى لحملة كورتيز ، يروى أخبار المعارك التى دمرت الإمبراطورية المكسيكية ، فيرسم دون أن يشعر صورة حية لحضارة أمريكية عظيمة فى أوج مجدها ، وهكذا يعطى معلومات أثرية من أكثر المعلومات كشفاً عن الماضى .

كان الأزتك الذين وصفهم برنال دياز ، وتحدث عن أهراماتهم الحجرية وكهنتهم ذوى الملابس الزاهية ، وقرابينهم البشرية التى يقدمونها لآلهتهم ، شعباً مر فى مرحلة للتقدم طويلة ، ولم تكن الاحتفالات ، والقرابين التى

تضفى عليها هيبة ورهبة ، والتقويم الذى تقوم على أساسه هذه الاحتفالات من ابتكار الأزتك أصلا . بل وحتى طرق تشييد الأهرامات ذات السطح المستوى وغيرها من مبانى العاصمة الازتكية تعلمها الأزتك من شعوب متنورة سبقتهم .

فالزراعة وهى مفتاح تقدم المدنية إنما بدأت فى الجنوب يقيناً . ولسوء الحظ لم يهتد هنود العالم الجديد أبدا إلى استئناس الحيوان . وفيما عدا قليل من القردة وبعض الطيور التى احتفظ بها لريشها الملون ، لم تتعلم شعوب أمريكا الوسطى أن تربية الحيوانات قد تخفف من أحمالها ، وتزيد من موادها الغذائية . ولقد كان هناك بالطبع بضعة حيوانات تصلح للاستئناس تعيش فى أرض الازتك والمكسيكيين . لقد بدأت المدنية فى العالم القديم معتمدة على الزراعة واستخدام الحيوان ولكن بدأها فى العالم الجديد لم يعتمد إلا على الزراعة وحدها .

لقد كان وادى المكسيك فى أول الأمر نقطة حدود شمالية لكثير من المجتمعات الزراعية ، وقد عثر الأثريون على أدلة عن شعب مغرق فى القديم سكن الوادى وزرع الذرة والقطانى والقرع وصنع شيئاً من الفخار ، وأطلقوا على هذا الشعب اسم « الشعب العتيق » . وترجع بعض هذه الأدلة إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون . ومن المحتمل أن تكون الزراعة نفسها قد نشأت حوالى ٣٠٠٠ ق . م . ولما كانت الطبيعة قد أنعمت على وادى المكسيك بكل ما تتطلبه حرفة الزراعة فقد ازدهرت الحياة هناك وزاد عدد السكان .

ولكن تلك العوامل التى تخلق العظمة لم تكن موجودة بالوادى حول بحيرة تكسيكوكو فى أول الأمر ، وربما كان المايويون أو سكان أمريكا الوسطى الذين يعيشون إلى الجنوب هم الذين بدأوا هذه الأمور . لقد عرفت

مدنية المكسيك الراقية التقويم وبناء الأهرامات الحجرية ، والطقوس الدينية التى ترتبط بالتقويم والأهرامات ، وهذه كلها وفدت من الجنوب .

وكثيراً ما يعزى دخول هذه الأفكار الراقية وادى المكسيك إلى شعب غامض يدعى « التولتك » . ويوجد بعض الشك فيما إذا كان التولتك هؤلاء قبيلة أم مجموعة من القبائل أم هو مجرد اسم تسمى به فترة من التاريخ ولكن من المقطوع به أن الشعوب الزراعية المتحركة شمالا فيما يعرف الآن بالمكسيك الجنوبية هم الذين حملوا هذه الأفكار إلى الوادى ، ثم أخذت مجموعات من القبائل فيما بعد تمارس الطقوس وتبنى الأهرامات ، مقلدة فى ذلك جيرانهم بالجنوب . وليس هناك من شك فى أن المدن الدينية ذات الأهرامات الحجرية بوادى المكسيك ، إنما بنيت فى عصر متأخر عن العصر الذى بنيت فيها نظائرها فى بلاد المايا ، والمقطوع به أن هذه الأهرامات لم تشيد ولم يبلغ التقويم أعلى درجاته بوادى المكسيك إلا بعد ميلاد المسيح . وسرعان ما تمخضت هذه الأمور عن مدنية ليس لها ما يضارعها فى أمريكا القديمة .

وموضع سان خوان تيوتهواكان إلى شمال مدينة المكسيك الحالية بنحو ٢٥ ميلا ، ولا بد أن كورتيز وجنوده قد مروا بجوار هذه البقعة فى سيرهم بالوادى سنة ١٥١٩ ومع ذلك فلم يرد أى ذكر لها ، إذ كانت مدينة تيوتهواكان الدينية قد طواها العدم ، وكانت قد نسيت على عهد الأزتك .

وتيوتهواكان هى بلا جدال أروع مراكز العبادة فى أمريكا القديمة . فهى وإن لم تكن لها ضخامة تيكال أو غيرها من المدن المايوية ، تضم أكبر المبانى الباقية من مدنيات العصور السابقة للغزو الأوربى .

وتشغل تيوتهواكان مساحة واسعة تمتد خمسة أميال طولا وثلاثة أميال عرضاً وفى وسطها شارع أو ميدان طويل يمتد لمسافة تربو على الميل ،

وعلى جانبى شارع الموتى هذا Avenida de las Muertos كما يسمى أهرامات حجرية كأنما رتبت وفقاً لخطة متوازنة . والتخطيط العام لتيوتهواكان هو نفس تخطيط المدن المايوية ، ولا شك أنه مشتق من نفس المصدر . ولو أن البناة الأصليين لتيوتهواكان قصدوا إلى موازنة المبانى الكثيرة فى تخطيط شامل لما أتموا أبداً مشروعهم الطموح . ويقوم الهرمان الرئيسيان عند أحد طرفى الميدان الطويل وتقوم معظم الأهرامات الأخرى على جانبيه الشرقى وكثير منها أهرامات صغيرة . وقد بنى بعضها ، القائم بالأطراف من الطوب المبطن بالحجر أو شيد كله من الطين . ومما يسترعى النظر أن الكثير من الأهرامات لم يشيد دفعة واحدة . ومن ثم فقد كبر الهرم الصغير بكسوته بمبانى أكبر تغطيه تماماً ، ثم زاد حجمه بكسوته مرة ثانية . وكثير من أهرامات تيوتهواكان قد كبرت سبع مرات أو أكثر . ولما كنا على يقين من أن بناة الأهرام القدامى كانوا قد عرفوا التقويم مسبقاً فإننا نستطيع أن نقطع بأن هذه الزيادات قد أضيفت كل ٥٢ سنة .

وعدد أهرامات تيوتهواكان فى مجموعها نحو ٣٠٠ هرم ، كبر معظمها مرتين أو أكثر . ومعظم الأهرامات مبنى بالحجر أو مكسو به ، ولأغلبها سلالم تؤدى إلى قممها . وكانت سطوح الأهرامات مجصصة ومطلية باللون الأحمر ، وتشبه هذه الأهرامات إلى حد كبير الأهرامات المايوية فى مظهرها والوظيفة التى تؤديها ، غير أن أهرامات تيوتهواكان ليس بأعالها معابد حجرية ، ومن المحتمل أن كان بها نوع من المبانى ولكن لا بد وقد كانت من الخشب وانتهى وجودها من زمن بعيد .

وتبدو تيوتهواكان للنظرة الاولى وهى أكثر جهامة من المدن المايوية ، فالأهرامات المكسيكية تعوزها الاقنعة المزينة والطراز المعمارى المايوى المعقد التركيب ، ولكن بتيوتهواكان هرمان يفوقان فى ضخامتهما كل ما ترك المايويون من بناء .

هذان الهرمان أطلق عليهما المنقبون اسم « هرم الشمس » و « هرم القمر » وربما كانت لها صلة بهذه الآلهة القديمة . وهرم الشمس وهو أكبر الهرمين يرتفع إلى أكثر من مائتى قدم ويربو طول ضلع قاعدته على ٧٠٠ قدم ، فهو والحالة هذه أصغر قليلا من هرم خوفو بالجيزة ، وعندما شق المنقبون فيه أنفاقاً تصل إلى قلبه تبين لهم أنه هو أيضاً يتكون من عدد من الأهرامات بنى كل منها ليغطى هرما سابقاً . وقد قطعت كتل اللابة التى بنى بها الهرم وشكلت بعناية وكان تنظيمها فى البناء وقد توازت خطوطها مما يفخر به أى مهندس معمارى فى العصر الحديث .

فإذا سرنا فى طريق الموتى فنحن أمام مجموعة كبيرة من الأهرامات هى القلعة Cuidadela ولها فعلا شكل القلعة أو الحصن ولكنها بلا شك لم تكن شيئاً من هذا القبيل ، إنها ليست سوى مبانى دينية ككل المبانى الأخرى فى تيوتهوا كان وتتكون « الشويداويلا » من مصطبة كبيرة من الحجر ينخفض وسطها مكونا ما شبه الفناء ، وبالفناء هرم متواضع الحجم ولكن به مدرجات وسلالم مزخرفة بنقوش منمقة محفورة فى صخور اللابة الصلبة . ولما كانت معظم أهرامات تيوتهوا كان خالية من كل نقش حتى لتبدو كئيبة كالحة . فإن هذا الهرم لمما يسترعى النظر . ومن المحتمل أن يكون هذا الهرم الرئيسى فى « الشويداديلا » قد أقيم تكريماً للإله المكسيكى كويتزالكوتل Quetzalcootl أو « الحية المجنحة » فدرجات الهرم مزينة بأجسام الحيات المتموجة . وتبرز رءوس هذه الحيات لتحف بجانبى السلم مكونة ما يشبه الدرابزين ، ويحيط بأعناقها خصل من الريش ، فيبدو الشكل فى مجموعه كواجهة غريبة مقتحمة . ويدل معبد كويتزالكوتل على أن بناة تيوتهوا كان ، كائناً من كانوا ، كانوا فنانين حقيقيين ، فى مقدورهم أن ينحتوا الصخر الصلب فى مهارة فائقة .

وليس هرم الشمس فى تيوتهوا كان على ضخامته بأكبر ما خلف

المكسيكيون من بناء . ففى موضع شوليولا Cholula القديم الذى يبعد بنحو ٩٠ ميلا هرم أكبر يتوسط نحو مائة من روابى الأهرامات فى « وادى شوليولا » ، ويقع هرم شوليولا بالقرب من مدينة حديثة تحمل نفس الإسم ، وكثيراً ما يتجاهله السياح إذ أن غطاءه الخارجى من الحجر قد أنهار فأصبح ما بقى من الهرم وكأنه مجرد تل من التراب ، وقد بنى الغزاة المسيحيون على قمة الهرم كاتدرائية حتى يعوذوا ببركتها من شر الآلهة الذين كانت تقام باسمهم الصلوات على تلك القمة . ويبدو هرم شوليولا فى الوقت الراهن وكأنه تل ضخم تقوم على قمته كنيسة .

وهرم شوليولا هو أكبر بناء فى العالم شيده الإنسان ، وهو أكثر إثارة من أى بناء آخر فى أمريكا القديمة ، فارتفاعه دون المائتى قدم بقليل وطول الضلع من أضلاعه ١٥٠٠ قدم ، ويشغل الهرم كله مساحة تربو على الستين فداناً ، وكما يتوقع المرء ، عثر الأثريون عندما شقوا الأنفاق إلى قلبه على عدة أهرامات أقدم بنيت من الحجر وكان لأحدها الشكل المستدير .

ولم يذكر برنال دياز أى إشارة عن تيمتهوا كان ولكنه وصف شوليولا بقوله إن هناك أكبر من مائة « برج » يقوم كل منها فى فناء فسيح ومن بينها برج أكبر من سائر الأبراج . وقال دياز بأن شوليولا أشبه ببلد الوليد فى أسبانيا وكان هذا منتهى الاطراء من الجندى الشكس .

هذه الحماسة فى تشييد الأهرامات التى وفدت من الجنوب بلغت ذروتها عند عدة شعوب تسكن بوادى المكسيك أو فيما حوله . ومع الأهرامات جاء التقويم ، وعند ما غزا كورتيز الوادى كان القوم يستخدمون التقويم منذ عدة قرون .

وقام التقويم المكسيكى على نفس الأسس التى قام عليها التقويم المايوى . فالسنة تنقسم إلى ١٨ شهراً فى كل منها ٢٠ يوماً لتصبح سنة شمسية عدد

أيامها ٣٦٠ يوماً ثم يضاف فى آخرها خمسة أيام نحس لا يتم فيها أى عمل ولا يبدأ فيها مشروع جديد ، وتدل أسماء الأيام كالتمساح والقرد بوضوح على أن التقويم جنوبى النشأة فليس فى وادى المكسيك تماسيح أو قرود . وبالإضافة إلى السنة الشمسية كان للمكسيكيين سنتهم الدينية أو التونالمتل Tonalamtl ذات الـ ٢٦٠ يوماً . وكان لهم أيضاً سنة من ٥٨٤ يوماً على أساس حركة كوكب الزهرة وتعادل خمس سنوات زهرية ثمانى سنوات شمسية عدد أيامها ٢٩٢٠ يوماً .

ويظهر الرقم ١٣ فى التقويم المكسيكى كما يظهر فى التقويم المايوى . وكانت الأرقام ١٣ تجمع مع الأسماء العشرين للأيام فى تعاقب متواصل . وكانت أيام أربعة من الأيام العشرين فى التقويم المكسيكى هى التى يمكن أن يبدأ بها عام جديد ، وكان المكسيكيون يطلقون على هذه الأيام اسم رسل السنة ، ويدعونها البيت والأرنب والعصا والصوان . وكان التقويم المكسيكى يسبق بأحد أرقام الـ ١٣ المتصلة بكل واحد من رسل السنة . ومن ثم فالسنة الأولى فى دورة تسمى سنة ١ بيت وتكون السنة الثانية سنة ١ أرنب والثالثة ١ عصا وهكذا . وتتم الدورة كما يعبر عنها المكسيكيون حينما يحكم رسول السنة ١٣ مرة ، و ١٣ لأربع مرات تساوى ٥٢ . ومن ثم يبدأ التقويم المكسيكى من جديد كل ٥٢ سنة .

ومن الطريف أن نلاحظ أن الباحثين المكسيكيين لم يستخدموا طريقة الشرط والنقط التى استخدمها المايويون ، ولم يحسبوا تقويماً تزيد فتراته على ٥٢ سنة . وكانت الحسابات الرياضية المكسيكية عسفية إذا قورنت بالحسابات المايوية ، ولم يدرك المكسيكيون كذلك فائدة علامة الصفر .

واتفق وصول الجيش الأسبانى فى سنة ١٥١٩ مع سنة ٢ صوان فى التاريخ المكسيكى . ولا شك فى وجود ارتباط بين التقويم المكسيكى

والتقويم الذى نستخدمه . ولكن الفترات ذات الـ ٥٢ سنة السابقة غامضة كل الغموض خصوصاً وإن المكسيكيين الأول نادراً ما سجلوا تواريخهم على الأحجار . وغالباً ما يتعذر على الأثريين وهم يدرسون العصور الأولى أن يعينوا ما تعنيه فترة من ذات الـ ٥٢ سنة .

ومع بناء الأهرامات والإحتفاظ بتقويم جاءت أيضاً الطقوس التى كانت تمارس على قمم الأهرامات فى أيام محددة . ففى نهاية كل دورة ذات ٥٢ سنة وبداية الدورة الجديدة كان المكسيكيون فى كل البلاد يحتفلون بسنة جديدة هائلة ، فتلغى الديون وتزول الخصومات ، وتنتهى جميع الإتفاقات ، وترمى كل امرأة بأدوات المطبخ وأثاث البيت وتبدأ فى استعمال أدوات أخرى جديدة وتطفأ كل نار موقدة ، وعندما يطلع فجر الدورة الجديدة ذات الـ ٥٢ سنة تشعل النار فوق صدر عبد يضحى به لهذه الغاية . ومن هذه النار الواحدة تحمل المشاعل إلى كل مدينة لتوقد نيران الدورة الجديدة ، وبهذا يقضى على شر الدورة القديمة ويبدأ كل شىء من جديد .

وكان آلهة المكسيك الذين كان يحتفل بعباداتهم على قمم الأهرامات فى فترات تقومية شبيهين بآلهة المايا ، وكان أكبر تلك الآلهة الحية المجنحة ربة الأرض والسماء ، وكان هناك آلهة للماء ، وآلهة للريح وآلهة للذرة النامية فى مختلف الفصول . وكان لكل من الأيام العشرين والأرقام ١٣ الإله الخاص .

ومعظم معلوماتنا عن التقويم المكسيكى واحتفالات المكسيكيين الدينية مستمدة من عدد من المخطوطات أو الكتب المكسيكية . فلم ينجح المسيحيون فى المكسيك لحسن الحظ فى تدمير الآداب المكسيكية كلها كما نجح إخوانهم فى بلاد المايا ، وسلمت عشرات من كتب العصور الأولى وكان بعضها قد كتب قبل مجىء الأسبان وكتب البعض الآخر فى العصور التالية .

وخرج الأثريون من هذه المخطوطات بفكرة شاملة عن الحياة الدينية للمكسيكيين القدماء .

وبعض من هذه الكتب يتناول التاريخ ، كتلك المخطوطة التى تعرف بمخطوطة بوتيوريني Boturini وهى لفيفة طويلة تروى قصة التولتك الغامضين . وهو تاريخ غير محقق لسوء الحظ بسبب تقويم الدورة ذات الـ ٥٢ سنة وبسبب اختلاطه بكثير من المعلومات الأسطورية . وتتناول مخطوطات أخرى تاريخ الأسرات ، وبها وصف للحياة اليومية ، والإستراحامات ، والخراج ، والطقوس والإحتفالات . ويبدو أن التنجيم كان أكثر ما يهتم به الكهنة المكسيكيون ، وتوجد مخطوطة تعرف بمخطوطة فاتيكانوس إذ أنها الآن بين مقتنيات مكتبة الفاتيكان وبهذه المخطوطة ترتيب لأيام التقويم العشرين ولأرقام ١٣ ويسيطر على كل واحد منها إله يرعاه ، وقد سجل أحد الجنود الأسبان الذى ربما حصل على المخطوطة كتذكار بجانب كل من هذه الأيام حرف M أو B أو I بعد أن أخبره أحد كهنة المكسيك أنها سعيد bueno وأنها نحس malo وأنها لا بالسعيد ولا بالنحس indiferenté .

وكان المكسيكيون القدماء يستخدمون هذه الكتب للتنبؤ بالمستقبل فيستطيع الكاهن أن يعرف طالع من يسأل من أهل أبروشيته ويخبره عما إذا كان اليوم الذى اختاره لزواج قادم أو لمعركة مقبلة يوماً ترضى عنه الآلهة أم لا .

وكان يمكن أن تبقى معظم المخطوطات المكسيكية مجهولة لولا ماقام به أحد لوردات إنجلترا فى القرن الماضى وهو اللورد كنجزبره Kingsborough . لقد اتقد كنجزبره حماساً وهو طالب بجامعة اكسفورد حينما وقعت عينه على بعض المخطوطات المكسيكية القديمة التى وجدت طريقها إلى مكتبة بودليان . وأنفق كنجزبره حياته التى مع الأسف قصيرة فى جمع مخطوطات

مكسيكية أخرى تحمل واحدة منها اسمه ، وكان همه الأول أن يثبت من هذه الكتب القديمة أن المكسيكيين هم من نسل القبائل الاسرائيلية العشر المفقودة . ونشر كنجزبره سلسلة فاخرة من المخطوطات المكسيكية وزودها بكثير من الرسوم الملونة باليدوسماها ، آثار المكسيك ، وكلفه نشرها حياته فقد مات ذايلا فى أحد سجون دبلن بايرلندا ، وكان سبب دخوله السجن الديون التى تراكمت علية بسبب نشر الكتاب .

وكان للمكسيكيين سلسلة من الحروف لا تحمل إلا القليل من الشبه للحروف المايوية ، وهى حروف مصورة بصفة عامة . وكان اهتمام المكسيكيين فى نقوشهم بأمور كالمدن التى يفتحونها ودفع الجزية ومراسيم الاحتفالات الدينية ، وتكاد بعض النقوش تكون نظاماً أبجدياً ، ولكن نقوش المخطوطات المكسيكية لا تعرب إلا عن أقدم الأفكار . ولحسن الحظ كانت الكتابة النقشية لا تزال موجودة على عهد الفتح الأسبانى ، بل وحتى الصلوات المسيحية التى علمها الرهبان المتحمسون للهنود كانت تكتب فى أول أمرها بالنقوش المكسيكية .

ولم يعتن المكسيكيون بحفر تواريخهم المحسوبة على الأعمدة الحجرية كما فعل المايويون ، ولكنهم زخرفوا آثارهم برسوم غريبة لها صلات بالطقوس المقدسة . وندر أن دونوا تاريخا . وكانت أبرز الرسوم المكسيكية هى الجماجم والعظام البشرية ، وكانت الأيدى القاسية والأصابع والقلوب البشرية وغيرها من التصاوير المقبرية ، هى [1] الطابع المميز للفن المكسيكى . وغالباً ما يكون مع زخارف الموت هذه الكهنة المسئولون عن الطقوس بريشهم وملابسهم الزاهية . وكانت القرابين التى تقرب للآلهة المتعددة هى أهم الطقوس المكسيكية . فمن المنطق أن تقدم للآلهة قرباناً إذا كنت تسأله معروفاً ، وإذا

---

(١) هى صور تمثل فيها الموت بهيكل عظمى يقود الهياكل الأخرى الى المقبرة .

كان على آلهة المطر ان ينزلوه من السماء فليقدم لها الذهب واليشب وريش الزينة . وحياة الإنسان هى أثمن مايقدم للآلهة ، وقد إعتاد المايويون أن يقدموا الضحايا البشرية فى كثير من المناسبات وأصبحت التضحية البشرية عند المكسيكيين فكرة تسيطر على العقول .

ويصف برنال دياز الأزتك وهم يقدمون قرابينهم البشرية بعبارات مليئة بالحياة . وقد أخذ بعض رفاقه عنوة ، ووضعوا فى الأقفاص ليسمنوا استعداداً للتضحية بهم فى عيد من أعياد المكسيكيين . ويذكر لاس كازاس Las Casas وهو مؤرخ من القسس الأسبان الأول أن الأزتك فى الأيام الأخيرة لحكمهم كانوا يضحون سنوياً بنحو ٢٠ ألف أسير وينتزعون قلوب ٤٠٠ ضحية ليحتفلوا بإنشاء معبد واحد . وكان السبب الأكبر للحروب التى خاضها المكسيكيون بكل حماسة هو الرغبة فى الحصول على أسرى ليكونوا قرابين للآلهة . وتظهر الصور التى رسمها الأسبان الذين شهدوا الإحتفالات المكسيكية سلالم الأهرامات وهى ملطخة دائماً بدماء الضحايا الذين يرمى بأجسادهم الهامدة ليمزقها الجمهور المنتظر فى أسفل الهرم . وفى معظم المناسبات كان الشعب المكسيكى فيما يبدو يمزق الأجساد ثم يأكل مايناله منها . وإذا كان قلب الضحية قد قدم للشمس فقد أصبح لجسدها إذن قداسة الشمس .

وكان من صور التضحية البشرية التى مارسها المكسيكيون أن يلبس الشخص الذى سيضحى به شعار الملك . ويسلح بعصا من الريش ، ثم تربط إحدى رجليه بحبل قصير إلى رأس حجر كبير فى قمة الهرم . ويقف فى حفرة تجاهه محارب مكسيكى معه درعه وهراوة من الخشب فى طرفها نصل حاد من السبج . ولابد أن العامة كان يبهجهم كثيراً أن يرقبوا طول الوقت الذى يقضيه القربان المنكود فى شكاله القصير ، وهو يتجنب ضربات العصا ذات النصل التى لابد وأن تنهى حياته .

كانت كل عناصر الحضارة المكسيكية هذه موجودة بالفعل فى وادى المكسيك قبل أن يصل إليه الأزتك . ففى مطلع القرن العاشر الميلادى كانت تعيش عدة جماعات من الناس حول بحيرة تكسكوكو بأواسط الوادى . وكان لها جميعاً النتيجة ذات الـ ٥٢ سنة . وقد بنت الأهرامات وقدمت القرابين البشرية ومارست الطقوس الأخرى . ثم وفد الأزتك فى نحو القرن الثانى عشر وكان الأزتك كما تروى قصصهم المأثورة ذاتها قبيلة متوحشة جاهلة جاءت من جزيرة فى مستنقع مالح . وإذا كان هناك شىء من الصدق فى هذه الرواية فقد جاء الأزتك أصلا من الساحل ، من الشمال الشرقى فيما يحتمل ، ويمضى تاريخهم المأثور ليروى أن الأزتك بدأوا هجرتهم ولم يحملوا معهم شيئاً سوى إلههم الأكبر هوتزيلبيب بوشتلى Huitzilipochtli الإله الطنون ، وكانت هناك نبوءة تقول أنهم سيستقرون فى تلك البقعة التى سيجدون فيها نسراً يجلس على حجر فى وسط صبارة . وسيكون فى منقار النسر حية . وبعد سنوات من التجوال وصل الأزتك إلى وادى المكسيك ، وهناك على حافة البحيرة وجدوا النسر الجالس على حجر وقد أمسك ثعباناً بمنقاره ، ويظهر هذا الرمز الآن فى خاتم الدولة وعلى علم المكسيك .

ولم تنته متاعب الأزتك باكتشافهم الأرض الموعودة . فقد وجدوا شيئاً آخر سبقهم إليها ولكنهم تمكنوا من الإستقرار فيها على أى حال ربما لأن القبائل النازلة بوادى المكسيك كانوا برغم حضارتهم الراقية يتقاتلون فيما بينهم .

شرع الأزتك يبنون مدينتهم على جزيرة مستنقعية فى وسط البحيرة وسرعان ماتعلموا من جيرانهم الأحجار وبناء الأهرامات ، ولم تمض سوى سنوات معدودة حتى تعلموا أن يكون لهم تقويم ، وأن يبنوا أهراماتهم فى نهاية الفترات ذات الـ ٥٢ سنة . وكان تحمسهم فى موضوع التضحية البشرية

الذى عرفوه حديثاً أكثر من حماس أساتذتهم . وهكذا سرعان ما استخلف هؤلاء الناس أنفسهم على حضارة لم يصنعوها ، وكان الأزتك هم الذين وصلوا بالمدينة المكسيكية إلى أوجها . وأطلقوا على مدينتهم بوسط بحيرة تينوشتتلان ، المكان الذى يجلس فيه الإله على حجر فى الصبار ، وعززت المدينة المستنقعية بأرصفة من الحجر ، ومدت جسور ثلاثة كبرى تربط الجزيرة بالأرض المجاورة ، وكان على الجسور كبارى متحركة للدفاع . وفى وسط المدينة بنو قصوراً وأماكن للعبادة والرقص ، بل وأقاموا مبنى خاصاً لحفظ الطيور حتى يضمنوا مورداً ثابتاً للريش الملون ولكن أعظم مبانيهم كانت الأهرامات الحجرية التى شيدوها تمجيداً لآلهتهم وبخاصة هويتز يلبيوشتلى إلههم الحارس . وعندما كانت هذه المدينة فى أوج عظمتها كان هناك مئات من الأهرامات الحجرية ترتفع فى سماء تينوشتيتلان . وكان الهرم الأكبر أو ، تيوكالى ، Teocalli وهى كلمة معناها ، بيت الإله ، يفوق فى أهميته أى بناء آخر فى المكسيك كلها . ولا يمكن إلا أن نتوقع أن يكون تيوكالى تينوشتيتلان الأكبر ، أكثر روعة من الهرم الأكبر فى تيوتهواكان أو فى شوليولا .

لا عجب إذا كان الجنود الأسبان قد بهتوا أمام عظمة تينوشتيتلان وضخامتها حينما رأوها لأول مرة عبر مياه بحيرة تكسكوكو . وحتى كورتيز وأتباعه بهرتهم الأبنية الحجرية الكثيرة والقصور الضخمة التى شهدوها هناك فربطوا بين تينوشتيتلان والبندقية لكثرة ما بها من قنوات ، لقد كانت تينوشتيتلان يقيناً فى الوقت الذى حارب فيه كورتيز وجيشه فى شوارعها ، أضخم مدن الأمريكتين الشمالية والجنوبية وأكثرها عظمة ، فلم يكن حتى بين مراكز المايا مايضاهى عاصمة الأزتك فى سعتها وعظمة مبانيها .

سرق الأسبان كنوز مونتيزوما ولكنهم أجبروا على الجلاء عنها ، فشقوا طريقهم إلى الانسحاب وهم يقاتلون . ثم عاد كورتيز بجيش آخر ومعه حلفاء من الهنود . وسقطت مدينة تينوشتيتلان ونهبت كنوزها ، وفى

معركة أخرى بالجنوب أسر كورتيز جواتيموك Guatimoc آخر حكام الأزتك وحمله معه ، ثم قتله . وكان مقتله أسود أعمال التعذيب التى قام بها كورتيز فى حياته الملطخة بالدماء . وهكذا انتهى حكم المكسيكيين إلى الأبد . والواقع أن حضارة وادى المكسيك الرائعة كان قد حكم عليها بالفناء حينما عبر الأسبان الجسر لأول مرة ودخلوا مدينة تينوشتيتلان .

وكانت الحماسة المسيحية هى التى أتمت التدمير الذى بدأه الجنود الأسبان تماماً كما فعلت فى بلاد المايا . ولم ينصر من بقى من الأزتك فحسب بل وخربت كل الآثار الوثنية أيضاً ، وهدم التيوكالى الأكبر حجراً حجراً ، وبنيت فى مكانه كاتدرائية هى اليوم أكبر كنائس المكسيك . وظن أن المذبح العالى لهذه الكاتدرائية هو خير السبل لإبعاد الأرواح الشريرة التى لا تزال تحوم فى موضع الخزى هذا ، نتيجة لما ضحى به هناك من آلاف النفوس وهدمت كل الأهرامات الأخرى واستخدمت أنقاضها فى تشييد أبنية حديثة أو فى رصف الشوارع أو فى ردم محاصح بحيرة تكسكوكو . وتقوم مدينة المكسيك الحديثة على الأطلال المنبسطة التى كانت فى يوم ما مدينة تينوشتيتلان الزاهرة . ويحتل الزوكالو الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة فى الوقت الحاضر نفس المكان الذى جعل منه الأزتك الميدان الرئيسى فى مدينتهم وهنا وهناك قد يجد الزائر تحت مستوى الشوارع الحديثة بقية هرم ، أوجزءاً من حائط حجرى أو حية منقوشة فى الحجر مما يدل على أماكن بعض المبانى الأزتكية . ولم يبق سوى هذه الأشياء الصغيرة من المدينة الكبيرة التى كانت أكبر مدن أمريكا القديمة وأبهاها منظراً .

بيد أن هناك مراكز عبادة أخرى فى وسط وجنوب المكسيك ، فقد تعلمت الشعوب التوتوناك والأولميك والزابوتيك أن يبنوا الأهرامات من الحجر ، وأن يكون لهم تقويم وطقوس تتمشى مع فصوله ، وفى قابل الأيام سيتمكن الأثريون من أن يملأوا الفجوات فى تاريخ بناة الأهرامات وأصحاب التقاويم من أهل المكسيك وأمريكا الوسطى .

الفصل الرابع عشر

إنكا الأند

وقف أتاهواليا فى وسط ساحة مدينة كاكساماركا، وراحت الأضواء المنبعثة من المشاعل التى يحملها جنود الأسبان تتراقص على جسم الملك وملامحه الجميلة. وبدأ وجهه هادئاً والجلادون الأسبان يربطونه إلى عمود يتوسط الساحة ويكومون حزم الوقود من حوله. وتقدم الأب فنسنت دى فالفردى إلى الرجل المحكوم عليه بالإعدام، وهاهو الراهب الذى أعلن فى ذات المساء أن أتاهواليا يستحق الموت، يحاول الساعة أن يقنع الملك الواقف على عتبة الآخرة أن يخرج عن دين أسلافه ليعتنق المسيحية ولكى يزيد فى إغرائه يعده بأن يموت بالمخنقة التى يعدم بها المجرمون الأسبان بدلا من أن يحرق على العمود. وتطلع أتاهواليا إلى القائد الأسبانى بيزارو، فقد كان بيزارو هو الذى مناه بالحرية إذا ملأ الغرفة التى أسر فيها بالذهب والغرفة المجاورة لها مرتين بالفضة. وبعث أتاهواليا بأتباعه إلى كل أنحاء المملكة، فجمعوا الذهب والفضة وانتزعوا الأطباق من معابدهم ليحصلوا على القدر المطلوب. وهاهو بيزارو الآن فى حقده الأسود يدفع الموت ثمناً بالصفقة، وقبل أن تشعل النار فى حطب الوقود بلحظات نبذ أتاهواليا آلهة آبائه واعتنق الصليب. وأطلق عليه الأب فالفردى الاسم المسيحى

خوان دى أتاهواليا، ومن الخلف شد جندى المخنقة فتدلى خوان دى أتاهواليا فى أغلاله. وهكذا قضى نحبه آخر الإنكا، ابن الشمس وخاتم حكام مملكة مجيدة فى الأند.

كان ذلك فى يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٥٣٣ وعقب غروب الشمس مباشرة عندما غدر بيزارو وجنوده بأتاهوليا. وقبل ذلك بثلاثة عشر عاماً وضع كورتيز النهاية للمدينة المكسيكية النظيمة حينما استباح تينوشتيتلان عاصمة المكسيك وتركها نهباً لجنوده ثم أعدم غدراً جواتيوك خليفة مونتزوما وآخر الأزتك الشرعيين. وهكذا لم يكن لبيزورا السبق فى تخريب مدينة كاملة والقضاء على آخر ملوكها. فهو بقتله أتاهواليا قد قضى هو الآخر على مملكة أمريكية.

كان أتاهواليا آخر أباطرة الأنكا وكان حاكماً مطلقاً دانت له كل شعوب المنطقة الممتدة من أكوادور الحالية حتى شيلى الشمالية فى الجنوب، وامتد سلطانه فى الداخل حتى أعالى الأمزون. وفى هذه المنطقة الفسيحة بنيت مدن مدرجه وعمارات من الحجر، وحصون ضخمة وأبراج وثكنات وجسور، وفى بعض الجهات شيدت أهرامات مدرجة للعبادة وكانت هذه المدينة فى بعض جوانبها المادية أروع من أى مدينة أخرى فى أمريكا القديمة. ولكن كما أخذ أزتك وادى المكسيك كل معارفهم عن شعوب أخرى سبقتهم فكذلك كان إنكا الأند. فهم قد ورثوا امبراطوريتهم عن شعوب أقدم طورت العمارة والدين والفنون التى وجدها بيزارو.

ومنطقة الأند فى الواقع منطقتان من الناحية الأثرية. فعلى طول ساحل إكوادور وبيرو وشيلى الشمالية شريط من الأراضى الصحراوية الجافة يمتد من حضيض الجبال إلى مياه المحيط، وهذه المنطقة فى معظم أجزائها تكاد تخلو من الماء إلا حيث تنحدر الأنهار من الجبال إلى المحيط، وفى أودية هذه الأنهار عاش الشعب القديم يروى مزارعه بمياه الجبال التى تجرى بها

الأنهار ويبنى أهراماته الدينية ويقيم جباناته فى الصحراء التى تحف بالساحل. وفى جبال الأند نفسها وبخاصة فى أوديتها كثير من الأماكن التى تكون منطقة أثرية أخرى . وكان لسكان المناطق الجبلية سبل للعيش خاصة ، وكانت لهم أنواع من المبانى تختلف عن مبانى الساحل ، وكان أنديو الجبال على صلة بأندى الساحل ، ولكن اتبع كل منهما أسلوبه الخاص فى العيش خلال معظم تاريخ مدنياتهم ؛ ويميز الأثريون الآن بين عدة أقوام من أندى الساحل القدماء ، ويفرقون بين أنواع مدنيات الجبال .

وإنه لمن العجيب أن تنشأ مدنيات عظمى أو تزدهر فى منطقة الأند بأى حال . فالإقليم الساحلى صحراوى قاحل ، وسلاسل الأند نفسها وعرة جرداء . وكثير من الأودية يقع على ارتفاع شاهق ، والبرد والضباب ورذاذ المطر هى الأحوال المعتادة ونحن لا نتوقع أن تنشأ المدنيات الكبرى إلا فى أودية الأنهار حيث تجعل التربة الخصبة والمناخ الملائم إنتاج الغذاء أمراً ميسوراً .

ولكن بعض الناس قد شقوا طريقهم إلى أمريكا الجنوبية منذ عهد سحيق . وقد عثر الدكتور جونيوس بيرد Junius Bird أحد رجال متحف التاريخ الطبيعى الأمريكى وهو ينقب فى أقصى الطرف الجنوبى لشيلى فى أواخر الثلاثينات على كهوف ومعسكرات كانت تعيش فيها الشعوب القديمة . وأثبتت تواريخ النشاط الإشعاعى للكربون التى استقيت فيما بعد من عظام متفحمة للكسلان والحصان أخذت من هذه الكهوف ، أن الإنسان قد عاش هناك قبل ميلاد المسيح بنحو ٦ آلاف سنة على الأقل . وكان سكان هذه الكهوف من الصيادين ولقاطى الطعام . وكان أغلب صيدهم الجواناكو وهو ضرب من الإبل لا يزال يعيش فى الأجزاء الجنوبية من أمريكا الجنوبية ، وحصان العصر الجليدى الذى انقرض الآن. ومن المسلم به أن هذا الشعب القديم قد جاء من أمريكا الشمالية واجتاز

مضيق بنما ثم سلك طرقاً معوجة حتى وصل الأجزاء الجنوبية من أمريكا الجنوبية حيث عثر الدكتور بيرد على رماد مواقده ، وقد يكون بعضه قد بلغ الجنوب مجتازاً غابات حوض نهر الأمزون ، ولكن الأرجح أن جماعات من هؤلاء المهاجرين القدامى قد سلكت إلى الجنوب طريق أودية الأند أو سارت على طول ساحل بيرو ، وفى منطقة الأند وجدوا بقعاً واستوطنوها ، فاستقر بعضهم فيها ، وبدأت الحياة الأندية يقيناً منذ عهد سحيق.

وتدل آثار المعسكرات على طول الساحل أن بعض سكانه القدامى قد عاشوا على جمع الأسماك المحارية والنباتات البرية . وكان هناك سكان قدامى فى أودية الأند كذلك . وقد عاشوا على صيد الإبل الوحشية التى تخلفت عن العصور الجليدية وربما عرفوا أولى الغلات الزراعية ، ومن المشكوك فيه أن الذرة نفسها كان أول زراعتها فى جبال الأند ولكن من المقطوع به أن البطاطس البيضاء وأنواعا خاصة من القطانى نباتات أصيلة فى المنطقة .

ربما تكون الحياة الزراعية قد سبقت إلى بيرو وأكوادور قبل أى مكان آخر فى أمريكا . وتدل اختبارات النشاط الإشعاعى للكربون على أن الزراعة قد مارسها سكان الساحل البيروفى منذ ٤٥٠٠ سنة على الأقل. وكان أول ما زرعوه فى حقولهم البدائية الفول السودانى والقطن والقرع العسلى ولكنهم لم يزرعوا الذرة ، وحتى فى تلك العصور المبكرة يتشعب التاريخ الأركيولوجى لمنطقة الأند إلى شعبتين : جماعات من الفلاحين يستخدمون جداول للرى وينتجون غلاتهم الزراعية فى الأودية على طول الشريط الساحلى ، وفلاحون أنديون أخر يعيشون فى المناطق الجبلية فى نفس الوقت ولكن فى حضارات من نوع آخر . لقد كان شعب الساحل وشعب الجبال يتميز الواحد منهما عن الآخر خلال معظم عصر ما قبل التاريخ .

وعند ما غزا الأسبان أمبراطورية الإنكا ، اشتهرت بيرو بأنها بلاد أجمل أنواع الفخار . وعند نهاية القرن السادس عشر كان التجار الأوربيون يجلبون من بيرو أوانى بديعة الصنع ، عليها رسوم غريبة الشكل ومتعددة الألوان . وكانت هذه الأوانى الرائعة الزخرفة قد بدأت تكون مجموعات فى المتاحف قبل أن يدرى أى أحد من هم صانعوها بزمن طويل ، وقبل أن يعرف مكانها فى تاريخ الآثار الأندية . وكانت هذه القطع الجميلة من الفخار البيروفى توصف عادة بأنها « إنكاوية » وليس هناك من المعلومات عنها أكثر من ذلك . وبمجرد أن شرع الأثريون ينقبون فى بيرو أصبح من الواضح أن هذه الأوانى الفخارية المتعددة الألوان ليست إنكاوية على الإطلاق . لقد كانت من صنع شعب عاش على سواحل بيرو وفى جبالها قبل أن تقوم إمبراطورية الإنكا بقرون عديدة .

لقد أخذت كل جماعة زراعية فى أودية الأنهار وفى المناطق الجبلية عقب ظهور الزراعة فى منطقة الأند مباشرة ، تنتج نوعا متميزاً من الفخار . بيد أن أشهر هذه الأنواع وأكثر ما كان يطمع فيه الجامعون منها هو بالتأكيد ذلك النوع الجميل الذى كان يأتى من وادى نازكا فى جنوب بيرو . إن فخار نازكا الذى يميز الأثريون بين عدة أصناف منه الآن لمن أجمل المنتجات الخزفية فى أمريكا القديمة بل وربما فى العالم كله .

واجتذب الفخار عدداً من الأثريين فشرعوا ينقبون فى وادى نازكا فى العشرينات من هذا القرن ، ولكن فى الوقت الذى بدأت فيه أولى عمليات التنقيب كان السكان المحليون قد سبقوا فعلا إلى الحفر واستخرجوا أكثر من ٠٠٠و٥٠ ألف قطعة من فخار نازكا باعوها كتحف أثرية . وكانت معظم القبور القديمة حيث وضع السكان القدماء فخارهم قد نبشت وعبثت بها أيدى الحفارين المحليين . وساء الأثريين كذلك ألا يجدوا سوى القليل من الأدلة الظاهره على السطح من حضارة عظيمة فى وادى نازكا .

لم يكن هناك سوى عدد قليل من « الهواكا » أو الأهرامات ذات السطح المستوى المبنية بالطوب النيىء والمتواضعة الحجم ، وعثر الأثريون على بقايا مساكن يدل عليها إطار من الطوب المصنوع باليد ، وكانت بعض سفوح التلال على طول وادى نازكا قد درجت صناعياً . ولكن لايمكن لشىء من هذه الأدلة المعمارية أن يضارع فى حجمه وفى صناعته ماخلفه المايا الذين بنوا فى دقة فائقة أهراماتهم ومعابدهم الحجرية . وكان فى بيرو نفسها فى الواقع شعوب أخرى قديمة تفوق أهل نازكا فى المدنية ، وكان أن خرج الأثريون من وادى نازكا بفكرة أنه كان عند أقصى الطرف الجنوبى التوسع المعمارى وبناء الأهرامات فى أمريكا القديمة .

وخاب أمل الاثريين فى وادى نازكا فى ناحية أخرى . لقد أخرج الحفارون الأوائل من عدد من الأماكن القديمة فى بيرو واكوادور أشياء مصنوعة من النحاس والبرونز والذهب والفضة . وكانت وفرة الذهب فى المقام الأول هى التى أغرت الأسبان الجشعين بإمبراطورية الإنكا . ولكن الاثريين لم يجدوا إلا القليل من المعادن فى قبور نازكا المعدودة التى لم تمتد إليها يد التخريب . لقد طرق أهل نازكا القدامى بعض شذرات الذهب وجعلوا منها شرائح ضيقة من الذهب المطروق ، وزينوا هذه الشرائح بزخارف من أقنعة وجوه العفاريت . ولم يكن لدى أهل نازكا بعامة سوى القليل من الذهب وأقل القليل من النحاس ولم تكن لديهم فضة على الإطلاق .

ولكن أهل نازكا بلغوا غاية التفوق فى أمرين بعينهما . صنعوا الفخار البديع الصنع ونسجوا أرقى الأقمشة فى أمريكا القديمة ، ويعترف كل الأثريين الآن بالفخار النازكى . وتدل أشكال الأوعية ودقة صناعتها على تقدم الفنون الخزفية ، حتى لقد فاقت مثيلتها عند المايويين والمكسيكيين . وكانت أرقى ما وصل إليه أى شعب متمدين فى أمريكا القديمة . وتخصص

الخزافون النازكيون فى مزج الألوان المتعددة العجيبة ، فى ألوان كالارجوانى وأحمر الأنيلين والأزرق والأسود وألوان أخرى لم يتوصل إليها الخزافون القدامى الأخر . وكانت هذه الأوانى الجميلة التلوين تصنع فى المقام الأول لتوضع مع الأموات فى مقابرهم .

أعد النازكيون الأجداث التى يرتاح فيها العلية من موتاهم الراحة الأبدية وكانت طريقتهم أن يحفروا لحداً يبلغ عمقه نحو عشرة أقدام أو إثنى عشر قدماً ثم يحيطون قعره بقوالب من الطوب صنعت بعناية ، ويلحد الميت فى وضع الجالس تحيط به عشرة أو أكثر من الأوعية الفخارية كانت تحوى بلا شك ما يحتاج إليه مستقبلاً من الطعام والشراب . وكان الجسد نفسه يلف فى القماش عدة لفات . وبعد الدفن يسقف اللحد بقوائم خشبية تلقى فوقها قطع الصخر وفى بعض الحالات يرص فوقها الطوب . والأمر الملفت للنظر فى مدافن نازكا من الناحية الأثرية هو أن الصحراء الساحلية من الجفاف بحيث حفظت أقمشة الأكفان كما هى فى كثير من الحالات ، ولو أن مناخ المنطقة كان رطباً لما تيسر لنا أن نعرف شيئاً عن المنسوجات النازكية ، ولكن الأثريين والحالة هذه ، قد حصلوا على آلاف من قطع النسيج النازكوى القديم، وفى دراستها كسب لمزيد من الإستبصار بما كانت عليه المدنية النازكوية .

كان بعض النسيج النازكوى يصنع من خيوط من ألياف المجى[1] . وكان البعض الآخر من القطن أو من الصوف الذى يأخذونه من حيوانات الفيكونا والألباكا الوحشية . وكان بعض النسيج النازكوى بسيط الصنع وكان كثير منه أكثر تعقيداً من معظم أنواع الأقمشة الحديثة ، وكان أهل نازكا يصبغون الخيوط وينسجونها أقمشة متعددة الألوان . وقد تعرف

(١) المجى نوع من النبات الليفى ينمو فى المكسيك وهو شبيه بالسيسيل (المعرب)

أثرى واحد يدرس النسيج النازكوى على ١٩٠ لوناً مختلفاً من الصبغة . وكان النساجون القدامى فى نازكا يعرفون الأنواع المختلفة من المنسوجات ويصبغونها ، كانوا يعرفون القماش المزدوج والطنافس والشاش والمخرمات والمطرزات وأشغال الإبرة ذات الثلاثة أبعاد . وكانت الرسوم الكثيرة الألوان فى هذه الأقمشة متنوعة ومبهجة . وكان بعض هذه الرسوم يظهر فى الأقمشة وفى الفخار وكان من أكثرها شيوعاً الحيوانات فى طراز خاص ، والأجسام البشرية ، والوجوه المقنعة ، والخطوط الهندسية .

بهذه الأساليب الفنية المتنوعة صنع النازكيون الأردية والمزنرات والميادع والعباءات . وكان الشائع بخاصة صناعة العصائب والمناديل والطرح ، التى كانت تستخدم لتغطية الرأس . وكانت معظم ثيابهم قطعاً مستطيلة من القماش لم يبذل سوى القليل من المحاولة لتفصيلها أو خياطتها، ويحتمل أن يكون كثير من أنواع الثياب قد قصد به تكفين الموتى بصفة خاصة .

هذا التعقيد المذهل والأسلوب الفنى المتقدم فى صناعة النسيج ، يضاف إليه الفخار الدقيق الصنع ، فيه ما يكفى من الدليل على أن فلاحى نازكا لم يكونوا أول من بدأ هذه الصناعات . ولا شك أن الأوعية الفخارية الجميلة الأشكال والمنقوشة بعديد من الألوان قد بدأها شعب آخر أقدم ، كما أن الأقمشة الدقيقة المعقدة النسيج هى أيضاً مما يميز معظم جهات المنطقة الأندية . وليس من شك فى أن بدايتها الأولى ترجع إلى ماض سحيق .

بل ولم يكن فلاحو نازكا هم الشعب الوحيد فى المنطقة الساحلية فى هذه العصور المبكرة . فإلى الشمال من منطقة نازكا مباشرة ، فى وادى أيكا Ica عثر على كثير من الفخار والمنسوجات . لقد عثر فى براكاس إلى الشمال من وادى أيكا على « موميات » وهى فى حالات أحسن منها فى أى جهة أخرى بالاند . وكانت القبور فى براكاس سراديب تحفر فى أرض

الصحراء وتنتهى فى القاع إلى غرف فسيحة . وكانت الأجساد تدفن فى هذه الغرف جالسة فى دائرة وقد لفت فى أدراج عديدة من القماش الجميل . وتضم بعض مدافن براكاس ما يصل إلى ٤٨ مومياء ملفوفة أجلست على شكل دائرى . وتتفوق منسوجات براكاس حتى على مصنوعات نازكا فى تعقيد النسيج وفى الألوان والرسوم .

وفى شمال براكاس حيث تنحدر أنهار جبلية أخرى إلى البحر نجد فلاحين قدامى أخر صنعوا الفخار ونسجوا الأقمشة الجميلة ، وفى هذه المناطق الشمالية تزداد الأهرامات القطعاء وفرة . وتكثر الأدلة المعمارية الأخرى . ولكن لم تعرف أى حضارة ساحلية قطع الصخور على نطاق واسع ، أو تستخدم الأحجار فى مبانيها .

وحينما كان فلاحو الأودية الساحلية القدماء يواجهون قدرهم ويعبرون عن أحاسيسهم الفنية فى الفخار والمنسوجات ، كانت هناك جماعات أندية أخرى تعيش فى الجبال أسلوبها الخاص من المعيشة . وربما كان أكبر مكان فى كل المنطقة الأندية هو ذلك الموجود فى تياهواناكو عند الطرف الجنوبى لبحيرة تيتيكاكا فى بوليفيا . وبينما يعرف سكان الساحل فن البناء بالحجر عرف سكان الأودية حول بحيرة تيتيكاكا كيف يقطعون الصخر ويشيدون المبانى التذكارية .

وكانت تياهواناكو قد اندرست بالفعل حينما رآها الغزاة الأسبان لأول مرة فى سنة ١٥٥٠ ، ويبدو أن أكبر مبانيها فى وقت ما كان قصرا شاسع الأرجاء ، وإن يكن هناك من يذهب إلى أن هذه المبانى كانت يوما ما مرصدا ترصد فيه حركات الشمس . ويعتقد بعض الأثريين أن تياهواناكو كانت فى الواقع ميناء للبحيرة . وتتكون الأطلال الرئيسية التى يحددها خط من الأحجار الضخمة الجميلة القطع والمرصوصة فى وضع قائم ، من كتل ضخمة رباعية الزوايا أطوالها ٤٠٠و٤٤٠ قدم وقد صففت فى إتجاه شرق غربى .

ويبدو أن المبانى التى شيدت فوق هذه القاعدة كان معظمها من الطوب أو من أحجار أصغر حجما . وتحت هذه القواعد الضخمة أقبية تحت الأرض والواقع أن معظم ما بقى من الأطلال يقع تحت الأرض . وحجارة القواعد والأقبية محكمة القطع ، وقد ثبتت فى بعضها البعض بكلابات معدنية بدلاً من الملاط .

ومن أبرز معالم تياهواناكو « بوابة الشمس » التى ربما كانت مدخلاً إلى جزء من البناء الكبير ، والبوابة كلها نصب يتكون من حجر واحد فى واجهته الخلفية ست كوى ، وبالواجهة الأمامية أربعة طنف من الزخارف المنحوتة نحتاً بارزا ، وعلى وجه البوابة صور رجال على هيئة طيور تجرى ، وهذه الصور نفسها موجودة فى زخارف المنسوجات . وقد أعطت وحدات الشمس فى الزخرفة للبوابة إسمها .

وليست تياهواناكو سوى واحدة من أماكن كثيرة فى منطقة بحيرة تيتيكاكا . وقد تعلم السكان الأول هنا قطع الأحجار وربطها بعضها ببعض فى مهارة فائقة وأثبتت الحفائر فى تياهواناكو وغيرها من الأماكن أن القوم كان لديهم كميات وفيرة من النحاس وبعض البرونز ، وكانت الكلابات التى تمسك بأحجار المبانى مصنوعة من النحاس ، وكانت الأزاميل والآلات المستخدمة فى قطع الأحجار مصنوعة من سبيكة من النحاس والبرونز .

وفخار أهل تياهواناكو كذلك له خصائصه ، ويختلف كثيراً عن فخار نازكا . وهو أيضاً مزخرف فى ألوان متعددة . وهو فى الغالب لا يزخرف بالرسوم وحدها بل وبالنحت البارز فى صور حيوانات كالقطط واللاما وأشكال تلبس أقنعة وتحمل رؤوسا تذكارية . ومن الفخار والنحت على الآثار كبوابة الشمس تعرف الأثريون على طراز تياهواناكوى فى الفن .

ونكاد لا نشك فى أن بناة تياهواناكو العظيمة كانوا يقطعون الأحجار ويجعلون منها قواعد مبانيهم الضخمة فى حوالى القرن العاشر الميلادى ، فى

نفس الوقت الذى كان فيه فلاحو نازكا يحفرون قنوات الرى بواديهم على الساحل . فلقد خرج سكان الجبال من أمثال أهل تياهواناكو من جبالهم عدة مرات للتجارة أو الغزو وأثروا فى المنطقة كلها .

وإلى الشمال وفى الجبال أيضاً تقع أطلال شافن الغامضة . وفيها شيد شعب زراعى المبانى ، وأقام مدنية راقية أقدم حتى من مدنية تياهواناكو ؛ وربما يرجع العهد بها إلى حوالى ٨٠٠ ق . م . وتتكون الأطلال الرئيسية من سلسلة من الروابى تذكر بمراكز العبادة المايوية الكبيرة . ويتوسط هذه المجموعة مصطبتان تعلو الواحدة منها الأخرى ، ويحيط بهما كتلة من المبانى . ويقوم معبد شافن الكبير بأعلى المصطبة ، وهى مبنى على شكل هرم مزين ، وهناك سلم من الحجر يؤدى إلى القمة . وبداخل المعبد الكبير والمصطبة المحيطة به تيه من الدهاليز والأروقة والغرف ، وفى الحيطان كوى كانت بلا شك تحوى فى يوم ما أصناماً اختفت منذ عهد بعيد . ولم يبق سوى نحت واحد بداخل الهرم الأساسى هو عمود من الجرانيت على شكل خنجر كبير يرتفع من أرضية إحدى الغرف العديدة حتى سقفها ، وقد تغطى سطح الخنجر الحجرى كله بالنقوش الجميلة المحفورة حفراً بارزاً . وقد حفر الفنان القديم إلهاً له رأس سنور تبرز من فمه مخالب ويغطيه شعر فى شكل ثعابين .

وفى العصور الأندية الأولى انتشر من شافن أسلوب للحفر وصناعة الفخار . وقلدت الشعوب القديمة الأخرى حتى تلك التى تعيش على الساحل الوجوه القطية الشكل البارزة المخالب التى صنعها نحاتو شافن . وتظهر أيضاً على الفخار المتأثر بالفن الشافنى الرءوس والمخالب السنورية محفورة فى العادة حفراً بارزاً . ولا نستطيع إلا أن نفترض أن التجار والجيوش فى بعض الحالات قد انحدرت من مرتفعاتها وسيطرت على الأودية الساحلية . ويستطيع الأثريون مهتدين بالوحدات الزخرفية المميزة وبالمنسوجات

ورسومها ، وبأنماط الفخار أن يتتبعوا هذه التحركات القديمة برغم أن أسماء الأفراد ذوى الأهمية والأحداث البارزة فى هذه الحقبة البعيدة من التاريخ الأمريكى قد نسيت منذ قرون طويلة .

اتحدت الحضارات الساحلية القديمة وحضارات المرتفعات فيما بعد ، وحدتها سلسلة من الأحداث السياسية التى أدت إلى تكوين إمبراطورية حقيقية . ومرة أخرى يستطيع الأثريون أن يتتبعوا سير الأحداث ولكن فى خطوطها العريضة فقط . وكان فلاحو وادى شيمو بالساحل هم أهم شعوب عصر التوحيد . فقد بسط الشيمو نفوذهم على سكان الجبال وعلى سكان المناطق المجاورة فى فجر العصور الأندية . وفخار الشيمو الأقدمين من أحسن الأنواع التى يعرفها الأثريون وهواة جمع الآثار . واستطاع الشيمو بعد سلسلة من الأحداث السياسية التى لابد وأنها تطلبت كثيراً من الحركات العسكرية أن يبنوا إمبراطورية لها شىء من الوحدة . وامتد الزمن بإمبراطورية الشيمو حتى العصر التاريخى ، وربما بلغت أوج عظمتها فى مكان ما حوالى القرن الثالث عشر الميلادى . وتتحدث الأساطير التى ترجع إلى عصور متأخرة عن زعماء الشيمو وعن مملكة شملت معظم الساحل ومرتفعات الأند .

ومدينة شان شان الشهيرة برهان على أن الشيمو هم المؤسسون الذين تتحدث عنهم هذه الأساطير . وشان شان عاصمة إمبراطورية الشيمو إحدى المدن القديمة القليلة التى تضارع مدينة كبيرة من المدن الحديثة . وتغطى أطلالها مساحة تبلغ أحد عشر ميلا مربعاً وتتكون من تركيب من الشوارع والقصور والعمارات المبنية بالطوب ، وقد خططت المدينة بعناية وكان تخطيطها فى وحدات أو قلاع ، كما تسمى ؛ كل منها مدينة قائمة بذاتها . ويدل منظر هذه الأطلال الأندية القديمة من الجو على أنها بقايا مدينة عظيمة ، فما كان يستطيع بناة مدينة على هذه السعة ولها هذا التخطيط

التنظيم إلا شعب على جانب كبير من التنظيم في إمبراطورية سياسية وروحية دينية .

امتدت إمبراطورية الشيمو وهي في أوج قوتها من إكوادور الحالية على طول الساحل البيروفي جنوباً لتضم معظم الأودية الساحلية ، وكان لها السيطرة على معظم المناطق الجبلية . وفي هذه الممتلكات الواسعة أسسوا مدناً هي شبه حضرية من شان شان ، وكانت الحصون والأهرامات الضخمة وقنوات الري هي حصيلة قدرة الشيمو على التنظيم ، وقد لا يكون لإمبراطورية الشيمو في عصرها الأخير الضخم الفني الذي كان لها في عصورها الأولى ، فالفخار ينقصه الجمال وإحكام الصنعة ، وليس المباني الحديثة بالطوب بروعة المباني الحجرية في شافن أو تياهواناكو ، وحتى الأهرامات الضخمة صغيرة الحجم بسيطة الخطوط مقتطعة ، ولكن ربما كان انحطاط الأسلوب الفني علامة على أن الشيمو قد اعتبروا التنظيم السياسي للإمبراطورية أكثر أهمية من صناعة الفخار المنقوش أو المنسوجات الملونة ، فقد عرفوا بلا شك أن بناء إمبراطورية عمل ليس بالهين ولا باليسير ، وكانت فترة ركود ، ثم أخذت إمبراطورية الشيمو تتفكك إلى عناصرها وشعوبها الأصلية ، ولكن كانت قد ظهرت بالفعل قوة جديدة في مرتفعات الأند .

وعندما نتحدث عن الأند وما قبلها فإن حديثنا ينصب في العادة على حضارة الإنكا ، مع أنه أصبح من الواضح حتى مع الدراسة السطحية للآثار الأندية أن الإنكا لم يظهروا على المسرح إلا متأخرين . والمأثور أن الإنكا إنما جاءوا من جنوب المنطقة الأندية ، من الجهات التي حول كوزكو حيث تجري روافد الأمزون في خوانق عميقة . وأياً كان الوطن الأول الذي جاء منه الإنكا فقد ظهروا في المرتفعات أولاً وأخذوا بحضارة الشعوب التي كانت تعيش هناك . وكان هذا مثلاً آخر على قبيلة تعيش حيوية ، تأخذ بحضارة

شعب سابق ثم لا تلبث أن تحكم المنطقة كلها . وسرعان ما تعلم الإنكا في قطع الأحجار الضخمة واستخدامها في البناء من بناة تياهواناكو الذين سبقوهم وتعلموا كيف يصنعون الآلات والأسلحة المعدنية من الشعوب الأندية الأخرى . والأكثر أهمية أنهم تعلموا كيف يصنعون أخلاطاً من الناس ليكونوا إمبراطورية . وليس من شك في أن التنظيم الإنكاوي قد قام على أساس إمبراطوريات أخرى سابقة .

وأصبحت كوزكو القائمة في الجبال عاصمة الإمبراطورية الإنكاوية . ويتميز وادي كوزكو بالأطلال القديمة ويحيا طرق في القمم . وفي كوزكو نفسها أدلة كثيرة على أن الإنكا قد أخذوا بالمنشآت التي كانت قائمة فعلاً هناك . ويستطيع الزائر لمدينة كوزكو اليوم أن يرى كيف أخذ الإنكاويون الدرس الذي تعلموه من الشعوب السابقة . فمعابد الشمس والأحجار المحكمة القطع والبناء في مباني شوارع كوزكو والمدرجات ومداخل البيوت كلها تشهد بمهارة قطاع الأحجار الإنكاويين .

وفي مرتفعات الإنكا أيضاً عدة من مدن الحصون الكبيرة ، يقع كثير منها غير بعيد من كوزكو ، وتقوم ماتشو بكشو Machu Picchu نموذجاً لهذه المدن العسكرية الإنكاوية . وهنا نجد الأدلة الأثرية تشير مرة أخرى إلى شعب قديم سكن المنطقة في القرون الغابرة ولكن المدرجات والحوائط الحجرية الضخمة التي يراها من يزور المنطقة اليوم تتحدث عن عظمة الإنكا الذين أفادوا من مجهودات كل من سبقهم .

بسط حكام الإنكا الذين اعتبروا أنفسهم أبناء الشمس سلطانهم على مساحة من الأرض أوسع من تلك التي امتدت إليها قوة الشيمو الأقدمين وشقت الطرق في كل أرجاء المملكة التي امتدت في وقت ما من شيلي ، وأرجنتينا حتى أكوادور في الشمال . وعبّد الإنكا ما يزيد على ٢ر٠٠٠ آلاف ميل من الطرق كان بعضها مرصوفاً ، وأنشأوا القناطر الحجرية

على الأنهار ، والجسور المعلقة عبر الخرانق الشديدة الانحدار ، بل وأقيمت معابر الزوارق فى المجارى المائية التى ما كان يتيسر اجتيازها إلا بهذه الوسيلة، وإنشئت المخافر والحصون لحماية شبكة مواصلات المملكة ، وكان السعاة الملكيون يتناوبون حمل الأخبار والمراسيم على هذه الطرق ، وكانت هناك حاميات منظمة تقوم بالثكنات التى أقيمت فى النقط الاستراتيجية ، فليس غريباً إذن مع هذا التنظيم الدقيق أن يتمكن الإنكا من جمع كميات، الذهب الضخمة التى أثارت جشع الغزاة الأسبان .

ولكن حتى مع هذا التنظيم الدقيق كانت أمبراطورية الإنكا ينقصها كثير من خصائص الحضارات الأمريكية الأخرى ، فلم يحتفظ أحد من الشعوب الأندية بحركة الزمن فى تقويم يعتمد على حسابات رياضية مركبة، ولم يكن للأنديين حروف تصويرية أوكتابة حقيقية . لقد ابتكروا نظاماً لنقل الرسائل وللعد يستخدمون فيه جهازاً من مجموعة من الخيوط ، وكان يطلق عليه اسم « الكويبو » Quipu ، ويتكون من حبل رئيسى تتدلى منه سلسلة من الخيوط ، وكانت هذه الخيوط المدلاة تعقد فتمثل كل عقدة عدداً فى نظام عشرى ، وكان كل خيط يمثل الأرقام دون العشرة على الترتيب ، وهكذا يستطيع قائد للجيش أن يبعث رسولا بكويبو يحمل الأمر بإرسال العدد من الجنود الذى تمثله عقد الخيوط فى حملة معينة ، ويستعمل الكويبو أيضا فى إحصاء الضرائب والحسابات الفلكية وكانت الخيوط والعقد هى الأخرى ملونة . ولكن الكويبو لم يكن إلا عاملاً مساعداً للذاكرة ، ولم يكن نظاماً حقيقياً للكتابة على أى حال .

ولم تكن للأنديين سجلات معروفة بسبب عدم وجود تقويم أو طريقة للكتابة ، ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا ينقشون علامات على حبوب فاصولية ليما العريضة ، وكانت الفاصولية المنقوشة يحملها السعاة الملكيون غالباً كدليل على أن الرسالة التى يحملونها رسالة صحيحة .

وتتمثل مفاخر الأنديين الفنية والفكرية فى دقة أشغالهم المعدنية ، وفى ضخامة مبانيهم الحجرية وأحكامها ، وبصفة خاصة فى قدرتهم على التنظيم . وكان الأنديون من عدة وجوه أكثر اهتماماً بالأمر الواقع من جيرانهم فى الشمال . فكان أعظم ما قام به الشيمو ثم الأنكا من بعدهم هو تأسيس المدن الفسيحة وتدريج سفوح الجبال وتشييد المبانى الحجرية الضخمة ولم يبذلوا إلا جهداً قليلا نسبياً فى بناء الأهرامات والمبانى ذات الأغراض الدينية الخالصة . وربما كان مرد هذا أن ملك الأنكا نفسه كان ابن الشمس وكان المعبود الأعظم فى الإمبراطوريه .

وعندما أسر بيزارو وجنوده الأسبان أتاهواليا آخر ملوك الأنكا فقد أسروا المعبود الحاكم للامبراطوريه الأندية الواسعة . وربما أدرك بيزارو الماكر أنه بقتله أتاهواليا غدراً ، حتى بعد أن دفع الكفالة وملأ الغرفة التى أسر فيها بالذهب إلى أقصى ارتفاع تبلغه يداه ، يستطيع أن يقضى على حياة الأمبراطوريه ، وقد جمع أتباع أتاهواليا ما يساوى حتى بالسعر الحاضر ١٧ مليون دولار ليدفعوا الكفالة المطلوبة منهم . فأى شعب من الشعوب القديمة فى العالم كان باستطاعته أن يجمع كل هذه الثروة فى كومة واحدة ؟ لقد كانت الدرجة العليا من التنظيم هى الفخ الذى وقع فيه الأنكاويون . وبموت قائدهم الأعلى ابن الشمس ، انهارت معنوياتهم فضلا عن عزيمتهم العسكرية فتقوض النظام كله من أساسه . وقضت شدة واحدة لحبل المخنقة على نظام شامل كونته شعوب متعددة فى عشرات من القرون .

ولكن من يشهد فى وقتنا الراهن بقايا الحياة القديمة فى الساحل البيروفى وأطلال المدن ذات المبانى الحجرية على مرتفعات الأند ، يدرك فعلا أن هذه الجهات قد شهدت أعظم الحضارات فى أمريكا القديمة . لقد كانت الشعوب الأندية هى التى اهدت العصور القديمة والحديثة على السواء كثيراً من الغلات الزراعية المهمة . وكان لهم التفوق الأسمى فى الفخار والنسيج

والعمارة . والحضارات الأندية دليل آخر على أن أمريكا ما قبل التاريخ كان بها كثير من العقول الضخمة والرجال العظام .

وهناك أمثلة كثيرة على التوازية فى الحضارة البشرية ، فعندما كانت مدنيات مصر وبلاد ما بين النهرين والهند والصين تنمو وتتطور فى العالم القديم كانت هناك مدنيات تشاكلها فى العالم الجديد . لقد بنى المصريون أهرامات وابتكروا تقويماً وهكذا فعل المايويون ، وكان مفهوم الصفر من اختراع قدامى الهنود كما هو من اختراع رياضى أمريكا القدماء . وأهدى الصينيون الأوائل الأرز إلى الزراعة العالمية وأهداها الأمريكيون الأول الذرة . ومن أمثلة هذه الأعمال المتوازية يظهر أن الحضارة الأمريكية القديمة لها من المكانة ما لحضارات العالم القديم . وقد أكدت الحفائر الحديثة أهمية التاريخ القديم للعالم الجديد ، وستضيف حفائر المستقبل فصولاً جديدة فى قصة أمريكا . ونأمل أن يعثر أثريو الغد على هيكل الإنسان سانديا ، وأن يهتدوا إلى البداية الأولى للزراعة ، وأن يكشفوا عن أصل الإسكيمو ، وأن يعرفوا مصدر بناة المتاريس الأول . وقد ترفع الحفائر القادمة القناع عما لم يكشف من أسرار الحروف المايوية أو تحل لغز «التوليك» . لقد عرفنا جزءاً كبيراً من القصة القديمة ، ولكن لا نزال هناك أجزاء تنتظر من يكشف عنها .



الناشر
مكتبة مصر
شارع كامل صدقي - القاهرة

٣٠ ق